أعوام المحنة

سياسة احمد جمال باشا في سورية

للدكتور توفيق برو

لذكرى السادس من أيار ١٩١٦ صدى عميق في قلوب العرب ، انه مُعْلَم بين أيام التاريخ العربي ، نحيي ذكراه لا لنذرف الدمع ، فالذين استشهدوا فيه أحرى بان تقام لهم أقواس النصر ، انهم بناة الاستقلال ، وانه عرس المجد ، ارسوا فيه دعائم الحرية والكرامة الوطنية . انه يوم أغر في عهد قاتم ، كتب فيه الشهداء صفحة بيضاء في كتاب اسود سطرته أنامل الطاغية أحمد جمال .

أنا لا أؤمن بما اعتاد بعض كتابنا أن يقولوه في مناسبة الحديث عن ذلك اليوم إن شهداءه راحوا ضحية الغدر ، بمجرد الغدر ، دون ان يكونوا قد قاموا بعمل موجب . بل أنا أؤمن بأن الشهادة قد كتبت على المؤمنين بمبادئهم ، المناضلين في سبيل قضيتهم . قالوا – من غير تدقيق – إن العرب قد أوقفوا نشاطهم السياسي بعد اعلان الحرب العالمية الاولى ، وأن مناضليهم لم يحركوا ساكناً في سبيل مطاليبهم القومية التي كانوا يناضلون في سبيلها قبل الحرب ، الى ان نصب جمال باشا مشانقه للشهداء منهم ، وبدأ حركة افناء لمتنوريهم واذكيائهم . والحقيقة انهم لم يكفوا عن نشاطهم إلا كما يفعل القائد المحنك في المعركة عندما يطرأ حال جديد على سير الحرب ، يقف متريثاً ريثما تتهيأ له الفرصة الملائمة للانقضاض من جديد ولاحراز النصر الحاسم . صحيح انهم تريثوا لفترة وجيزة عقب التعبئة العامة ، لكنهم مالبثوا أن استأنفوا نشاطهم فور دخول تركيا في الحرب ، وقبل أن تبدأ مجازر جمال بسنة واحدة على الاقل ، وبعدما تيقنوا من عدم اهتمام الترك بمطاليبهم القومية ، بل سوقهم الى المجزرة العالمية دون رضاهم .

أما الغدر فلا سبيل الى نفيه عن الطاغية في بعض الحالات ، ولكن في جريان المعركة ، انما الذي يميز سلوكه وسلوك دولته هو العسف ، وسياسة البطش ، ناهيك عن هذه السياسة من اسلوب بلغ منتهاه في أعمال الطاغية ، حتى أصبح شبيهاً بوحش كاسر مسعور ، لاترتوي حواسه وجوارحه إلا برائحة الدم ، بالتمرغ في الدم .

لقد أحب بعض كتاب العرب أن يبرئوا الشهداء من النشاط السياسي قبيل اعدامهم لأسباب منها : اظهار العرب بمظهر المخلصين للجامعة الاسلامية التي كانت تربطهم بالترك أو إبعاد أي شبهة باتصالهم وتعاونهم مع الدول الاجنبية التي تحارب الدولة العثمانية ، أو الامعان في تجريم الاتحاديين حكام تركيا الفتاة ، وعلى رأسهم انور باشا وجمال باشا ، باظهارهم بمظهر الطغيان والعسف بدون سبب موجب ، او تبرئة العرب من كل محاولة للخروج عن نطاق الدولة العثمانية ، وبالتالي من كل وصمة يمكن ان تجر عليهم تهمة الخيانة والانفصالية .

وقبل أن آتي بالادلة التي توضح الحقائق حول هذه النقط أود أن أقول أن ثبوت كونهم قد عملوا في سبيل مطالب أمتهم القومية لايعني مطلقاً انهم قد ارتكبوا خيانة ما للدولة العثمانية ، تلك التي كانت تعتبر نفسها دولة الخلافة الاسلامية ، لأن الأفكار القومية

كانت قد تحمرت في نفوسهم الى درجة انها اضعفت صلتهم بالدولة برباط الجامعة الاسلامية ، لاسيا وأن الترك انفسهم قد تحولوا فعلاً ، لا قولا ، عن هذه الرابطة . ذلك ما استوثق من صحته القوميون العرب . إما الرابطة العثانية فغني عن القول انهم اعتبروها وهماً تغنى به الاتحاديون وجعلوه ستاراً لاغراضهم القوميـــة . وأما تجريم الاتحاديين بالطغيان والعسف فهو من الوضوح بحيث لايحتاج الى نكران النضال الذي ثابر عليه احرار العرب اثر اعلان الحرب ، بل ان هذا النكران يقلل من قيمة استشهادهم ، وما قيمة الشهادة اذا لم تكن تجسيماً للتفاني في الدفاع عن مبدأ يقف المرء حياته لتحقيقه ، دون ان يحسب حساباً لأي اعتبار آخر يدعوه الى تجميد نشاطه .

موقف احرار العرب من اعلان الحرب العالمية الاولى :

خاض المناضلون من احرار العرب كفاحاً طويلاً وشاقاً في سبيل الحصول على حقوقهم القومية ضمن نطاق الرابطة العثمانية منذ أن قامت ثورة ١٩٠٨ الدستورية ضد استبداد السلطان عبد الحميد . وقد تطور كفاحهم في عام ١٩١٢ الى المطالبة بالنظام اللامركزي في حكم ولاياتهم ، والسعي في ان يكون لهم اسهام في الادارة العامة المركزية ، والاضطلاع بتدبير شؤونهم الخاصة بأنفسهم في ولاياتهم العربية ، واعطاء لغتهـــم مركزاً معتبراً ، سواء في التعليم أو في الدوائر الرسمية ، درءاً لخطة التتريك التي كانوا معرضين لها حسب سياسة رسمتها الدولة العثمانية في عهدها الدستوري . ولما عقد مؤتمر باريس (حزيران ١٩١٣) بمساعي اعضاء جمعية « العربية الفتاة » وحزب « اللامركزية العثمانية الادارية » في مصر ، نال احرار العرب عقب نجاحه اعترافاً من الدولة العثمانية بمعظم ما كانوا يطالبون به من حقوق ، ووقعوا معها اتفاقية بتحقيق مطالبهم . غير ان نشوب الحرب العالمية كان مناسبة سرعان ما اغتنمها الاتحاديون للنكوص على اعقابهم ،

والنكول عن تنفيذ ماوعدوا به العرب ، فوقف احرار العرب من هذا النكول موقف التبرم والامتعاض .

بدأت الحرب العالمية في أول آب ١٩١٤ في اوربا فبادرت تركيا الى اقرار واعلان تعبئتها العامة في ٣ آب مدعية ان قصدها من ذلك تدعيم حيادها الذي اعلنته في نفس الوقت [١] . لكن المتطرفين من حكامها ، وعلى رأسهم وزير الحربية أنور باشا ، كانوا قبل يوم واحد (٢ آب) قد عقدوا معاهدة دفاعية سرية مع المانيا تتيح لالمانيا الاضطلاع الفعلي بالقيادة العليـا للجيش العثماني فيما اذا دخلت روسيا الحرب بجانب المعسكر المعادي [٢] .

لم يطلع العرب - بالطبع - على خفايا السياسة التركية . ولذلك فانهم جمدوا نشاطهم موقتاً ، واتخذوا التريث خطة لهم ريثما ينجلي الموقف ، لاسيما وان زعماءهم لم يكونوا على الرأي القائل باشتراك دولتهم في الحرب . وقد أظهر بعضهم غيرتهم على الدولة من أن تطيح بها الأطماع الأجنبية ، كما يبدو من الكتب التي تبادلوها - وهم لو استطاعوا لمنعوها من دخول الحرب - غير انهم قد رسموا الخطة لاغتنام الفرصة في الحصول على ضمانات لتحقيق مطالبهم القومية ، ملتزمين في ذلك جانب الحيطة والحذر الشديدين غير مسقطين من حسابهم ما للدول الاجنبية من مطامع شريرة في بلادهم . وقد تداول بعض زعمائهم الأمر مع المسؤولين الترك ، وتمكن عبد الكريم الخليل - وكان يعمل يداً بيد مع الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، عضو مجلس الاعيان ، ويميلان الى الاعتدال في المطالب

---

(١) Yusuf Hikmet Bayur , Türkiye Inkilabi tarihi , T. III , P. I , PP. 62 - 93

(٢) Hurewitz : Diplomacy in the Near and the Middle East, II, Doc . №I. 2 / 8 / 1914

الاصلاحية العربية ـ من الحصول على وعد منهم بأن تجيبه الحكومة الى « كل المطالب العادلة باسم الأمة العربيـــة او باسم الاحرار من ابنائها »[1].

لذلك وبانتظار انجلاء موقف الدولة العثمانية من حيث اجابتها لمطالبهم بالفعل، وموقف الدول الاوربية من حيث اطماعهــا في بلادهم، والموقف العام من حيث اشتراك الدولة العثمانية في الحرب أو عدمه، اتخذ الاصلاحيون العرب خطة التأييـــد التام للدولة في الازمة الدولية القائمة، وشد أزرها حتى لاتقع في براثن الطامعين « لأنهم لم يفكروا يوماً في ان يستبدلوا بالحكم التركي حكماً أجنبياً يكون شراً وأدهى »[2]، فأوقفوا نشاطهم المعادي للاتراك، وتوقفت جرائدهم عن الخوض في المطالب العربية، ولبى شبانهم نداء التعبئة العامة، ولم يتأخر عن ذلك حتى الزعماء المرموقين في جمعية « العربية الفتاة ».

وأسطع دليل على ذلك مبادرة المناضل محمد المحمصاني، وكان يوم اعلان التعبئة العثمانية في مهمة كلفته جمعيته بادائها في مصر، فعاد مسرعاً الى بيروت تلبية لنداء واجب الخدمة العسكرية كغيره من شبان الجمعية وسائر شبان العرب القوميين. وقد صرح لأحد اصدقائه ـ ممن نصحوه بالبقاء ـ قائلاً « ان الوطن بحاجة الى كل فرد من ابنائه في هذا الأوان العصيب، فمن الخيانة ان لانقوم بالواجب علينا نحوه »[3].

وقـــد جاء في بعض الرسائل التي تبادلها المناضلون العرب حرصهم على

---

(١) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٥٧ من كتاب ارسله عبد الكريم من الاستانة الى صديق له في سورية في ١٩١٤/٨/٦.

(٢) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص ٣٨.

(٣) اسعد داغر: ثورة العرب، ص ١٢٩

مساعدة الدولة العثمانية في الأزمة الدولية الناشبة. من ذلك كتاب وجهه عبد الكريم الخليل من الاستانة في ٦ آب الى احد اصدقائه في دمشق يوصي بـه شبان العرب بأن يبذلوا جهدهم في تنفيذ ما اتخذته الدولة العلية من تدابير لتدرأ عن السلطنة خطر الحرب العظمى ، وبان الواجب يقضي بشد أزر الحكومة وازالة النفور بين العناصر المختلفة واظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها ، لمنع اعتداء الدول الغربية والخروج من هذه الازمة ارفع شأناً واعلى مقاماً . ومن الكتب الكثيرة نكتفي بالتنويه بالرسالة التي بعث بها احمد مختار بيهم الى صديق له في مصر بتاريخ ٢٦ تشرين اول – اي قبل اعلان تركيا الحرب الى جانب المانيا باسبوع واحد – قال فيها : « لقد الغينا احزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية ، لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك ، ولسوف يرى اخواننا الترك من اعمالنا في هـذه الحرب ما يظهر لهم عظيم اخلاصنا للعرش العثماني وتفانينا في خدمة الوطن المشترك ..»[1]

كان هذا قبل اشتراك تركيا في الحرب . اما بعد اشتراكها فيها بصورة فعلية بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وبصورة مفاجئة وبطرق ملتوية قام بها انور باشا بالاتفاق مع الاميرال الالماني « سوشون » قائد الاسطول العثماني الذي سمح له أنور بمهاجمة الموانىء الروسية والاسطول الروسي في البحر الاسود واغراق بعض وحداته ، ووضع الحكومة التركية – المترددة في دخول الحرب – امام الأمر الواقع من زج نفسها في أتونها[2] ، خلافاً لرغبة العرب ومصلحتهم في الحياد التام ، فقد تبلور الموقف العربي في ثلاثة آراء متميزة :

اولاً : رأي يقول بتأييد الترك في نضالهم مع المانيا ، والاخلاص لهم

(١) امين سعيد : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٨

(٢) Y. H. Bayur, Ibid., PP. 230 - 233

ومساعدتهم بجميع الوسائل ليخرجوا من المعترك فائزين ، على ان يُنظر بنهاية الحرب ، وحالة الانتصار ، في تسوية الخلاف بين الترك والعرب . وكان من القائلين بهذا الرأي شكيب ارسلان وعبد الرحمن باشا اليوسف ومحمد باشا العظم ومن لف لفهم من السوريين ، ومعروف الرصافي ومحمد صدقي الزهاوي من العراقيين.

ثانياً : رأي يقول باغتنام فرصة الحرب السانحة لطرح النير التركي وبلوغ الاستقلال التام مع وجوب التحفظ بسبب اطماع الدول الاجنبية . وكان القائلون بهذا الرأي من دعاة تكوين دولة عربية موحدة او اتحادية او كونفدرالية تضم جميع البلاد العربية ، واغلبهم مثقفون ثقافة عالية ، ويمثلون طليعة النضال العربي المتحرر ، وقد ارتفعوا بمبادئهم الى المستوى المثالي ، فضحوا بأرواحهم شهداء في سبيل مثلهم العليا ، وجلهم اعضاء جمعية « العربية الفتاة » وبعضهم من « جمعية العهد » و « حزب اللامركزية الادارية » .

ثالثاً : رأي القائلين بالانضمام الى الحلفاء ومساعدتهم على الترك ، وتسهيل استيلائهم على البلاد ليبسطوا حكمهم عليها ، واغلبية هؤلاء من لبنان ، وكانوا يكرهون كل ما هو عربي ويتمنون الانضواء تحت علم دولة اوربية[1] .

ان دخول تركيا في الحرب قد أحدث — في الواقع — ارتباكاً في نفوس المناضلين العرب الحقيقيين ممن صنفوا في الفئة الثانية ، وادخل الخوف والجزع الى قلوبهم من أن تتعرض اقطارهم للاخطار الأجنبية والاطماع الاستعمارية ، فعقدوا العزم على بذل الجهد للوصول الى غاية مزدوجة : استغلال الموقف لتحقيق استقلال بلادهم حفاظاً على كيانها وتجنيبها ويلات الحرب من جهة ، والعمل على منع وقوعها

(١) امين سعيد : الدولة العربية المتحدة ، ص ١٢ .
Nadra Moutran ; La Syrie de Demain P. 33

في براثن الاستعمار الأوربي من جهة ثانية . فلما اجتمعت اللجنة العليا لجمعية «العربية الفتاة» ، بحثت الأمر وانعمت النظر في الموقف العام واحاطت بجميع جوانبه واتخذت قراراً يقول إنه «نتيجة لاشتراك تركيا في الحرب، أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لخطر شديد ، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها . ومن المقرر انه اذا تحقق ان للدول الاوربية مطامع في هذه البلاد ، فان الجمعية ملزمة بأن تعمل الى جانب تركيا لكي تقاوم التدخل الأجنبي مهما تكن صورته »[1] . وكذلك اصدر عزيز علي المصري ، مؤسس جمعية «العهد» - وكان مقيماً في القاهرة - تحذيراً لزعماء الجمعية ، في الولايات العربية العثمانية «من ان ينساقوا الى القيام بعمل عدائي تجاه الدولة ، لأن دخولها الحرب سيعرض ولاياتها العربية للغزو . وهذا مايحتم عليهم الآن ان يقفوا بجانبها الى ان يحصلوا على الضمانات الكفيلة بحماية هذه الولايات من المآرب الأوربية»[2] .

كان هذا في بداية دخول الدولة العثمانية في الحرب، الا أن الأحداث الطارئة قد طورت موقفهم فيما بعد بسبب تردي الأوضاع الداخلية، واتصال ممثلي الحلفاء بزعمائهم في مختلف المناسبات ، وارتياب السلطات التركية بنواياهم ، فازداد الشقاق والخلف بينهم وبين ممثلي الحكومة ، وأدى الأمر الى الارهاب وسفك الدماء .

فمن الناحية الداخلية لجأت الحكومة الى تدابير داخلية لمواجهة المشاكل التي قد تنجم عن حالة الحرب ، فأصدرت قانون التكاليف الحربية

---

(١) مذكرات الدكتور احمد قدري ، ص ٣٨

(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب (ترجمة الركابي) ، ص ١٧٥

بمصادرة قسم من المؤن والارزاق وحيوانات النقل والمواشي وشتى المحاصيل او بشرائها لقاء سندات تسلم لاصحابها وتسدد قيمتها بعد نهاية الحرب [1] بما يشبه السلب والنهب . وقد ارتكبت اساليب مقيتة في تطبيق هذا القانون بحيث أعطي رجال الامن المجال الفسيح للتنكيل بالسكان ، واغتصاب اموالهم بقسوة ووحشية . ثم أصدرت الحكومة قانون التعبئة العامة الذي طبق ايضاً تطبيقاً متعسفاً وشاذاً . وقد زادت على هذه التدابير القاسية بلاء" فوق بلاء كوارث الطبيعة من قحط ومن مهاجمة أرجال الجراد البلاد العربية ، فكانت بالاضافة الى تدابير الحكومة نكبة حلت بالسكان فضاقت حالتهم الاقتصادية ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً وعم الاحتكار ، وانخفضت قيمة النقد الورقي انخفاضاً مريعاً زاد فيه جشع التجار وألاعيبهم المصرفية ، وقل تداول الذهب بسبب حرص الناس عليه ، فعمت المجاعة وكثرت ضحاياها البشرية ، واضطر الناس الى بيع الغالي والرخيص من مقتنياتهم ، فاثرت على حسابهم طبقة الجشعين من التجار المحتكرين ، وعم الفقر والعوز بقية الطبقات . يضاف الى هذا انتشار الاوبئة التي فتكت بالسكان – بالاضافة الى ضحايا الجوع – ، وظل الامر يتفاقم يوماً بعد يوم حتى بلغ عدد الضحايا البشرية مئات الآف من الانفس العربية ، وكان السخط العام في الأوساط العربية يزداد بازدياد الحالة سوءاً ، فتختمر بنسبة ذلك عوامل الثورة في النفوس يزيدها ضراماً عجرفة الموظفين الاتراك ومساهمتهم مع المحتكرين في اختلاس أموال الشعب وتجويعه للاثراء على حساب شقائه .

لقد أحدث دخول تركيا الحرب حالة جديدة في نفوس الاحرار

---

(١) دستور ، ترتيب ثاني (وثائق تركية) ، مجلد ٩ ، ص ١٦٨ ، مجلد ١٠ ، ص ١٥ ، ٤٤٩ ..

من العرب ، لاسيا وانهم كانوا على يقـين من ضعف دولتهم ، وكان الشك يخامرهم في انتصار حليفتها المانيا على اعدائها ، فأدركوا ان اندحـارها نذير بزوال الامبراطورية العثمانية واقتسام الحلفاء اراضيها ومن ضمنها الأقطار العربية ، وحينئذ تكون النتيجة وخيمة على العرب . لذلك ساءهم جداً مافعله انور وطلعت وغيرهما من رجال تركيا الفتاة الذين زجوا بهم في حرب طاحنة لاناقة لهم فيها ولاجمل ، خلافاً لرأي عقلاء الترك ومعتدليهم وجميع العناصر العثمانية لاسيا العرب ، فاندفعوا الى العمل والنضال مخلصين ، وانحصر نشاطهم في السبيل المؤدية الى تعزيز كيانهم القومي ، سواء لحفظ هذا الكيان من ان تعبث به يد الترك – وقد تسوقهم مقتضيات الحرب الى الفناء وقوداً لها – او لتفادي وقوع بلادهم فريسة للاحتلال الاجنبي مع سعي حثيث للاستقلال .

وهكذا نرى ان كتاب عزيز علي المصري الى اعضاء جمعيته وقرار جمعية « العربية الفتاة » المنوه عنها سابقاً ، وإن لم يدعوا صراحـة الى الانتفاض على الدولة العثمانية ، الا ان ماجاء فيها لايخلو من مغزى النضال . وفضلاً عن ذلك فان ماطلبه عزيز المصري من رفاقه ، وماوضعته « الفتاة » من تحفظ ، لم يكن رفقاً بالدولة العثمانية بمقدار ما كان حرصاً على الولايات العربية من ان تتعرض للغزو الاجنبي ، ومعنى ذلك انه مع الحصول على الضمانات المنوه بها يمكن القيام بالثورة ، وهذا هو الذي حصل فيما بعد . على ان عزيز المصري قد أرسل الى ابن سعود احد اعضاء جمعية العهد ، مندوباً عنها ، يستحثه على عدم التعاون مع الترك ، والعمل في سبيل القضية العربية[1] ، وهذا مايؤيد ميله الى التخلص من الحكم العثماني .

---

(١) الدكتور جلال يحيى : الثورة العربية ، ص ١٤٧ .

واذا كان موقف «العهد» ـ ثاني جمعيتين قادتا النضال العربي في تلك الفترة ـ قد بدا قليل الفعالية من حيث العمل السياسي ، فان نشاط زميلتها الاخرى « العربية الفتاة » في هذا المجال كان اكثر فعالية واكثر شمولا ، انما اكثر تكتماً وحذراً ، وكان يساعدها على ذلك النظام السري الدقيق الذي التزمته ، سواء في تعيين اعضائها او في تنظيم علاقاتهم بعضهم ببعض ، والتكتم الشديد في أمر وجودها . والفرق بين جمعية « الفتاة » وبين « العهد » ان أعضاء الاولى كانوا خليطاً من مدنيين وعسكريين ومن شبان وكهول . اما الثانية فقد كانت مقتصرة على الضباط العسكريين الا افراداً معدودين من المدنيين. انما تتفق الجمعيتان في كونهما تستهدفان مصلحة العرب القومية العامة دون اية نظرة اقليمية ، بل الشعور والعمل في جو أمة واحدة وكيان واحد . وتختلف «العهد» عن الفتاة وتمتاز عنها ببروز معنى التشكيل العسكري في تطور فكرة النضال العربيُ واتجاهه اتجاهاً بعيد المدى شديد الخطورة ، وبروز معنى العزم على الانتفاع من الفرص السانحة والاقدام على خطوات جريئة ، كما برهنت عن ذلك بالتحاق كثير من اعضائها الضباط بالثورة العربية حينما انطلقت من الحجاز في ١٠ حزيران ١٩١٦ .[(١)] واذا استقصينا تطور جمعية « العهد » نشاهد انه شبيه الى حد كبير بتطور « العربية الفتاة » من حيث نشوؤها على فكرة اللامركزية الواسعة والبقاء ضمن الرابطة العثمانية ، ثم تحولها عند نشوب الحرب الى الاستقلال . كما يتجلى التشابه بين الجمعيتين في كون اعضائها مزيجاً من ابناء الولايات العربية دون تفريق بين قطر وآخر ، مع ملاحظة ان اكثرية اعضاء « العربية الفتاة » من السوريين ، وان اكثرية اعضاء « العهد » من العراقيين . فمؤسسو « العهد » هم

---

(١) محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ، ج ١ ، ص ٢٧ — ٢٨

الضباط عزيز علي (مصري) ، سليم الجزائري (شامي) ، نوري السعيد، ياسين الهاشمي ، طه الهاشمي ، جعفر العسكري (عراقيون) .

تأسست جمعية « العهد » في الآستانة في ٢٨-١٠-١٩١٣ ثم لم تلبث أن أقامت لها فروعاً في دمشق وحلب علاوة على فروع العراق . اما الاقطار العربية الاخرى كالحجاز وطرابلس الغرب وفلسطين واليمن ونجد فكان لها فيها مندوبون اوفدوا خصيصاً لبث الدعاية لهـــا حسب برنامج مدروس . وكان اعضاؤها من الجرأة بحيث لايهابون السلطة الحاكمة، اذ كانت مناشيرها تطبع في أشهر المطابع سواء في الآستانة او غيرها من المدن ، وكان الاعضاء في اول قيامها لايستترون في نقلها وتوزيعها – يدفعهم الى ذلك الحماس والجرأة والتضحية – وهذا مادفع السلطات التركية في بادىء الأمر الى ملاحقة مؤسسيها فسجنت وحاكمت عزيز علي وهرب آخرون الى البصرة عند نشوب الحرب والتجؤوا الى زعيمها طالب النقيب الذي كان الاتحاديون يخشون قوته وبأسه

واذا استثنيت جمعية العهد فان « العربية الفتاة » قـــد تميزت بتقدميـــة برامجها بالنسبة للاحزاب والجمعيات العربية الأخرى كالجمعية اللامركزية الادارية والجمعية الاصلاحية في بيروت – تلك التي كانت تسعى للحكم الداخلي الذاتي ضمن الرابطة العثمانية – وان جاء برنامجها (برنامج الفتاة) في أول تشكيلها عام ١٩١١ في باريس متضمناً « عدم الانفصال عن الترك » . ذلك انها قد تخطت هذا الشعار مع الزمن حتى استحال الى شعار استقلالي محض من اوائل سني الحرب العالمية ، كما تخطته زميلتها « العهد » .ولم تكن تقبل في صفوفها – على كثرة طالبي الدخول ممن يظهرون حماساً لأهدافها –

اي عضو الا بعد اختبار طويل وتمحيص دقيق[1] ، وتتشدد في قبول المنتسبين الا من عرف منهم بحسن الخلق والأمانة والكتمان والصلابة بترشيح او بتزكية طالب الدخول ـ او من يرى المسؤولون او بعض الاعضاء أن في دخوله الجمعية فائدة لها ـ من قبل عضو سابق خبير به خبرة تامة . ويجري التحقيق عن احوال العضو المرشح باحالة أمره الى دراسة سرية دقيقة متعددة الجوانب ، شديدة التحفظ ، حتى اذا اسفرت عن نتيجة ايجابية دعي العضو المنتسب إلى اليمين ، اذ يحلف من قبل عضوين آخرين على الاخلاص لمبدأ الجمعية « بذل كل جهد لايصال الأمة العربية الى مصاف الأمم الراقية الحرة والمستقلة الكبرى » ، ثم على التضحية في سبيله بالنفس والمال ، وكتمان اسرار الجمعية والطاعة لأوامر هيئتها المسؤولة . عند هذا الحد لا يكون ما عرفه العضو المنضم سوى اسم الجمعية بالاضافة الى اشخاص قلائل ممن فاتحوه او حلفوه . واذا اريد تكليفه بمهمة او ابلاغه امراً ما ، جرى ذلك بواسطة أحد هؤلاء او بواسطة مأمورية اخرى . وقد يتعدى الامر هذا الحد الى الاستفادة من نشاط العضو وفقاً لمؤهلاته ، والتوسع في اطلاعه على تشكيلات الجمعية ، والى تكليفه بخوض ميادين النضال تحت رايتها ، لكن ذلك يبقى رهناً بما يظهره من اخلاص شديد ونشاط فياض وقوة شخصية ، ومن سعي في سبيل مرامي الجمعية واهدافها[2] .

كما كان للجمعية رموز وشعارات سرية ومطبعة وصندوق مركزي للمال ، وكانت تستعمل للمراسلات والاتصالات كلمات السر التالية : « بزغ فجر

---

(١) تحسين العسكري : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى وعن الثورة العراقية ج ١ ، ص ٨ — ٩

(٢) م.ع. دروزة : نفس المصدر ، ص ٢٨ — ٢٩ .

وطنك ، مت لعضد شخص أخي ثقة ... » وهو شعار يدل على الثقة والاعتزاز القومي والتضحية والتضامن باجلى معانيها . وكانت الجمعية تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة الادارية وقوامها ستة اعضاء ، وهي التي تتولى ادارة شؤون الجمعية ، والهيئة العاملة وهي التي تختار الهيئة الاولى وتتألف من الاعضاء الذين امضوا مدة التجربة وهي ستة اشهر . والهيئة الثالثة وتضم الداخلين حديثاً وهؤلاء لايعرف بعضهم بعضاً [1] .

بفضل هذا الاسلوب الذي سارت عليه الجمعية « العربية الفتاة » بقي امرها مكتوماً الى آخر الحرب بالرغم من تعذيب من القي عليهم القبض واحيلوا الى ديوان حرب (عاليه) من اعضائها دون معرفة بحقيقة امرهم ، وبالرغم من ان نشاطها قد انتقل الى قلب دمشق مركز قيادة الجيش الرابع حيث كانت سيطرة الطاغية أحمد جمال باشا على اشدها . وكانت الجمعية قبل ذلك قد نقلت مركزها من باريس ، حيث تأسست ، الى بيروت عام ١٩١٢ حينما انتهى مؤسسوها (وهم : محمد رستم حيدر ـ البعلبكي ـ ، عوني عبد الهادي ـ النابلسي ـ ، جميل مردم بك ـ الدمشقي ـ ، محمد المحمصاني ـ البيروتي ـ ، عبد الغني العريسي ـ البيروتي ـ ، رفيق التميمي ـ النابلسي ـ ، وتوفيق السويدي ـ العراقي ـ) من دراستهم في فرنسا وعادوا الى وطنهم ، ثم نقلت مركزها الى دمشق ، كما نقلت اليها ، عند مطلع الحرب ، مقر جريدتها « المفيد » التي كان يصدرها عبد الغني العريسي ويشترك في تحريرها محمد المحمصاني وعارف الشهابي . وكان العرب يتحمسون لما تنشره حماساً شديداً ، ويترقبون صدورها بفارغ الصبر ، ويتخاطف قراؤها اعدادها من

---

(١) امين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٩ .

أيدي موزعيها وباعتها [١] . وفي انتقال مركز الجمعية وجريدتها الى دمشق في هذه الفترة الحرجة دليل على جرأة القائمين عليها ورغبتهم في ممارسة النضال على أشده بكل شجاعة واقدام ، كما هو دليل على سرعة البديهة في اقتناص الفرص التي هيأتها دعوة الحكومة للشباب العرب المتعلمين في المدارس العالية الى ماسمي بـ «الخدمة المقصورة» ، اي التعليم الذي يهيئهم ليكونوا ضباطاً من ضباط الاحتياط ، وكان كثيرون منهم مندمجين في الحركة العربية ، وكان اجتماعهم في دمشق ، المركز الذي بدؤوا يتلقون تعليمهم العسكري فيه ، من الفرص التي اتاحت لهم مجال الاتصال والحديث والنشاط والحماس للفكرة القومية واهدافها . كما ان اجتماع عشرات الألوف من جنود العرب المدعوين للخدمة ، وتمركز مئات من ضباطهم في محل واحد نتيجة للتعبئة العامة . كان يبعث في نفوس القوميين العرب آمالاً جساماً في تحقيق امانيهم القومية [٢] .

شرعت الجمعية في العمل ، بعد انتقالها الى دمشق وفور اعلان التعبئة العامة ، فقررت اولاً الاستشارة برأي زعماء الحركة الوطنية من السوريين العرب المقيمين في مصر ، قبل ان تنقطع المواصلات بين القطرين بسبب الحرب ، فأوفدت اليهم العضو الشيخ كامل القصاب للاتصال بهم ، والتفاوض معهم على الخطة الواجب اتباعها في الظروف الطارئة ، فسافر بحراً في تشرين الأول ١٩١٤ ، وبعد ان قام بالمهمة الموكلة اليه عاد بحراً دون ان يستطيع الوصول الى الغاية المرجوة من حيث الاتفاق على الخطة . وقد انزلته الباخرة في مكان ما على شواطىء الاناضول الغربية فجاء براً الى دمشق ، ولكن سرعان

---

(١) فائز الغصين : مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ٦ ؛ محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ص ١٥٤ .

(٢) م . ع دروزة : نفس المصدر ، ص ٤١ – ٤٢ .

ما اتصل خبره بالسلطة العسكرية فجرى اعتقاله حينما بدأ جمال باشا باظهار نواياه السيئة نحو العرب ، الا انه تمكن من الافلات من قبضة الاتحاديين والنجاة بنفسه والالتجاء الى مصر بطريق مكة المكرمة ، لأن جمالاً لم يكن قد اوغل بعد في سياسة الارهاب والبطش والتقتيل .

ثم انطلقت الجمعيـــة في بث افكارها القومية في صفوف ضباط الاحتياط ، فاذكت مشاعرهم الوطنية ، وكثيراً ما كانت تعقد لهم الاجتماعات في دور اعضائها البارزين حيث تنطلق حناجرهم بالاناشيد الوطنية الحماسية متغنين بالامجاد والمفاخر القومية ، وكان من ابرز هؤلاء الضباط جلال البخاري ذو الصوت العذب الرخيم الذي كان يثير الحماس في نفوس المجتمعين . وقد رأت عوناً لها على العمل بتلك الحرية ما آنسته من وجود الفريق زكي باشا الحلبي – وهو عربي – على رأس قيادة الجيش الرابع في دمشق ، قبل قدوم جمال باشا ليحل محله (١) .

لم يقتصر نشاط الجمعية على تقوية أوضاعها الداخلية ، بل امتد نشاطها الى الاتصالات السياسية الهامة بزعماء العرب البارزين . ويظهر ان نشاطها في هذا الميدان كان منسقاً بينها وبين جمعية « العهد » ، فقد بينت آنفاً ان عزيز المصري قد ارسل الى الامير عبد العزيز بن سعود امير نجد مندوباً من قبـــله ، وربما ترسل « العربية الفتاة » وفـــداً الى الأمير المذكور ، كما ذكر الـكاتب الافرنسي « بنوا ميشان » – انما اغفلت المصادر العربية التي بين ايدينا الحديث عن هذه السفارة – قال ميشان : « جاء بعض الثوريين السوريين ، وكانوا من اعضاء جمعية (العربية الفتاة) ، وخاطبوا ابن سعود قائلين : (إننا في

---

(١) مذكرات الدكتور أحمد قدري ، ص ٣٧ – ٣٨

سبيل القيام بثورة واسعة النطاق ضد الترك ، وقـد اتصلنا حتى الآن بالأمير مبارك الصباح امير الكويت ومع الشريف حسين امير مكة فأعطيانا عهـداً بالمساعدة ، فعلام يحجم امير نجد ــ الذي نال من الاعجاب ما لم ينله غيره بفضل مزاياه الحربية ــ عن تزعم هذه الحركة المباركة ؟ أفلا يليق بحفيد سعود الكبير أن يُعقد على جبينه تاج من المجد كهذا التاج)» [1] . ويضيف ميشان الى ذلك قوله بأن الامير عبد العزيز قد انصت اليهم بانتباه تام في حين ذهب تفكيره الى ان افكار مخاطبه تسرح في جو من الخيال ، وانهم ليسوا الا عباقرة في الكلام ، تتراءى لهم رغباتهم و كأنها حقائق ملموسة ، ولم ير بداً من صرفهم برقيق العبارات بعد ان انتهى به التفكير الى تقدير صعوبة تحقيق هذا المشروع بالرغم مما فيه من اغراء . ذلك انه لم يسقط من حسابه احتمال الفشل وتكرر مأساة جديه سعود الكبير وعبد الله بحيث يجر اعداءه الترك الى قلب الجزيرة العربية ، ففضل ان يتوسع في جوار منطقته ، وأن يقوي اركان امارته ، ويرسخ جذورها الداخلية بحيث لا تتجه انظاره الى خارجها الا بعد توطيد قواعدها على اساس صلد متين .

حينئذ اتجهت انظار الجمعية الى الشريف حسين امير مكة فارسلت اليه مندوباً عنها « فوزي البكري » الضابط الشاب المجند حديثاً ، وقـد انضم الى الجمعية من عهد قريب ، واسفرت جهودها وسعيه لدى الحكومة عن تقليده وظيفة شرفية في حرس الشريف عند دعوته الى خدمة العلم . وحينما استلم أمر سفره حملته الجمعية رسالة شفهية الى الشريف حسين ، فحواها ان زعماء العرب في الشام والعراق ، ومن جملتهم كبار الضباط ، قد عقدوا العزم على القيام بثورة للحصول على استقلال بلادهم فهل يقبل الحسين قيادتها ، باعتباره أبا العرب وزعيم المسلمين

---

(١) Benois Méchin , Ibn Séoud . PP . 175 - 179

واميرهم الكبير وشريفهم ، لينقذهم من شرور الاتحاديين وطغيانهم ، وفي حالة الايجاب هل يقبل وفداً يأتيه من دمشق ، او يرسل من قبله مندوبين يثق بهم للتفاوض مع اركان الجمعية في امر التنفيذ ؟[1]

وصل هذا المندوب الى مكة في وقت كان فيه الشريف يمعن التفكير فيما يجب عمله بعد ان أتته الرسل – إثر دخول تركيا الحرب – من مختلف الجهات: من الترك ومن الانكليز ، وها هي تأتي من احرار العرب السوريين ، وكان قد ارسل الى رؤساء العرب في الجزيرة يستطلع رأيهم في الاحوال الحاضرة ، ولم يتلق منهم اي جواب بعد ؛ فلم يشأ ان يقطع برأي . بل ارسل ابنه فيصلاً الى دمشق لاستطلاع الاحوال العامة هناك من جهة ، والذهاب الى الآستانة للاتصال برجالها والمداولة معهم في سلوك نادي الاتحاديين في الحجاز وما يقومُ به من اعمال عدائية ضده بالاتفاق مع والي الحجاز الجديد وهيب بك من جهة اخرى .

فما ان وصل فيصل الى دمشق في اواخر آذار ١٩١٥ حتى التف حوله زعماء الجمعية وادخلوه في عضويتها فأظهر نشاطاً واسعاً في اتصالاته ، كما تبرع لصندوق الجمعية بألف ليرة عثمانية ذهبية ، ثم قدم تقريره الى أبيه عن الحالة في سورية وتابع سفره الى الآستانة وحل مشكلة خلاف أبيه مع وهيب بك بأن استصدر مرسوماً بعزله ، وعاد الى دمشق واستأنف البحث مع اركان الجمعية في الشؤون القومية واستلم منهم مذكرة تبين مطالب أمتهم القومية كشرط من شروط الاتفاق المزمع عقده بين الحسين والانكليز لقاء الشروع بالثورة ضد الحكومة العثمانية ، على ان يعترف الحلفاء للعرب باستقلال ووحدة بلادهم وفق مخطط رسموه وشروط بينوها .

---

(١) Lawrence : Les Sept Piliers de la Sagesse , P. 64

ومع ذلك لم تكن اعمال هذه المنظمات العربية هي التي ساقت احمد جمال باشا ــ بالدرجة الاولى ــ الى اجراءاته الوحشية الارهابية في سورية ، لأنه جاء الى دمشق وهو يحمل فكرة البطش والتصميم عليها ، زوده بها أنور باشا بالذات حينما استدعاه وابلغه مرسوم تعيينه قائداً عاماً للجيش الرابع وحاكماً عاماً على منطقة نفوذه ، فقد جاء في مذكراته[1] : « دعاني انور باشا الى منزله .. قال لي : انني ياجمال اريد الشروع في مهاجمة قناة السويس ... وتدل الأنبـاء الواردة من سورية على وجود هياج في داخلية البلاد ، مضافاً اليه النشاط العظيم الذي يبديه الثوار العرب ، فنظراً لهذه الظروف اعتقد ان وطنيتك العالية تجعلك توافق على قبول قيادة الجيش الرابع ، فان قبلت فعليك بتهيئة وتنفيذ الهجوم على القناة ، على ان لاتغفل عن أمر المحافظة على الأمن والنظام في داخل سورية » . هذا ماجاء في مذكرات جمال باشا نفسه ، وقد اضاف الى ذلك قوله انه قبل المهمة بارتياح ، واشترط في محادثة ثانية ، جرت بينه وبين انور باشا ، حصوله على الحرية التامة التي يخولها القانون لأي قائد في الجيش . فحصل عليها محتفظاً بلقبه « وزيراً للبحرية » ، على ان يتولى تصريف أمور هذه الوزارة انور باشا نيابة عنه .

والذي يلفت النظر في هذا التكليف عبارات « هياج ، وثورة عربية ، ووجوب المحافظة على الأمن » ، بينما لم يرد في المصادر التاريخية اي دليل يثبت وجود الهياج والثورة في ذلك الوقت المبكر ، اذ لم تكن اعمال احرار العرب آنذاك ــ تشرين الثاني ١٩١٤ ولم يكن قد مضى اسبوعان على دخول تركيا الحرب ــ قد وضحت بعد ، بل كانت من السرية بحيث لم يكن باستطاعة اجهزة

---

(١) مذكرات جمال باشا ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٦

مخابرات الترك ان تكشفها ، والمعتقد أن بعض الشبهات قد راودت الاتحاديين عن موقف العرب . وكل مافي الامر ان انور باشا وزعماء جمعية الاتحاد والترقي ارادوا ان يتخذوا من هذا الوهم ومن ظروف الحرب واعلان الحرب واعلان لاحكام العرفية ذريعة للبطش باحرار العرب والانتقام منهم ، لما بلوه من نشاطهم وصلابتهم في الدفاع عن حقوق امتهم في الفترة السابقة ، وناطوا هذا الامر باشرس رجل بينهم ، فضلاً عن كونه اقواهم شخصية واشدهم بأساً وجرأة .

تحدث عزيز بك — رئيس دائرة استخبارات الجيش الرابع ، وكان الساعد الأيمن لأحمد جمال باشا في سورية ، وقد تولى في اواخر عام ١٩١٧ مديرية الأمن العام في السلطنة العثمانية — في مذكراته التي ترجمت الى العربية باسم « سورية ولبنان في الحرب العالمية » عن عزل الفريق زكي باشا الحلبي ، وتعيين أحمد جمال باشا مكانه قال : « والفريق زكي باشا لم يكن من الرجال الحزبيين ، بل كان قائداً عسكرياً شريفاً حيادياً محباً للجامعة العثمانية ، الا أن هذه الصفات ما كانت لتروق لقابضين على زمام الحكم في السلطنة . فهم يريدون ان تكون البلاد التابعة للجيش الرابع مرتبطة مباشرة بهم وأن يكون هناك رجل قوي يعرف كيف ينفذ ارادتهم ويقضي تاماً على الفكرة العربية . فالقائد زكي باشا عندما ذهب الى سورية مثل هناك عظمة القيادة ونزاهة الجندي واخلاصه ، وكان يعامل الجميع على السواء ، كثير التقرب من العرب ، فهذه الصفات الطيبة لم ترق لرجال الحكم فقرروا ان يستبدلوا به جمال باشا يدهم اليمنى .. »[1]

(البحث بقية) ....

---

(١) عزيز بك : سورية ولبنان في الحرب العالمية ، ص ٣٨ (تعريب فؤاد الميداني)

الانسان حيوان ناطق

للدكتور بديع الكسم

الانسان معروف. والحيوان ايضاً معروف. والناطق هو العاقل. والحق أن الانسان معروف لأن كل فرد منا يستطيع أن يعرف نفسه بنفسه دون أن يكون بحاجة اطلاقاً إلى أن يقرأ باليونانية القديمة، العبارة المنقوشة على باب معبد دلفوس. يكفيه أن ينعطف على نفسه انعطافة خاطفة. ويحسن، في بعض الأحيان، ألا يطيل التأمل فيها وألا يغوص في اعماقها، حتى لاتصيبه نرجسية مدمرة أو لاترعبه عقد أخطبوطية.

وكل منـــا يعرف الانسان من غيره ، حتى حين لا يريد أن يعترف به أو يتعرف عليه . فهو قد يعرفه عن طريق سلسلة من الأقيسة المركبة المرصوصة التي تفتت قوقعته وتقذف به خارج ذاته . وقد يعرفه عن طريق الحب والغيرة والحقد والحسد ، لأن العاطفة ايضاً ، كما يقولون ، أداة فهم ومعرفة . بل هو يستطيع أن يعرفه عن طريق الحواس ، منفصلة ومجتمعة ، كالسمع واللمس والشم والبصر . ألا تكفينا النظرة الواحدة لكي نتأكد من أن الذي نراه هو انسان بالفعل ؟ قد يقول السارتريون منا إن النظرة التي نلقيها على فرد من الناس تسلبه مباشرة كل انسانية . فهي تحبسه في اطار وهمي وتعدم فيه حريته وتحيله إلى شيء بين الاشياء . إنها في عبارة موجزة ، أو في عبارة مخيفة ، تنقله من الوجود لذاته إلى الوجود في ذاته . وجوابنا اننا لا ننكر اطلاقاً أن النظرة قد تكون احياناً ساحرة . ولكن سحرها يفعل فعله بخلاف ما يتوهمه سارتر وانصاره . انها تسكب الحياة والشعور وتولد الاحساس بالحرية . ومهما يكن الأمر فالنظرة كاشفة في طبيعتها لأنها تقصد إنسانية الانسان ذاتها ، ولا تقصد كيانه المتحيز في المكان .

الانسان اذن معروف ، والحيوان بدوره معروف لأنه كثيراً ما يعرّف نفسه بنفسه . فنحن نصطدم به احياناً في الأزقة الضيقة ، وخاصة عندما يكون محملاً بما لا يطيق حمله . ونحن نتحسسه احياناً في داخلنا على صورة ثعلب أو على صورة عقرب . صحيح ان الحس قد يخطىء عن غير قصد فلا يميز الحيوان من غيره ، أو لا يميز غير الحيوان من الحيوان . فقد يحسب أحدنا في ظلمة الليل أنه يتناول حبلاً ثم يتنبه الى انه يقبض على أفعى ، ولكن هذه الحالات نادرة على كل حال ، فلا يجوز أن نقيس عليها . وأهم من ذلك كله أن ما قلناه الآن عن الحيوان

لا صلة له بمعنى الحيوان الوارد في تعريف الانسان ، ذلك اننا ذكرنا أمثلة معينة تنتسب إلى انواع معينة من الحيوان ، ومنها الانسان نفسه . وأعني بذلك أن الحيوان هنا لايوجد في الواقع الطبيعي ، ولايمكن بالتالي ان يدرك بالحواس . انه فكرة نتعقلها . وليس صحيحاً ان هذا الفهم لمعنى الحيوان ينطبق على الانسان وحده لأنه حيوان ناطق . فنحن لم نصل بعد الى النطق . انه ينطبق ايضاً على جميع انواع الحيوان . ذلك اني حين اعرف الدب بانه حيوان يتصف بما لا ادري من الصفات والصفات فان لفظة الحيوان هنا تشير ايضاً الى معنى كلي نتعقله ولا نحسه . وهذا يعني ان الانسان حيوان بصرف النظر عن كونه عاقلا او غير عاقل .

فقولنا : الانسان حيوان ، يعني انه كائن حي يتصف بالحس والحركة . لذلك لانقول عن فاقد الاحساس والحركة انه حيوان ولكنا نقول عنه انه صخرة او حائط . فالقول اذن ان الانسان حيوان لايقل صحة عن قولنا : الدائرة شكل هندسي او الذهب معدن . انه جملة تامة كاملة العناصر : قائمة في ذاتها ، صادقة صدقاً مطلقاً ، لاتغمز ولا تلمز ، لأنها من احكام الوجود وليست من احكام القيم . ولكن عيبها الوحيد هو انها ليست تعريفاً كاملاً للانسان . لأن الانسان ليس حيواناً فحسب . ولكن حيوان ناطق . . **والناطق هو العاقل الذي ينطق بالمعقول** . فالحيوان الذي قد يُعترف له بنوع من الذكاء ، كالفرس والكلب والقرد ، ليس عاقلا . وكذلك البغاء فهي ليست عاقلة مهما تثرثر . **أما من كان مقفل الفم دائماً فلا ينطق ابداً فلا شك أنه يجري الحديث بينه وبين نفسه . ذلك أن حوار النفس مع ذاتها كلام داخلي او تفكير . أما إذا وجدنا من لاينطق بلسانه على الاطلاق ، ومن لايحاور نفسه ولاتحاوره نفسه على الاطلاق ، فمؤكد انه ليس إنساناً على الاطلاق .**

الانسان اذن عاقل بالتعريف . والعقل الانساني كما يقول المعلم الثاني في « آراء اهل المدينة الفاضلة » هيئة ما في مادة معـــدة لأن تقبل رسوم المعقولات ، فهي بالقوة عقل ، وسائر الاشياء التي في مادة ، معقولات بالقوة. والفاعل الذي ينقلها من القوة الى الفعل هو ذات ما ، جوهره عقل ما بالفعل ومفارق للمادة . واذا حصل في القوة الناطقة ، عن العقل الفعال ذلك الشيء الذي منزلته منها منزلة الضوء من البصر ، حصلت المحسوسات المحفوظة في القوة المتخيلة معقولات في القوة الناطقة ». ولكن ما معنى ذلك على وجه الدقة؟

معناه اننا بدأنا نتزلق تدريجياً في طريق غير معبدة ، تقودنا الى أن نطرق ابواب الفلاسفة او نقتحم كهوفهم المعتمة السحرية . ولكننا لن ننساق وراء هذا الاغراء لأني آليت على نفسي منذ البدء ألا ازعج الفلاسفة في جـدل ونقاش ، رغم اني اعرف انهم يقتاتون من الجدل والنقاش ، وألا افسح لهم المجال في الوقت نفسه لأن يثقلوا علينا . والواقع اني لو اردت شيئاً من ذلك لما خرجنا اطلاقاً من دائرة الحيوان . ذلك اننا كنا سنضطر الى ان نطرح مشكلة الاتصال والانفصال بين الحياة والمادة ، وأن نسأل : هل الحياة في الحيوان صورة معقدة من صور المادة ، تفسر بالقوى الفيزيائية والكيميائية ، ام هي مبدأ مستقل في ذاته لايرتد الى غيره ؟ اي هل بدن الانسان آلة كسائر الآلات ام هو تنظيم اصيل ذو عبقرية خاصة ؟ واذا استطعنا ان نحسم هذه المشكلة وان نتخلص بسرعة من عالم الحيوان ، فاننا سنصطدم حتماً باشكالات العقل . هل من الضروري أن نقرر وجود العقل لتفسير بعض مظاهر النشاط الانساني ، ام ان العقل مجرد فرض نستطيع أن نستغني عنه حـين نفسر سلوك الانسان كله بالاحساس والغرائز ؟ واذا سلمنا بوجوده فهل نقول مع « كانت » انه قوة مقصورة

على ربط معطيات التجربة ام نقول مع هيجل انه صورة للعقل الكلي وانه يستطيع ان يدرك المطلق ؟ اقول اننا سنصرف اذهاننا عمداً عن هذه الاسئلة وعما تجر إليه من نظريات ومذاهب متصارعة . بل سننسحب الى ما وراء ارض المعركة لنتحرك داخل اسوار اللغة الدارجة ، لغة الحياة. واذا ما صادفنا الفلاسفة عرضاً فاننا لن نستوقفهم طويلاً ، وانما سنكتفي بأن نلقي عليهم تحية مهذبة .

وقد يسأل سائل : هل هو ناطق لأنه عاقل اولاً كما يقول الميتافيزيقيون القدماء ام أنه عاقل لأنه وهب القدرة على الكلام ، كما يقول الانتروبولوجيون او علماء الانسان المحدثون ؟ اي هل العقل فينا علة او معلول ؟ الحق ان السؤال خطير لأنه يلزمنا في نهاية المطاف ان نختار بين تفسير للانسان ينطلق من خصائصه التشريحية والفزيولوجية وبين فهم له ينطلق من خصائصه الروحية . ولكننا لا نريد هنا ان نولد العقل ولا ان نستولده . اما قررنا ان نضع انفسنا خلف الخلافات المذهبية ؟ فلنقل إذن ان التصور الساذج للانسان هو انه ناطق وعاقل معاً ، او لنقل اننا نوحد بين العقل والنطق في هذا التعريف . الانسان حيوان عاقل ، تلك إذن حقيقة قائمة امام الشعور نفهمها في دلالتها المباشرة دون ان نعني بها ان العقل في الانسان قبس من اللوغوس ، او ضيف الهي يحن دائماً الى موطنه الاصلي . انها تعني ببساطة تامة ان الانسان قادر على التفكير بالمعاني العامة وعلى تكوين الاحكام الكلية وعلى الانتقال من حقائق معروفة الى حقائق جديدة . وهي تعني ايضاً في لغة الحياة ، القدرة على تمييز الحق من الخطأ والخير من الشر . فقد ورد في معاجمنا ان « العقل سمي عقلاً لانه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك » اي يحبسه .

والسؤال الآن هو ماذا يمكن ان نفعل بهذا التعريف ؟

و كيف يمكن أن يخطو بنا الى امام خطوة او خطوتين ؟ لقد اردنا ان نتجنب الخوض في الميتافيزيقا والانتولوجيا والانتروبولوجيا . فكان ان تسمرت انظارنا ، كما يلوح ، على عبارة عامة مألوفة تكشف كل ماتخفيه دفعة واحدة . ولكني احب ، قبل ان افصح عن قصدي ، ان اعرض هذه الحركة الجدلية الصغيرة التي أعرف انها متقطعة مهزوزة وانها في حاجة الى تصحيح .

الانسان حيوان عاقل . ولكن الناس ليسوا جميعاً عاقلين . ذلك أن منهم الأحمق والمتهور والأرعن . بل ان الفرد الواحد بعينه ليس عاقلاً في كل وقت . فالتعريف اذن ليس وصفاً لواقع وانما هو تعيين لما يجب أن يكون ولما يمكن ان يكون . انه تعريف حركي لاسكوني ، يحرص عليه الفلاسفة ولا يعترف به العلماء . فالفيلسوف يصر على أن الانسان حيوان عاقل وان كان يعرف ان بعض الناس يسخرون من الفلاسفة ، ويضعونهم وراء القضبان ، ويقتلونهم بالسم أو يحرقونهم بالنار . انه اذن تعريف الانسان لنفسه ، أي تعبير عن صبوته وتطلعاته . فالانسان اذن موجود متناقض لأنه لايتطابق مع ذاته ، ووجود مستقل عن ماهيته أو سابق عليها . فهو ماليس هو كما أنه ليس ابداً ماهو ، كما يقول هيجل وسارتر . انه بالفعل ماليس بالقوة ، أو بالقوة ماليس بالفعل . الانسان اذن موجود يتجاوز نفسه باستمرار ، ليلحق بحقيقته ويبدع حياته . انه نفي للحاضر وتعلق بالمستقبل . وهذا يعني أنه لايرضى عن واقعه . وعدم الرضا دافع الى الرفض والتمرد . فالانسان هو الحيوان الوحيد الذي يستخدم اللغة ليقول بها كلا . والتمرد تعبير عن ارادة التغيير . ولا تغيير بلا عمل . الانسان اذن نزوع الى العمل . انه حيوان صانع ، فهو يستخدم عقله ليطوع المادة وليجعل منها أدوات بين يديه .

والأداة وسيلة لتفجير قوى الطبيعة والسيطرة على قوانينها . وهذا يعني أنه يقف في وجهها وينفصل عن جبريتها . انه حر . ولكن الحرية الحقة لاتكتمل الا اذا مارسها الانسان في حياته مع الآخر . فالآخر عون للفرد على تحقيق ذاته . المجتمع اذن شرط لنماء الانسان . ولكن المجتمع في الوقت ذاته حلبة تنافس وصراع . لابد اذن من تعيين الحقوق والواجبات . عند ذلك تندمج الأنا في النحن عن طريق صراعها مع الهو وعن طريق تعاطفها مع الأنت . وهذا يعني ان الانسان حيوان سياسي . ولكن السياسة وسيلة الطمأنينة وأداة للارتقاء بالحياة ، أما الرقي الحق فترسيخ للقيم الكبرى . والقيم تفقد معناها ان لم تتجاوز الانسان وتشده الى ماهو خالد . ولكن الانسان ليس خالداً ، فكل منا سيموت حتماً . انه وجود لفناء . وهو يعرف ذلك ويحياه . انه احساس بالموت أو وعي للموت . الانسان اذن شقي تعيس . انه شقي مرتين . فهو شقي لأنه لايتطابق مع ذاته ، وهو شقي في سعيه المستمر وراء ذاته لأنه واثق من انه قبل ان يبلغها سوف تزل به قدمه ويهوي في العدم . ولكن العدم نفي للوجود ولا يفهم الا به . الوجود هو الأصل ، وهو الحقيقة . فالانسان حنين الى الوجود . انه حيوان فيلسوف .

اريد ان اقطع هنا هذه الحركة التي بدأت تسرع والتي اخشى ان يرتفع ضجيجها . فكل ماأردته هو أن أعرض مشهداً قصيراً يصور مظاهر الانسان بحيث يمكن ان يتجلى على صورة حيوان متمرد وحيوان صانع وحيوان سياسي وحيوان فيلسوف . ولا شك انه يمكن ان ينجلي ايضاً على صورة الحيوان العالم والعابد والثائر والعاشق والفنان .

نحن اذن بصدد تعريفات مختلفة لحقيقة واحدة . والطريف فيها انها

تعريفات تبدو مترابطة بحيث ينبثق الواحد منها عن الآخر دون تعثر أو افتعال ودون طفرة أو انفصال . فكأنه يكفي ان نركز النظر على التعريف الأول من دون ان نمسه بعصا أو ننفخ فيه ، حتى تنحدر عنه التعاريف ناضجة مكتملة ، كما أرادها وأحبها الفلاسفة خلال العصور . وهذا يعني ان اشكال النشاط الانساني مطوية جميعاً في معنى الانسان ، وأن القوة الجدلية قادرة على كشفها ونشرها . باطن الانسان اذن يشير الى ظاهره وظاهره يرتد الى باطنه . انه عاقل كماهية ولكنه ايضا معقول كوجود .

هنا أصل الى ما اردته من هذا العرض وأحاول ان اكشف عن طرف من خفايا هذه اللعبة الجدلية أو عن سر من اسرار هذه الحيلة الفلسفية . واني اعتذر الى الفلاسفة والى انصارهم ايضاً ان خرجت في محاولتي هذه عن تقاليد الفلسفة وأعرافها . فأنا على كل حال لا أدعي ابداً اني افضح خدعة باطلة تختبىء الفلسفة وراءها . فالفلسفة في اعتقادي لا تخدع ، ولكن الفلاسفة يميلون ميلاً بريئاً الى العبث واللعب احياناً ، كما يميل الى ذلك الأطفال والفنانون .

يقول المناطقة ان تعريف الانسان بأنه حيوان عاقل هو تعريف بالحد يتم بالجنس القريب والفصل النوعي . فالحيوان باطلاق هو الجنس الذي تندرج تحته مباشرة جميع انواع الحيوان . والعقل هو الذي يفصل الانسان عن بقية الانواع . ولكن التعريف يمكن ان يكون ايضاً بالرسم ، ويتم بالجنس القريب والخاصة . والخاصة صفة تخص النوع وحده فلا تشاركه فيها بقية الانواع والا كانت عرضاً لا تصلح ان تدخل في التعريف . فالضحك ، عند الفلاسفة ، خاصة انسانية . . لذلك تستطيع ان تعرف الانسان بأنه حيوان ضاحك ، أي قادر على الضحك . اما الاحساس فهو يختلف عن الضحك ، لأنه عرض تتصف به

جميع انواع الحيوان . ولا يصح القول ان القرد يضحك احياناً . فهو لا يضحك وانما يهتاج . ولو كان يضحك مثلا لوجب ان يكون لضحكه سبب ظاهر . ويبدو ان العلماء لم يكتشفوا حتى الآن سبباً معقولا يدعو القرود للضحك . اما الانسان فهو يضحك دائماً لسبب . واذا كان احياناً يضحك من غير سبب فلأنه لا يضحك حقاً وانما يهتاج ويتشنج . الانسان اذن حيوان ضاحك اوساخر . وهوايضاًحيوان صانع للآلات ، وقابل لتعلم اللغات ، وقادر على بناء المـدن والحضارات وعلى تقويضها ودك معالمها بارادة حرة واعية . وهو وحده الذي يحب فعلا ، وينفعل بالجمال الفني ويبدعه ، وهو وحده الذي ينشد الحقيقة ، ويثور على الشر ،ويتساءل عن سر الموت .

هكذا نجد ان باستطاعتنا ان نملأ الكتب بتعريفات الانسان . وقـد يستطيع بعض الموهوبين ان يخرجوا من ظاهر هذه التعريفات الكثيرة المستقلة، او ان يدخلوا الى باطنها . وعند ذلك يقدمون لنا تحليلا بارعاً او وصفاً ممتعـاً لاوضاع الحياة الانسانية وجوانبها الثرية المثيرة . وهم بما يمتازون به من دقة الملاحظة او خصب الخيال او عبقرية الاداء ، قادرون على ان ينيروا خفايا النفس ويجسموا تطلعاتها ، فيمنحونا القدرة على ان نرى مالم نكن نراه ، وعلى أن نغني حياتنا البسـاطة . وهم في ذلك كله ينشئون علماً او يبدعون ادباً ، ولكنهم لا يتفلسفون . وتبدأ الفلسفة عندمانصب الواقع الانساني في آلات العصر والصهر وآلات التفكيك والتحليل وآلات الشد والربط . واذا قصرنا النظر الآن على مسألة التعريفات الانسانية فان الفلسفة تبدأ خطوتها الاولى برد كل خاصة انسانية الى الفصل النوعي او الى العقل . وهذه بعض الامثلة :

كل ضاحك فهو عاقل بالضرورة . ذلك لأن العقل ادراك العلاقات

والنسب الضرورية . ومبعث الضحك انتفاء النسبة الطبيعية . فنحن نضحك من حركات السكران اذا خرجت عن ان تكون حركات انسانية . ونحن نضحك حين نرى الطفل يقلد القائد . العقل اذن شرط للضحك واذا زال الشرط زال المشروط .

وكل فنـــان فهو عاقل بالضرورة ، ذلك لأن الابداع الفني تجسيد فكرة او معنى . ومحور كل فن هو النسبة التي لايدركها سوى العقل . الانسان وحده اذن هو الذي يستطيع ان يدرك الجمال في الفن وان يصنعه ، وذلك لأنه حيوان عاقل .

وكل انسان اخلاقي او سياسي فهو عاقل بالضرورة لأن الاخلاق والسياسة تقومان على جملة من المعاني العامة كالحرية والحق والخير والواجب والمسؤولية . وهذه المعاني لايدركها ولايكونها سوى العقل . فاذا ذهب العقل ذهبت الاخلاق ، وذهبت السياسة .

وكل مكتسب للعلم فهو عاقل بالضرورة ، ذلك لأن العلم معرفة بالكليات . والكليات معان مجردة . والتجريد عمل عقلي بالتعريف ثم ان القانون العلمي تقرير علاقة بين حدين ، والعلاقة معقولة وليست محسوسة . واذا كانت الصناعة امتداداً للعلم فالانسان لايمكن ان يكون صانعاً الا اذا كان عاقلا .

وماينطبق على هـــذه الخصائص ينطبق على غيرها . فالانسان لايطلب البرهان الا اذا كان عاقلا . وهو لايلجأ الى التجربة ولايتعظ بها الا اذا كان عاقلا . وهو لايفرح ولايشقى الا اذا كان عاقلا ، بل هو لايحب ولايكره ، ولايتمرد ولايثور الا اذا كان عاقلا . قد نتساءل كيف يثور العاقل والعقل يعني

الاعتدال والحذر والتعقل ؟ بل كيف يثور ومن مشتقاته العقال والعقلة والعقيلة والاعتقال ؟ والجواب ان الانسان العاقل هو الذي يستطيع ان يثور . لأنه هو الذي يدرك الفارق بين الحق والباطل ، او بين ماهو واقع وبين مايجب او يمكن ان يكون . **وهل ينفصل معنى الثورة عن معنى الرفض لكل ماهو زائف وعن معنى التقديس للحق الطبيعي للانسان ؟ لاثورة اذن بلا عقل ، بل ليست الثورة سوى تجسيد لمطالب العقل وارتسام له على مستوى الحياة .**

وهكذا نرى ان الفلسفة تستطيع دون عناء كبير ان تفسر خصائص الانسان بالعقل . انها تبين أن العقل شرط ضروري لإمكان العلم والصناعة والاخلاق والسياسة والحب والفن . وقد يبدو أن مثل هذا الربط لايعني شيئاً كثيراً ، لأنه بمثابة ارجاع الشيء الى نفسه . ذلك أن الانسان اذا كان يتميز من الحيوان الأعجم بالعقل فمن الضروري ان تكون خصائصه النوعية أي الصفات التي لايشاركه فيها الحيوان ، متعلقة بهذا العقل . فكأن هذه الخطوة الفلسفية الأولى ليست سوى وسيلة للتحقق فعلاً من ان العقل هو الذي يفصل الانسان عن غيره من انواع الحيوان وان بقية الصفات تشترط العقل بالضرورة . ثم ان هذه الخطوة الأولى تبين ، كما قلنا ، ان العقل شرط ضروري للصناعة والسياسة ، ولكنها لاتبين اطلاقاً انه الشرط الضروري الوحيد . فلو كان الانسان عقلاً محضاً ، اي ملاكاً ، لما انشأ الصناعة ولما احتاج الى السياسة . **فالعقل المحض لاينشىء الحضارات ولايهدمها ، بل هو لايحب ولا يشقى . ونحن نستطيع أن نأخذ تعريف الانسان القائل انه حيوان عاقل وان نستبدل به وفق** قواعد المنطق **التعريف القائل : ان الانسان عاقل حيوان . وعندها نستطيع ان نتبين ايضاً ان جميع الخصائص الانسانية لاتفسر إلا بالحيوانية . فاذا كان**

الانسان صانعاً وسياسياً وفيلسوفاً ، فلأنه حيوان . وهو اذا كان يحب ويقلق من الموت ويشقى فلأنه ايضاً حيوان . فالخطوة الفلسفية التي تبين ان العقل شرط ضروري لإمكان الخصائص الانسانية يجب أن تبين في الوقت ذاته أن الحيوانية شرط ضروري آخر . فالنشاط الانساني لايفسر بالعقل وحده ولا بالحيوانية وحدها ، لأن الانسان ليس بعقل محض ولا بحيوان محض . بل هو ليس هذا وذاك مجتمعين ، بحيث يكون حيواناً في جانب من حياته وعقلاً في جانب آخر . انه حقيقة ثالثة اي تركيب فريد للحيوانية والعقل . وعلامة ذلك ان الانسان يختلف عن انواع الحيوان الاخرى حتى في الصفات العرضية التي لاتخصه وحده . فهو لايأكل مثلها ، ولايمشي مثلها ولايموت .

خلاصة ذلك كله ان الخطوة الفلسفية الاولى التي اشرنا اليها لاتحقق تقدماً مثيراً يستحق العناية . وهي لاتؤلف على كل حال جزءاً من الحيلة الفلسفية التي اردت ان اكشف عن بعض خفاياها . ولكني عرضت لها لأنها تمهيد ضروري لفهم الخطوة الثانية التي تختفي فيها سر اللعبة الجدلية .

بينت الخطوة الاولى ان الحيوانية والعقل يؤلفان معاً **الشرط الضروري لوجود الخصائص الانسانية . وتقوم الخطوة الثانية على القول بأن هذا الشرط الضروري هو ايضاً الشرط الكافي . والحق ان هذه الخطوة الجديدة تمثل قفزة رهيبة يقف لها شعر المناطقة جميعاً من ارسطو الى فتجنشتين .**

وتفصيل ذلك أن الخطوة الفلسفية الاولى قد بينت ان القضية « كل سياسي فهو عاقل بالضرورة » تعني ان العقل شرط ضروري للسياسة . ولكنا بينا ان الحيوانية ايضاً شرط ضروري للسياسة . ويمكن ان نجمل ذلك بقولنا : كل سياسي فهو حيوان عاقل بالضرورة ، اي ان الكائن لكي يكون سياسياً يجب

ان يكون حيواناً عاقلاً ، ولكن الخطوة الثانية التي تجعل هذا الشرط الضروري شرطاً كافياً تقرر ان الكائن لكي يكون سياسياً يكفي ان يكون حيواناً عاقلاً ، اي ان كل حيوان عاقل فهو سياسي بالضرورة . وهنا يكمن الاشكال كله وتكمن الحيلة كلها . ولكي نفهم هذا الانتقـــال يجب ان ننظر بشيء من الامعان الى الفرق بين الشرط الضروري والشرط الكافي .

تعرفون ان التعريف بالحد يعكس عكساً مستوياً بحيث يجوز أن ننتقل من القضية القائلة : الانسان حيوان عاقل الى القضية القائلة : الحيوان العاقل انسان . كما أن التعريف بالرسم يعكس ايضاً عكساً مستوياً مادام تعريفاً . فالقضية : الانسان حيوان سياسي تعكس الى القضية : الحيوان السياسي انسان. ذلك أننا هنا بصدد معادلة بين طرفين ونستطيع ان نستبدل الواحد منهما بالآخر . ولنتبه الى اننا لانتحدث هنا عن الضرورة اطلاقاً ، اي ان احكامنا ليست موجهة ، كما يقول المناطقة . ولكن الحركة الفلسفية الاولى بينت ان **العقـــل شرط ضروري للسياسة** ، وقررت ان كل سياسي فهو عاقل **بالضرورة . وهي بذلك لم تقدم تعريفاً يمكن عكسه . ومع ذلك حاولت الخطوة الفلسفيـــة الثانية أن تعبث بنتيجة الخطوة الاولى . اخذتها على صورة : كل سياسي فهو عاقل بالضرورة** ، فأهملت فيها جانب الضرورة وحولتها الى « كل سياسي عاقل» . ثم عاملت هذا القول معاملة التعريف وعكسته الى « كل عاقل سياسي» . ثم استرجعت الضرورة التي اهملتها وحصلت على « كل عاقل فهو سياسي بالضرورة» . وهكذا اصبح العقل عندها شرطاً كافياً للسياسة بعد ان كان مجرد شرط ضروري .

وما ينطبق على النشاط السياسي ينطبق على سائر انواع النشاط الانساني كالفن والصناعة والفلسفة . لقد وصلنا الآن الى القضية القائلة : كل حيوان ناطق

فهو بالضرورة سياسي وعالم وفنان وثائر . وهذا يعني ان الفلسفة تستخلص هذه الصفات عن طريق الضرورة العقلية . انها تستنبطها بقوة الجدل .

ولكن هل تستنبطها مباشرة بحيث تنتقل من العقل الى الفن ، ومن العقل الى الصناعة ، ومن العقل الى الاخلاق والسياسة ، أم انها تنتقل بالتدريج من خاصة الى اخرى ؟

انها قد تلاحظ ان النشاط السياسي مثلاً يشترط العلم والأخلاق ومحبة الآخرين ، لذلك فهي تستنبطه في خطوة متأخرة . وكذلك الأمر بالنسبة الى اشكال اخرى من النشاط الانساني . **وهنا تتجلى البراعة الجدلية عند بعض الفلاسفة** . ولكنهم لايذهبون الى ان الخصائص الانسانية تتحقق **في الواقع في تسلسل زمني** يتفق مع **الخطة الاستنباطية** . إنهم يعترفون **بأنها توجد دفعة واحدة في الانسان** كامكانيات ذاتية . فكأن الترابط الجدلي **بين الخصائص يتم بصورة قبلية** على صعيد المعاني والماهيات ، بينما ترتسم **هذه الخصائص متداخلة متشابكة على صعيد الوجود** . ويجب ان ننبه الى انه ليس من الضروري ان ينطلق فيلسوف الانسان الجدلي من التعريف الذي بدأنا منه - ان لعبته قد حررته في الواقع من التقيد بنقطة بدء معينة . فهو يستطيع ان يجعل محور الانسان قائماً في وجوده بين الاشياء ، اومع الآخرين اوتجاه الموت . بل هو يستطيع ان يصنع محورين او اكثر . وعندها تتحرك عجلات الآلة الاستنباطية وتخرج لنا الانسان معقولاً مفهوماً في كل امكانياته وابعاده .

قد يقول بعضكم ان هناك اطرافاً اخرى للحيلة لم أشر اليها . فالفيلسوف قد يبدأ برصد الواقع وحفظ تفاصيله في ذاكرته ثم يأتي الينا مغمض العينين ليخرج لنا هذا الواقع من جرابه السحري وينثره امامنا متماسكاً منسقاً كأجمل

مايكون التماسك والاتساق. ولكني اشرت منذ البدء الى اني لا أريد أن اتعرض الا الى طرف واحد من اطراف لعبة فلسفية معينة . اما بقية الاطراف فاني اترك لمن شاء منكم مهمة الكشف عنها .

كل ذلك لا يعني اطلاقاً ان الفلسفة حيل كلها : فهي قبل كل شيء جهد متصل لوعي الوجود في كل حقائقه واسراره ، وهي محاولة جادة تستنفد طاقات الفكر بغية الارتقاء بالانسان . ان الفلسفة قد تعبث احياناً ، وقد تسخر من نفسها احياناً اخرى . ولكنها لا تتخلى ابداً عن تقديس الحيوان الناطق، هذا الحيوان الذي يضم في كيانه عصارة الارض وألق السماء .



مع المؤتمر الثالث للكتاب الافريقيين الآسيويين

الجماهير وأزمة الكاتب العربي

بقلم صدقي اسماعيل

الفكر: اولا

منذ سنوات كتب الشاعر القروي رسالة صغيرة بعنوان « أدب اللامبالاة » أطلق فيها اسم « الحماسيات » على الاشعار التي تدعو الى الوقوف في وجه الاستعمار ، وتنبه الى ضرورة التمرد على النظام الاجتماعي حين يكون هذا النظام اداة الظلم ووسيلة لتبرير الآلام التي تعانيها الجماهير. يقول : « الا ان الشاعر البطيء النبض ، الشاعر الذي لايغضبه الباطل ولا يهيجه الظلم ، ولاينفر ويستنفر لنصرة العدالة والحق ، ليس عندي شاعراً بالمعنى العربي الصحيح الجميل » .

وعلى الرغم من العفوية الساذجة التي تتجلى في مثل هذا الرأي امام الشروط الكثيرة المعقدة التي اصبحت تكتنف الآن قضية الالتزام في الأدب ، فان مقدرة الكاتب على التأثير في الجماهير ، وحفزها على الكفاح ، ماتزال نقطة البداية في كل التزام جدي بالقضايا الانسانية الكبرى . ان الجماهير هي التي تطالب الكاتب بان يبعث الحماسة في النفوس ، ويوقظ الضمائر ، مثلما تطالبه بان يعبر عن آلامها ويخط امامها طريق المستقبل .

وفي هذا الموقف الجماهيري كثير من الاصالة ، ولا سيما في الحياة العربية التي عرفت منذ القديم بالانقياد للبلاغة والتأثر بالكلمات الحارة . **ومع أن هذه الظاهرة قد اقترنت في السنوات الاخيرة بشيء من اللفظية الغوغائية التي تكتفي من الجمهور بالانفعال والهياج ، فانها ماتزال كلمة السر في الدور الذي يمكن ان يلعبه الكاتب في حياة الجماهير (١) .**

فمنذ نهاية القرن الماضي اتيح لرواد الحركات التحررية والنهضة الثقافية في الوطن العربي ان يبقوا على صلة عميقة بالجمهور ، لأنهم كانوا على جانب من الارتباط بالبداية الصحيحة لكل انبعاث قومي : اللغة العربية . **إن جميع الاسماء التي استطاعت أن تفرض نفسها على الجمهور في هذه الحقبة كانت تتذرع بالخطابة في المجال السياسي والاجتماعي ، وتتوسل بمتانة الأسلوب العربي ورشاقته في المجال الثقافي (٢) .**

ومع ان الاجيال التالية خلال الثلث الاول من هذا القرن كانت أشد حرصاً على مضمون المواضيع التي يتناولها الكتاب ، محاولين الاتصال بالواقع ، والتزام المشاكل الاجتماعية ، والقضايا الثقافية (٣) ، فان طابع المعاناة اللغوية — إذا صح هذا التعبير — يتجلى في انتاجهم كله ، سواء منهم من حافظوا على البيان العربي كالشعراء التقليديين ، وأدباء الصياغة ، ومن

---

(١) محمد عزيز الحبابي — المغرب

(٢) زكي نجيب محمود — الجمهورية العربية المتحدة

(٣) وثيف خوري — لبنان

عمدوا إلى التبسيط في نقد الأفكار الحديثة ، ومن لجأوا إلى التجديد في فنون الكتابة : القصة والرواية والمسرح ، ومحاولات متعددة الاتجاهات لترويض العبارة العربية على استيعاب التجارب المعاصرة .

تلك هي اولى مسؤوليات الكاتب العربي في قضية التحرر القومي في ميادينه الثلاثة : السياسي والاجتماعي والثقافي . ان مثل هذه المسؤولية تحمل الآن كثيراً من الجوانب المعقدة في اقطار آسيا وأفريقيا على نحو عام .

ففي بلاد المشرق العربي تتعثر الاجيال الجديدة من الكتاب بأزمة الأداء السليم ، فلم يعد هناك الا القلة ممن تعتصم بالصياغة العربية الصحيحة ، سواء في التأليف او الترجمة . واذا تركنا جانباً استخدام اللغة العامية فاننا نقف امام هذا التناقض الغريب : ان يكون الكاتب على جانب من الموهبة تتيح له الانفتاح على التجارب الانسانية العميقة في حياته وحياة شعبه ، ولكنه في الوقت نفسه لا يجيد الكتابة .

ومهما تكن هناك من مبررات لهذه الظاهرة التي تزداد خطورة يوماً بعد يوم ، فانها تعتبر أزمة حقيقية في علاقة الكاتب العربي المعاصر بالجماهير .

وتأخذ هذه الأزمة صورتها المحزنة في افريقيا على نحو خاص ، حيث يعيش الكتاب في عزلة عن شعوبهم [1] ، لأنهم يكتبون بلغة اجنبية . وعلى الرغم من ان كثيراً من الآثار الادبية الجيدة قد كتبت بالفرنسية في اقطار المغرب العربي مثلاً ، فان التاريخ المعاصر للحركة الثقافية في هذه الاقطار يبدأ بالالتفات الى الماضي [2] . ففي اقسى سنوات الاحتلال الاجنبي ، كانت الجماهير تستعيد القصص الشعبية القديمة ، ومعظمها يدور حول التاريخ العربي ، وكانت الجماعات القبلية المبعثرة في البوادي والارياف تتناقل القصائد العربية والنصوص الدينية في كثير من الاهتمام والتأثر . وكان الشعراء الشعبيون يعبرون عن مشاعر الآخرين بلهجات محلية وتعابير رديئة ، ولكنها تحمل طابع الأداء التقليدي ، وتشير في مضمونها الى القيم التي كان ينطوي عليها التراث القديم . حتى الادب الشعبي البربري يحمل هذه الروح لارتباطه بالثقافة الاسلامية . (٣)

---

(١) من كلمة وفد داهومي

(٢) كلمة وفد الجزائر

(٣) كلمة وفد المغرب

على هذا النحو تبرز قضية أساسية في علاقة الجماهير بالثقافة ، ان معظم الجماهير في افريقيا وآسيا تعاني الأمية والجهل ، غير إنها ذات ثقافات متميزة (١) ، كان لها الدور الأول في الصمود أمام الاستعمار الاجنبي . فحين كانت القراءة والكتابة من الوسائل الحاسمة التي استخدمها الاستعمار او الحكام المحليون لدعم الاوضاع الفاسدة ، كانت الحياة الثقافية تعلن عن نفسها في مظاهر متعددة تحمل جميعاً روح المقاومة الصامتة . ولا تقتصر هذه المظاهر على الفولكلور والنقل الشفهي للتراث القومي ، بل كانت تبدو ايضاً في القيم الجديدة التي فرضتها هذه الشعوب على الانسان المعاصر . وفي طليعتهـا جدارة الانسان مها تكن اوضاعه وشروط حياته ...

لقد استطاع الافريقيون مثلاً — رغم جميع القيود التي كبلوا بها — ان يبرزوا هذه القيمة في كفاح ضار ضد الهوان والاضطهاد . كان المستعمرون يعتبرون افريقيا قارة صماء ، وقد بلغ الأمر بجول رومان ان يزعم ان جمود الافريقيين يرجع الى عطب فيزيولوجي . يقول : « ان هؤلاء الناس الذين لاصوت لهم ، هم ايضاً اناس من دون روح . ان تكوينهم العضوي يجعلهم عاجزين عن انتاج أي أثر مبدع ...»

ولكن ضمائر الافريقيين كانت تتفتح يوماً بعد يوم عن رؤية جديدة للحياة الانسانية [٢] ، ان كل شعب قادر على اغناء التراث الحضاري للبشر ، اذا اتيح له الخروج من ظلام الهوان ، فاكتشاف الفن البدائي لدى الزنوج أحدث تحولاً عميقاً في تاريخ الفن المعاصر [٣] . واذا كانت الحضارة الحديثة قد اقتحمت عوالم القارتين في موجة صافية من الابداع والانتصار ، فان ثقافات الشعوب الافريقية — الآسيوية ، كانت تتسرب الى صميم التجارب الفكرية والفنية التي انشأت الحضارة (٤) ... ذلك هو الجانب الذي اسقطته الروح الاستعمارية في تاريخ هذه الشعوب .

---

(١) محمد عزيز الحبابي — المغرب
(٢) مولود معمري — الجزائر
(٣) كلمة وفد الكامرون
(٤) كلمة وفد ايران

انها نتيجة طبيعية لاسلوب العنف الذي نقله الاستعمار الغربي الى آسيا وافريقيا ، في صورة غير انسانيـــة ، لاتقتصر على استعباد الشعوب ، واستغلال ثرواتها ، بل تحاول ان تزيف الحقيقة ايضاً . فما زال هناك من يقولون مثلاً إن الاستعمار – بشكل او بآخر – هو الشرط الاساسي لنشر الحضارة والقضاء على التخلف ... على هذا النحو المشوه يكتب التاريخ المعاصر ولا بد من تصحيحه [١].

لقد ارغمت شعوب آسيا وافريقيا على ان تبعث اسلوب العنف من جديد ، ولكنها أضفت عليه طابعه الانساني العريق . ان مقاومة الظلم والعبودية والتضليل ، ينبغي ان تتذرع باشد صور العنف ضراوة . انها تنطوي على نوع من الثأر للكرامة الانسانية ، وهي نقطة البداية في كل ثورة تحررية .

« ان جميع الايديولوجيات الشمالية هي الآن في حالة مراجعة لمسلماتها من قبـــل المفكرين الجديين على ضوء الحقائق الجديدة التي تتكشف عنها تجارب الحرية في العالم الثالث .. » (٢)

التحرر والالتزام

ثمة وجه آخر للطابع الانساني الذي ابرزته تجارب الجماهير العفوية في القارتين ، هو دور الثقافة في الحركات التحررية . (ان على المثقف ان يكون قدوة للذين يؤثرون المستقبل على الماضي ، ويختارون الآفاق العلمية التحررية بدلاً من الديماغوجية واللفظية الانتهازية ... ان كثيراً من الأدباء والمثقفين الطلائعيين يشعرون بأزمة حيز عندما يبحثون لأنفسهم عن سويعات قليلة لصياغة تجاربهم المعاشة ، شعراً أو قصة أو مسرحية ، لانهم يحسون بثقل الواقع وكثافته ويدركون ان للسياسة الأسبقية على الأدب ولأن الأمر أولاً وأخيراً تعلق بتغيير الهياكل العتيقة وتحرير الجماهير من البؤس والجهل والاستغلال ..) (٣) .

أمام هذا الموقف يبدو الاتهام الذي يوجه الى الكتاب العرب على جانب كبير من الخطورة والتعقيد . فهو من ناحية يشير الى تحول خطير في الحياة العربية . فخلال

---

(١) كلمة وفد السنغال

(٢) حسن صعب – لبنان

(٣) كلمة وفد المغرب

عصور الانحطاط كان الأدب على هامش[1] الحياة، لايعترف به إلا بمقدار ما يبعث من التسلية أو يدعم السلطة ، وذلك هو شأن الفن أيضاً ؛ وليس ببعيد ذلك العهد الذي كان فيه الشعراء والمغنون يرتزقون بارضاء الآخرين . ولا مبرر لذلك الا انهم كانوا عاجزين عن التأثير في المجتمع ؛ أما الآن فان مطالبة الكاتب أو الفنان، بالتزام القضايا الكبرى ، والنضال من أجلها ، انما تعني انه اصبح قادراً على الانعتاق من العزلة التي فرضت عليه ، والمشاركة في تبديل الواقع ؛ بل إن هذه المطالبة تتجاوز حدود المشاركة الى اعتبار الكاتب ممثلاً لطليعة الحياة الجديدة . وتلك هي صورة جديدة لأزمة الكاتب العربي المعاصر . ان مفهوم الطليعة يحمل التجديد والثورة والتفوق في آن واحد . فلا يكفي ان يكون الكاتب مثقفاً قادراً على الانتاج ؛ بل يجب ان يبدع ، وان يكون نموذجاً . ولكن كثيراً من الشروط الاجتماعية والنفسية تحول بينه وبين هذه المهمة . في حين تلاحقه الطفرات السريعة التي تدخلها الحضارة الحديثة في حياة الجماهير ، مما يجعله أقل حرصاً على انضاج العمل الفني وأكثر انقياداً لمغريات الشهرة أو الارتزاق ، والقيام بدور طليعي كاذب ؛ وهي كلها من مظاهر التبعية في حياة الكاتب ، سواء فيها أن يستخدم موهبته في استرضاء الجمهور ، أو الدولة أو النظام . وليس من السهل ان يتحرر من هذه التبعية الا اذا تذرع بموقف الجنود المغمورين الذين يحققون الانتصار في المعركة لكي يوضع الوسام على صدر القائد . كتب المازني في مقدمة كتابه « حصاد الهشيم » :

« قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل ابناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق لمن يأتون بعدهم ، ومن الذي يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ، من الذي يعنى بالبحث عن اسماء هؤلاء المجاهدين الذين أدموا ايديهم في هذه الجلاميد؟! وبعد ان تمهد الارض وينتظم الطريق يأتي نفر بعدنا ويسيرون فيه الى آخره ، ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة .. ويذكرون بقصورهم وننسى نحن الذين أتاحوا لهم ان يرفعوها شاهقة رائعة ، والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد . فلندع الخلود اذن ولنسأل كم شبراً مهدنا من الطريق ... »

---

(١) رئيف خوري – لبنان

ان مرحلة التمهيد تقتضي المزيد من الأجيال المتعاقبة التي تؤمن بان الالتزام الحقيقي لاينفصل في قضية التحرر ، بين الجهد الصامت الذي يعد للمستقبل أعمالا فنية جديدة ، وبين الاندماج في كفاح الجماهير . ان معركة الفن الخلاق ، والنضال الايديولوجي هما كل مصير الكاتب (١) » .

الحقيقة والثورة

ان الحقيقة التي تقال دون خوف ، وتقبل في نزاهة ، تزيل سوء التفاهم وتقرب بين البشر .. انها مهمة الكاتب الحق (٢) ، بل كل ما له من جدارة . فالى أي حد يباح للكاتب في افريقيا وآسيا أن يقول الحقيقة ؟

لقــد انهار الكثير من السدود التي كان يضعها الاستعمار القديم ، أمام الكتاب والمثقفين في معظم الأقطار، ووقف هؤلاء وجهاً لوجه امام الواقع الجماهيري ، وهم يرون انفسهم ملزمين بالتعبير الصادق ،ولكنهم وجدوا ميراث التخلف اثقل مما كانوا يتصورون. فاذا تجاوزنا المسؤوليات الفنية المحضة التي تفرضها على الكاتب مرحلة التحديد في أشكال الاداء ، وما تقتضيه من اصالة التجربة ، وعمق الثقافة ، نقف أمــام مهمة أكثر مشقة واشد خطراً هي الثورة الفكرية ، التحرر من الالتباس والغموض ، والتصدي للجوانب التي غلفتها روح التكتم والرياء في حياة الشعب ـ واعتبرتها الرقابة الاجتماعية من المحرمات التي تنتهي عندها حدود الفكر والقلم ـ والمحاذاة التي تعترض الكتاب والمثقفين ، أمام حوار « الايديولوجيات » المعاصرة ، دون ان تكون لهم « ايديولوجيا » واضحة ، كل ذلك يضع الكاتب في أزمة عنيفة ، فإما أن يفرض عليه العزلة وبذلك يتخلى عن اغنى ينابيع الكتابة والعمل الفني : تجربة الجماهير ، وإما ان يلتزم . والالتزام في مثل هــذه الشروط يعني الموقف الثوري . **ان البرتغاليـــين يعتبرون وصف الاكواخ في موزامبيك وانغولا والرأس الأخضر ، عملاً ثورياً (٣) ، مثلما يبدو الحديث عن مأساة فلسطين للاستعمار الغربي (٤) .**

---

(١) ناكوشي ـ اليابان

(٢) كلمة وفد قبرص

(٣) كلمة وفد موزامبيك

(٤) كلوفيس مقصود ـ الجامعة العربية

غير ان شعار الثورة لايقتصر بالنسبة للكاتب على التزام النضال التحرري في أشكاله المختلفة ، بل انه يمتد الى ميدان اكثر خطورة يتعلق بالمستقبل ، ويتمثل في مشكلة التغلغل الثقافي الذي يرفد الاستعمار الجديد . **إن دور النشر الغربية تعنى على نحو خاص ، بتكوين عقول جديدة في آسيا وافريقيا ، تلائم الايديولوجيات التي يمكن ان تستخدم لدعم المنطق الاستعماري والحيلولة دون تفتح الشخصية القومية لشعوب القارتين .**(١)

وعلى هذا النحو تبرز ايضاً ازمة الكاتب العربي المعاصر . ان دوره التحرري في حياة الجماهير يتم عليه المنطق الثوري ، ومثل هذا المنطق يلزمه بأن يتمثل الحقيقة القومية في شعبه . ولاسبيل الى ذلك إلا بواعي التراث القديم ، واكتشاف المعاني الانسانية فيه . ان الوعي الثوري في مثل هذه المرحلة من حياة الامة العربية ، هو استمرار لجميع التجارب الثقافية الماضية التي قدر لها ان تفتح امام الجماهير آفاق حياة جديدة . **وان وحدة التراث العربي ، لما يجعل مسؤولية الكاتب في هذا المجال ، اكثر صعوبة ...**(٢)

وتقترن هذه المسؤولية بشكل آخر للالتزام ، تمليه ثمرة الانفتاح على التراث الانساني : الى أي حد يقدر الكاتب العربي المعاصر ان يقوم بعملية الاصطفاء في نقل هذا التراث الفني ، وكيف يستطيع ان يجعل الجماهير قادرة على استيعابه وتمثله ، على النحو الذي يحفظ لها النمو الطبيعي في تكوين شخصيتها الثقافية ، ويحفز تطلعاتها الى المشاركة في صنع المصير الانساني .

---

(١) كلمة وفد ايران

(٢) كلمة وفد العراق

النوم

بقلم ندرة اليازجي

قبل ان نتحدث عن التجارب الحديثة التي أجريت في حقل النوم ، يجدر بنا أن نقول كلمة في النوم ذاته كعملية ضرورية للكائن الحي . ولما كان النوم ضرورياً للانسان فان دراسته تستلزم جهداً كبيراً وتجارب عديدة . ولما كانت تجاربنا أو معرفتنا ضئيلة جداً فان مقدمة كهذه تساعدنا على ادراك وجهات النظر المختلفة . وهكذا تنقسم دراستنا الى فروع ثلاثة :

١ – النوم وكيف ننام .
٢ – الفرق بين الحلم واليقظة والنوم بدون حلم .
٣ – التجارب العلمية الحديثة .

ولانستطيع أن ندخل في صلب الموضوع ، بفروعه الثلاثة ، قبل أن نؤكد على اهمية النوم وضرورته ، فمن جهة تقوم هذه الأهمية على الضرورة ، إذ لايستطيع الانسان أن يستمر في حياته بدون نوم(١). من جهة ثانية يعتبر النوم معادلاً لليقظة ومماثلا لها . ونحن ، وان كنا نجهل الكثير عن اليقظة والنوم ، نؤكد ان النوم عملية فيزيولوجيــة ونفسية تشبه اليقظة تماماً . ولما كان الجسد الانساني هو ذاته في حالتي اليقظة والنوم ، فان ضرورة النوم وأهميته تعادلان ضرورة اليقظة وأهميتها .

ماهو النوم وكيف ننام

النوم عملية استغراق داخلي وغيبوبة تعمل فيها النفس اكثر من العقل . وفي تعريفنا هذا إشارة الى امور ثلاثة : ١ – عملية الاستغراق او الغيبوبة ٢ – عمل النفس ٣ – عمل العقل .

فكيف يكون النوم استغراقاً او غيبوبة ؟

في اجابتنا على سؤال كهذا نحاول أن نقارن بين عمليتي اليقظة والنوم. فاليقظة عملية تفكيروشعور فيحضور الموضوعات الملموسة أو المحسوسة . ونحن لاننام إلا عندما يبطل تفكيرنا في هذه الموضوعات أو ينصرف عنها . لذلك يصعب على أي انسان ان يستسلم للنوم وهو يفكر في امور خاصة او معينة . وعلى هذا الاساس ، نسمي النوم استغراقاً أو غيبوبة . ولكي نتفهم عملية الاستغراق وندركها يتوجب علينا ان نعطي مثالاً لحالة التفكير .

في هذه الحالة نفهم ان الفكر يعمل في الموضوعات المحسوسة او الملموسة . ويظل الفكر يقظاً طالما انه يدرس موضوعاته ويتدرج في فهمها من أدنى مستوياتها الى اعلاها ، ويصنفها ويعبر عنها حسب أشكالها ويحاول ان يدرك تعقيداتها . وتكون الحواس الخمس الوسائل الاولى والمباشرة لتفكير الانسان في حالة اليقظة . وعلى هــذا الاساس لايتسنى للانسان ان ينام وهو في حالة تفكير اذ يظل العقل مشغولا بحضور موضوعاته .

---

(١) هناك حالات نادرة ، قيل ان افراداً عاشوا حياتهم بدون نوم .

لنتصور الآن انساناً جالساً في مكان هادىء جداً يتأمل ويفكر او يتعمق في تفكيره. انه بعيد عن الضجة ولايعكر صفو ذهوله او شعوره او تعمقه موضوع خارجي ، وهو مسترسل في عالم عميق من الفكر . ان تفكيره ينساب ولاينقطع اذ لا توجد ضجة او صوت او اية عرقلة تقف دون انقطاع سيلان فكره او امتداده . انهذا الانسان يتأمل. ولكن فجأة تأتي المشكلة اذ يتدخل عامل من عوامل الانقطاع . فإما ضجة او حديث انسان آخر ، أوموضوع خارجي معين . وفجأة يستيقظ المتأمل ويهلع ويجفل.. كأنه كان في غفلة .. كأنه كان في عالم اكثر رقة من العـــالم العقلي .. وكاد ان يصل الى الغيبوبة او النوم .. كانت افكاره مسترسلة في عالم من الصور والتذهن والشعور ، وفجأة اعترضتها صعوبة فقطعتها . لقد عاد هذا الانسان الى عالم الدماغ ، الى عالم الحس المباشر ، الى يقظته واندماجه في الاحاسيس المادية المباشرة . ولو ان هذا الشخص استرسل اكثر فأكثر لكانت يقظته اصعب او عودته الى الانتباه المباشر اكثر مشقة وذلك لأن استرساله في الفكر اي امتداده كان قد وصل الى درجة أعمق من الدرجة التي يمكن ان يصل اليها العقل في حالة سكونه .

فما هو هذا العالم الأرق من العالم الحقيقي ؟ وما هي تلك النشوة العقلية او الغفلة ؟ وماهو هذا الاسترسال الفكري ؟

عندمانريد ان نفهم هذه المسألة نقول : كان هذا الشخص شارداً أولم يتدخل موضوع خارجي . وهذا يعني انه كان مستغرقاً في ذاته او في تفكـــيره دون حضور موضوع . ويعني ايضاً انه كان في حالة فكرية « اكثر رقة » من الحالة الفكرية العادية أو الموضوعية التي تنتج عن حضور الموضوع . ففي هذه الحالة « الرقيقة » أو « الاكثر رقة » من الحالة الفكرية العادية كان الفكر مستغرقاً في نشوة او في ذهول اي انه كان منصرفاً عن موضوعاته او غائباً عنها . ولما تدخل موضوع خارجي ، كضجة مثلا ، عاد تفكير الانسان الى حالتـه العادية . وفي عودته هذه حدث شيء هام هو : الفرق بين حالتي الذهول الرقيق والتفكير العادي ، او العودة من الحالة الاولى الى الحالة الثانية . ويدل هلع الانسان على انه كان في حالة اكثر رقة من الحالة العقلية . وعلى هذا الاساس ، نستطيع ان نقول ان ذهولا كهذا أو شروداً أو نشوة او تعمقاً في الموضوع هو غيبوبة لم تكتمل واستغراق لم يتم .

ولاشك ان الانسان سيصل الى حالة النوم في حالة استمرار غيبوبته هذه وتكون هذه الغيبوبة شبيهة بالنوم لأنها تقدم صوراً للعقل وموضوعات ومشاعر وافكاراً على الرغم من أن الموضوعات ذاتها غير حاضرة ، بل هي غائبة جزئياً او كلياً .

وهناك حالات أخرى تطرأ على الانسان كالغيبوبة في معناها الحقيقي . وتعتبر

هذه الحالة اكثر علاقة بالنفس لانها امتداد اكثر واتصال بعالم الروح. واذا استمر الانسان في التأمل ، في حالة تنعدم فيها العراقيل الخارجية او تقل ، فانه يصل الى حالة نفسية يكاد ان ينقطع بها عن الاحساس بوجوده الخارجي . وتكون الغيبوبة على درجات ، وتتناسب مع حالة الاستمرار في التأمل ، حتى انها تصل الى الاندماج في عالم الروح ،اي في لاعدودية الزمن اي المطلق . ويتعرض المتأمل وهو في هذه الحالة الى هزة نفسية عنيفة اذا مافوجىء بصراخ عال او عائق خارجي مقلق ومشوش .

تعتبر هذه الحالة او الدرجة من التفكير حالة نفسية أعمق بكثير من التفكير العادي الذي يتم بواسطة الدماغ مباشرة . ومع ذلك لاينفصل الدماغ في الغيبوبة عن العملية النفسية لانه يظل مسجلا ومستودعاً ومنظما . وهكذا يسمو العقل بسمو النفس. ولاشك ان من يصل الى درجة كهذه يكون عظيماً بعقله .

اما الإغماء ، وهو المثال الثالث ، فانه حالة جسدية اكثر منها نفسية ، لكن النفس تظهر فيه بوضوح . فلو وخزنا شخصاً تعرض للاغماء لأحس بالوخزة ولانتفض . فهو لايعي دماغياً ، اي عقلياً ، مؤثرات الوخزة بل يتأثر نفسياً . وهنا تبدو الاعصاب المؤثر الذي يتأثر بهذه العملية . فالنفس تبقى مستيقظة بينا يغفل العقل عن واقعه وعن جسديته . وتعمل النفس كقاعدة للجسد في هذا المضمار . ولذلك تنعكس ردود الفعل، وذلك لأن العقل غافل عن عمله . اما عندما تشترك النفس مع الدماغ فلا ردود هناك بل ادراك وتذهن . وفي حالة الاغماء تبطل عملية العقل وتعمل النفس عوضاً عنه ، لكن الأقسام السفلى في الدماغ تظل متصلة بالواقع الجسدي . ولا تعمل النفس بكل قدرتها وامكاناتها وذلك لأن الجسد لايقوم بآليته التامة اي بحركته التامة . وهكذا تبقى النفس قائمة حتى ولو انعدم اتصالها مع الدماغ .

تعتبر هذه الامثلة الثلاثة اوصافاً لأهمية النفس(١) في وجود الانسان . ففي المثال الأول، وهو حالة الذهول الرقيقة ، الحالة الاكثر سموا من الحالة الدماغية البحتة ،يشترك الدماغ مع النفس، فيصلان الى حالة تصور عظيمة . وفي المثال الثاني ، وهو حالةالغيبوبة او حالة الاسترسال في عالم لاعدود ، ينعدم فيها الزمن وينطلق الانسان من الحدود مع بقائه فيه ، تقوم النفس بعملها اكثر من العقل . واما العقل فانه يسجل ويراقب لأنه يأخذ المعرفة من مصدر اكثر عمقاً ، مصدر غير مباشر . وهذه الحالة هي الإشراق . وفي المثال

---

(١) تتركز النفس في مراكز الاعصاب وفي الاعصاب ذاتها . راجع كتابنا «مقالة في العقل والنفس والروح » .

الثالث ، وهو حالة الاغماء ، حالة انعـــدام التفكير الدماغي وتوقف الاحساس المباشر بالوجود الخارجي وفقدان الدماغ لملكاته وقدراته ، تقوم النفس بعملها فقط دونمشاركة الأقسام العليا من الدماغ ، وذلك لأنه يكون في حالة ركود واستقرار ، اي انه يكون في حالته المادية الساكنة التي تنعدم فيها الحركة . ولكن يجب أن يبقى الجسد ، على عكس الدماغ ، في حالة حركة وإلا فان الحياة تنعـــدم . وهكذا تبقى النفس مستيقظة وتقوم بدور الوسيط . ولما كان الدماغ عاجزاً عن التسمية أو القيام بعمله كمنظم ، فان ردود الفعل الجسدية تعتبر انعكاسات . فالانعكاس وردود الفعل تنتج عن عدم مشاركة الدماغ ، اذن هي غير واعية .

كيف نستطيع ان نصنف هذه الحالات الثلاث ؟ وهل نستطيع ان نميز فيها بين فعالية اليقظةوفعالية النومالتي يبدو باشكاله كالاسترسال والغيبوبة والاغماء ؟ وماذا نسمي هذه الحالة التي لاتعتبر يقظة او نوماً بالمعنى الحقيقي ؟

في حالة النوم ، عندما يستسلم الانسان للنعاس ، نلاحظ أربعة امور :

١ — ان النوم استسلام لعالم فكري جديد نوعاً ما .

٢ — ان النوم انقطاع عن عالم فكري ماض نوعاً ما .

٣ — ان النوم صلة بين العالمين المذكورين .

٤ — ان النوم استغراق في عالم جديد .

ولا تتحقق هذه الحالات الاربع الا كما يلي :

١ — لايتم النوم الا بعد انقطاع عن عالم الموضوعات الخارجية . فالانسان لاينام طالما انه يفكر في موضوع (١) .

٢ —لايتم النوم إلا بعد استسلام لموضوع داخلي او باطني . فالانسان لاينامإلا بعد ان يسهو عن عالمه الخارجي أو ينصرف عنه .

٣ — لايتم النوم إلا بعد استغراق في العالم الجديد ، ونعني ، بعد الانقطاع التامعن عالم الموضوع وحضور الاشياء ، والغيبوبة في عالم الداخل .

فالنوم عملية فوق — عقلية . ويستحيل ان تتم هذه العملية مالم ينصرف العقل عن موضوعاته الخارجية وذلك لكي يغوص في موضوعاته الداخلية عن طريق الاستغراق او الاستسلام ، وعلى هذا الاساس ، نقول ان النوم عملية نفسية أكثر مما هو عمليةعقلية،

---

(١) على الرغم من اعتبارنا لهذه الحالة ، لكننا رأينا ان الانسان يمر في أطوار النوم وذلك في الأمثلة التي ذكرناها .

وذلك لأن انصراف الذهن عن موضوعه يسهل عليه النوم . وكل تعلق بالموضوع الخارجي يؤدي الى الأرق أي انعدام النوم او صعوبته . فالنوم اذن حالة نفسية وعملية داخلية وباطنية ، يغوص الانسان في عالم باطنه . ولايعمل العقل في عملية النوم هذه بل يتحول الى عملية تفكير جديدة لكن بدون حضور الموضوعات ، ويتخلص من ثنائية التفكير اثناء اليقظة .

الفرق بين الحلم واليقظة والنوم بلا حلم

ننتقل الآن الى دراسة الفرق بين اليقظة والحلم والنوم بلاحلم . ونحن ككائنات حية انسانية نختبر هذه الحالات الثلاث التي تقوم عليها تجربتنا . ولكي ندرك عناصر الموضوع فاننا نعمل على تعريف كل من هذه الحالات ، ونقارن بينهامن جهة ، وبينها وبين التجربة الموضوعية من جهة اخرى .

١ ـ **حالة اليقظة** : تعرف حالة اليقظة بأنها تشمل التفكير والشعور في حضور الموضوعات الملموسة أو المحسوسة . وندرك الموضوعات هذه من خلال الاعضاء الخمسة للادراك الحسي .

٢ ـ **حالة الحلم** : وتشمل ، من وجهة نظر اليقظة ، حالة التفكير والشعور فقط . لكن الحالم لايفكر انه يحلم لأنه ، حسب تجربته ، يُدرك الموضوعات الملموسة أيضاً . وهكذا ينطبق تعريف حالة اليقظة على حالة الحلم .

٣ ـ **مقارنة اولى بين حالتي اليقظة والحلم** : عندما نقارن بين الحالتين لانجد فرقاً بينها . ويمكن ان يظهر فرق عندما نعتبر الاحلام من وجهة نظر اليقظة . وعلى اساس هذه النظرة تكون اليقظة وحدها تجربة حقيقية . ولدى الاستيقاظ نعلم ان عالم ـ الحلم ، بالاضافة الى الجسد الحالم الذي ادرك عالم ـ الحلم بحواسه ، كان نتاجاً عقلياً . ونتساءل عندئذ اذا لم تكن افكار الانسان المستيقظ وتجربة الحلم متساوية أومتماثلة .

٤ ـ **مقارنة بين التفكير وحالة النوم** : يعتبر التفكير مختلفاً عن

حالة الحلم من نواح عديدة ، على الرغم من معرفتنا ان كليهما نشاط عقلي . وهذه هي بعض الفروق المزعومة :

آ - يقال ان الاحلام تشتق ، من تجربة اليقظة ، ولكنها لاتتميز عنها . واذا كان الأمر هكذا فان هذا القول ينطبق بالتساوي على الافكار التي تحدث في عالم اليقظة .

ب - يقال ان بعض الاحلام تشتق من مستودع خفي للانطباعات يسميه علم النفس الحديث بالعقل الباطن أو اللاوعي . واذ نفترض وجود عقل باطن (١) ، فاننا نفترض ايضاً وجود بعض الافكار .

ج - يقال ان الجسد الحالم والعقل الحالم يفعلان اويفكران في الاشياء التي يقدر ان يفعلها اويفكر فيها الجسد المستيقظ او العقل المستيقظ . ويكون هذا صحيحاً بالنسبة للاجساد وليس بالنسبة للافكار . انني اقدر ان أتخيل انني اصادف امواتاً او احادثهم او اناساً لاأعرفهم في تجربة يقظتي ، كما أتخيل ان هذه احداث في هذا العالم اوفي عوالم أخرى اوفي هذه الحقيقة اوفي تلك ، كما أقدر ان أحلم بانها موجودة فعلاً . وعلاوة على هذا ، أستطيع ان أتخيل ، كما يمكنني ان أحلم ، ان جسدي في حالة صحة أخرى او في حالة عمر آخر ، أو ان عقلي يعمل في شكل او بآخر .

د - بينما يبدو التفكير في حالة اليقظة انه ارادي بعض الاحيان ولا إرادي بعض الأحيان الأخرى ، فان الحلم ، من وجهة نظر المستيقظ ، يجب ان يبدو دائماً لا إرادياً . وهذا خطأ لأنه لو دخلنا حالة الحلم لا إرادياً ... فاننا سندخل حالة اليقظة لا إرادياً ايضاً . لكن يبدو أننا نختار افكارنا في الحلم وفي اليقظة على السواء .

هـ - يفترض ان الوقائع التي تحدث في الأحلام تشغل وقتاً أقل من وقائع مماثلة لها تقع في تجربة اليقظة . إن هذا الافتراض يجعلنـــا نساوي بين مفهوم الزمن في ادراكنا للموضوعات الملموسة وبين مفهومه لدى تفكيرنا فيها عندما يوجد مفهومان مختلفان . فنحن لانحتاج الى زمن لنفكر بأية حادثة خاصة في حالة اليقظة أكثر مما نحتاج لأن نحلم بها . لكن اذا قدرنا ان نقسم حالة اليقظة الى تفكير والى ادراك الموضوعات الملموسة ، فيتوجب علينا ان نطبق ذات التمييز على حالة الحلم ، لأن تجربة الفكر الحالم هي تجربة الفكر المستيقظ ، تجربة تنقسم بنفس الطريقة الى مفهومين متميزين للزمن . وهكذا لايوجد اختلاف هام بين التفكير والحلم عندما نعتبر تجربة الزمن .

---

(١) من وجهة نظر الوعي : مالايكون موضوعه الآن لايوجد الآن . وهكذا نعتبر التعبير « العقل اللاواعي » تناقضاً في التعبير .

٥ ــ تساوي التفكير والحلم : تساعدنا هذه الاعتبارات على أن نتحقق من تساوي التفكير والحلم ؛ فهما حالتان للنشاط عقلي . وإذا وجد أي اختلاف بشكل مفصل ، فلن يكون سوى اختلاف بين نموذج فكر ونموذج آخر .

٦ ــ مقارنة افضل بين عمليتي اليقظة والحلم : رأينا ان التفكير والشعور وإدراك الموضوعات الملموسة هي نشاطات يشترك فيها كل من تجربة اليقظة والحلم. ويُرى كل من هذه النشاطات من وجهة نظره الخاصة . لكن بدخولنا حالة اليقظة نجد ان الحلم لم يكن الا نتاجاً عقلياً في كل مظهر من معالمه ؛ ومع ذلك كانت حالة الحلم يقظة للحالم . فما هي الاسباب التي تجعلنا نفترض إن اليقظة الحاضرة ليست الا نتاجاً عقلياً كالحلم ؟ نحن نعلم انه ليس للموضوعات الملموسة وجود مستقل . انها توجد افكاراً في عقل المدرك . وهكذا يكون التمييز بين العقل والمادة غير حقيقي ، تماماً كما يكون التمييز بين الفكر وادراك موضوع محسوس غير حقيقي . واذا وافقنا على ما نقوله ، فلا يعني كوننا مستيقظين شيئاً بل لا توجد حالة يقظة : كله حلم . وتكون تسميتنا للحلم ، من وجهة نظر اليقظة ، تسمية خاطئة .

٧ ــ الحاجة الى تعريف التجربة الموضوعية : إننا نفكر في حالة اليقظة وفي حالة الحلم من خلال روح واعية وفردية وغير متبدلة تتخلل وتنمي تجربتنا الموضوعية كلها . ولما كان لا يوجد اختلاف بين حالة تجربة موضوعية وحالة أخرى ، فمن الحق ان نجد اصطلاحاً يساعدنا على وصف كل الحالات التي يكون العقل فيها نشيطاً .

٨ ــ الثنائية : اليقظة والحلم حالتان للنشاط عقلي . اما صفات هذا النشاط فهي حضور عارف ومعروف ، مفكر وفكر ، إحدهما يعي الآخر . ويعرف النشاط العقلي بأنه حالة ثنائية الفكر والموضوع .

٩ ــ النوم بلا حلم : يعرف النوم بلا حلم بأنه تلك الحالة التي تختفي فيها الثنائية الظاهرة للفكر والموضوع . وتقوم صفته السلبية على انعدام النشاط العقلي. ونحن نستعمل هذا التعبير الآن لأنه يتضمن التفكير والشعور والإدراك الحسي. اما من وجهة نظر خاصة ، فان النوم بلا حلم إيجابي وهكذا لا يكون انعدام النشاط العقلي ميزته الحقة . وينتج أنه عندما نتكلم عن النوم بلا حلم وعن غياب النشاط العقلي ونقول لدى الاستيقاظ اننا نمنا بعمق ولم نعرف شيئاً ، فاننا ننظر الى هذه الحالة فقط من وجهة نظر الثنائية ونقول عندئذ ، بسبب هذه المقارنة ،

انها حالة لا معرفة . وينتج ايضاً انه لا يمكن تطبيق اي اصطلاح ايجابي لتجربة يقظتنا على تجربة نومنا . ومع ذلك توجد مظاهر إيجـابية ثلاثة للنوم ، وتساعدنا معرفتها على معرفة طبيعته الحقة .

١٠ – تجربة النوم :

آ – لانتوقف عن أن نوجد عندما نكون نائمين ، على الرغم من ان كل تجربة فردية او موضوعية تكون قد اختفت . فالنوم العميق هو حالة الكيان غير المشروط ، ونعني انه في النوم بلا حلم يبقى المبدأ الذي يعلو الصفات والحوادث التي تخص الموضوعية.

ب – بعد الاستيقاظ ، نعي اننا قد نمنا بعمق ، على الرغم من ان انعداماً كهذا لايختبر ابداً . فالنوم العميق هو حالة اللاثنائية . ونقصد ان مبدأ الوعي يبقى دون ان يبدو انه يتخذ ثنائية فكر واع وموضوعه . والعقل لايكون غائبا كلياً والا فان النائم لاتثيره الاحساسات .

ج – اننا نتمتع بالنوم العميق . فهو اذن حالة الاكتفاء الروحي . وتشبه هذه الحالة الفترة الزمنية التي تفصل بين فكرتين (١) .

١١ – مقارنة أخيرة بين اليقظة والحلم[٢] . يعتبر الحلم(١) استمراراً لليقظة(٢) وتجاوزاً لها . واما عملية الاستمرار هذه فانها تمثل دوام الوجود الانساني في حالته الراهنة، اي الواقعية . ودوام الوجود الفكري دون الموضوع . لكن هذه الحالة الثانية لاتعتبر مناقبة لحالة اليقظة وذلك لأنها تتجاوزها وتعلوها . فكل عملية تجاوز او تعـالٍ ، فوق عقلية او نفسية ، لاتعتمد على الموضوع بل على صورته تماماً كما يعمل الفكر في صوره بعد طرح الموضوعات او عدم استعمالها . ويظل الفكر يعمل في وجوده دون الاعتماد على المحسوسات المباشرة . وهذا مايساعده على التعمق في حالة النوم او الحلم . فما هو الحلم ؟

---

(١) الفعل العقلي لايستمر . ولكل فكرة او شعور او ادراك حسي بداية ونهاية. وتوجد فترة زمنية بين تصور واع وتصور آخر . وتبدو الفكرة الزمنية ، من وجهة نظر الثنائيــة ، وجيزة جداً . لكنها في ذاتها ، تعلو فكرة الزمن ، هذا الزمن الذي يختبر فقط عندما يوجد نشاط عقلي . وفي هذه الحال لايوجد شيء من هذا.وهكذا تفلت من انتباهنا . واذا حاولنا ان نفكر بها . فانها تبدو لنا كحالة لامعرفة.يشبه هذا التعليق الزمني للنشاط العقلي حالة النوم بلا حلم ، هذا التعليق الذي نختبره ... كل لحظة اثناء تجربة اليقظة والنوم .

(٢) لاتعتبر هذه المقارنة تركيزاً على دراسة الحلم .

ونقول عندما نجيب : لم يكن هذا الشخص ملكاً في اليقظة ، بل تولد عنده شعور بالملكية . وعندما حلم بأنه ملك تحقق وجود الملكية في الحلم وتميز بأنه حقق كل ماتمت الى الملك بصلة : صولجان وعظمة وجنود وقصر وحاشية الخ . وعندما استيقظ استمر شعوره بأنه ملك . وفي التكرار استمر هذا الشعور واصبح اكثر شدة حتى انه تحول الى شعور بالوجود . وهنا نريد ان نقول ان حالة النوم او الحلم كانت حقيقية اي يقظة، وحالة اليقظة كانت حلماً ، وذلك لأن تحقيق الشخصية تم في الحلم ولم يتم في اليقظة . واذا افترضنا إن انساناً استطاع ان يحقق كل مايبغيه في حالة النوم ، فأي فرق هناك بين النوم واليقظة طالما ان حياته تنقلب من حال الى حال ! ويصبح النوم يقظة واليقظة نوماً .

ونستطيع ان نقدم مثالا أخيراً على بقاء الأثر النفسي والفيزيولوجي بعد الحلم . هناك من يحلم بأنه يركض ، فيشعر بالتعب والانهاك ، او يحلم بأنه يضرب فيشعر بتوعك في جسده . ولدى الاستيقاظ يشعر هذا الحالم إن جسده منهك ومتعب . وعندما يعلم انه قد نال قسطاً وافراً من التعب والألم في حلمه يعلم ايضاً انه قد تعرض لحلم مزعج بدت آثاره في اليقظة من خلال الجسد المتعب . ونحن نعجب كيف يمكن ان يشعر بهذا الانهاك طالما ان جسده مكانه في الفراش ؟

الحلم في درجاته الاولى اشتراك حقيقي بين اليقظة والنوم . وتبدو حقيقته في الآثار النفسية والفيزيولوجية التي تظهر في الجسد ومن خلاله . ولاننسى ان انواعاً من الغم أو الكآبة تجتاح نفوسنا عندما نستيقظ ولاندري لها سبباً أو علة . ولكن لدى الرجوع الى الحلم نعلم ان حالة ألم قد ألمت بنا وتركت أثراً نعاني منه . وهذا دليل على ان الارتباط قائم وهو وثيق بين حالتي اليقظة والألم ، وذلك لأن الشعور يمتد في كلا الحالتين .

ولكن احلاماً من هذا النوع تبدو بدائية في عالم النوم . فهي يقظة بدون موضوع خارجي . وتعتبر ادنى درجة احلام لأنها مرتبطة بعالم المادة أشد ارتباط . فهي لاترفع الانسان عن مستواه الفكري ولاتتجاوز او تتسامى لأنها ترتبط بالوجود المادي الذي يحياه الانسان . وتكون هذه الاحلام ضارة في كثير من الاحيان كما تؤدي الى عقد نفسية او الى قلق واضطراب وذلك لأنها تدور حول امور معيشية وغريزية ومادية لايحققها الانسان في حالة اليقظة .

٢ — نقول أن الحلم في درجاته الثانية تجاوز للحالة البدائية والمادية التي يظل فيها الجسد عالقاً بانعكاساته العديدة . وتعتبر هذه الحالة انطلاقاً في عالم المادة واستغراقاً في عالم الروح . ولكن روحانية هذه الدرجة تظل معتدلة وغير مكتملة طالما انها لاتزال تعتبر

عن درجة فوق عقلية . وفيها يشعر الانسان بشيء من الطمأنينة والترفع عن الهواجس والدوافع والانفعالات والغرائز التي تسيطر على احلام الدرجة الاولى .

ومن أحلام هذه الدرجة التحدث الى ارواح الموتى الصالحين ، او السير معهم ، او معرفــة حادثة قبل وقوعهــا او بعد وقوعها دون معرفة العقل بهــا . ومن احلامها ايضاً رؤيا اناس سنلتقي بهم او الاطلاع على امور تهمنا معنوياً . وتعتبر هذه الأحلام أعلى مرتبة من أحلام الدرجة الأولى ، وتنفصل عن عالم المادة لتدخل عالم الروح . ولا تكثر احلام من هذا النوع ولا تحدث الا مع اناس ذوي عقول صافيــة ومستنيرة واخلاق عالية وسامية .

ولا تعتمد هذه الأحلام على موضوع . واذا وجد الموضوع فانه يكون رمزاً فقط . وهكذا تتضاءل قيمة الموضوعات الملموسة او المحسوسة وتنشط قوى مافوق العقل التي تعتبر نفسية وقريبة جداً من التحقيق الروحي . وتفعل فينا هذه الأحلام بشدة وقوة وتترك آثاراً عميقة في نفوسنا . فهي هامة جداً لوجودنا وتساعدنا على معرفة أمور لانصل اليها بالعقل .

تدلنا هذه العبارة الأخيرة على ان العقل في درجاته العليا ينطلق من قيود مادته وموضوعاته وانعكاساته ويغوص في عالم اكثر تحولاً وصفاء ونقاء . وتتراءى له صور لاتمت الى الموضوع بصلة . وعلى هذا الأساس تعتبر هذه الأحلام اكثر رقة من احلام الدرجة الأولى وأسمى منها . ويشعر من يحلم بها أنه متسام وان قدرته تتعالى ، كما يشعر بقوة نفسية وعقلية معاً . وتبرز هذه القوة طالما انه يتأكد من وجود قوى عميقة تعمل فيه وترفعه عن مستواه المادي وتشير الى مكامن طاقته .

٣ — نقول ان الحلم في درجاته الثالثة والأخيرة صعود الى مملكة الانسان الحقة ، مملكة الروح . وفي مرحلة كهذه يسمو الانسان على وجوده المادي ويتعــالى في عالم حقيقته . ولا يحقق هذه الدرجة أو المرحلة الا أصحاب الارواح الصافية والعقول العظيمة والاخلاق السامية . وتكون احلام هذه المرحلة قليلة ونادرة .

ومن أحلام هذه الدرجة رؤيا الملائكة وشعور قوي بالغبطة والطيران . وتعتبر الغبطة من أعظم درجات الحلم الروحي — أي حلم الدرجة الثالثة وأسماها — وذلك لأن الغبطة هي حقيقة الروح . فالروح تحيا في عالم الغبطة والسعادة الدائمة وتعمل منتصرة على كل الشدائد . وتعتبر احلام الطيران انطلاقاً من قيود الجسد وتسامياً في عالم المطلق . اما

رؤيا الملائكة فلا تتم الا لمن تفوق على دناسة الوجود المادي وحقق البصيرة الداخلية والطمأنينة التي تعمل في الانسان وتساعده لكي يتفوق على ماديته .

وتترك هذه الانواع من الأحلام اثراً عميقاً في الانسان يذكره مادام حياً. ويستولي عليه شعور بالفرح والغبطة كلما تذكرها او تحدث عنها . ويشعر انها حديثة العهد وان الزمان ليس شيئاً . وهكذا ينعدم المكان ولا تخضع لسلطته .

وهكذا نرى ان النوم واليقظة استمرار لحياة الانسان ، ولا يختلف الواحد عن الآخر الا بنوعية التفكير . فالفرق بينهما في الكيف وليس في الكم . ولما كانت حياة الانسان تتناوب بين النوم واليقظة ، فاننا نحصل من كليهما على قدر وافٍ من المعلومات والادراك . وقد يثبت النوم ما انكرته اليقظة ، وقد يعمل على إظهار حقيقة الفكر في شكله المجرد . ولا يمكن ان ننكر حقيقة النوم وذلك لأن انطباعات اليقظة تدوم بعد النوم في جميع الدرجات الثلاث التي ذكرتاها .

التجارب العلمية الحديثة

لما كانت المعرفة في العصر الحديث تعتمد على المنهج العلمي ؛ لذلك يدرس العلماء الأمور المستعصية على الانسان عن طريق التجربة والاختبار . وقد بدأ علم النفس ، في القرن العشرين ، يعتمد على دراسة الظواهر التي تساعد على معرفة الباطن فسمي بالسلوكية. وامسى العلماء في غنى عن إقحام المسائل الفلسفية في حقل التجارب النفسية التي أخذت تعتمد على قواعد فيزيولوجية . وبتقدم العلم واستعمال الاجهزة الدقيقة ، يحاول العلماء ان يعرفوا الكثير عن حالة النوم (١) .

وقد طبق العلماء في الآونة الأخيرة تجاربهم على مجموعة من الحيوانات وذلك لكي تتسنى لهم دراسة وافية . وانتقلوا بعد ذلك الى دراسة الانسان عاملين على كشف النقاب عن هذا السر العظيم الذي نسميه النوم .

وفي دراسة كهذه – طالما ان الدراسات التجريبية لم تكتمل بعد ولم يصل العلماء الى نتائج ايجابية كافية – لا نستطيع أن نتكلم بدقة نرجو منها كل وضوح وحقيقة . لكننا نستطيع ان نتقدم ببعض الامثلة الدقيقة التي لا تزال موضعاً للتجربة في الوقت الحاضر.

---

(١) الصورة الوحيدة الكبرى التي تنشأ من دراسة النوم هي ان الانسان مازال عاجزاً عن دراسة حالة اليقظة ذاتها والتي يعتبرها سراً .

في دراستهم للنوم ، اقام العلماء تجاربهم على بعض النائمين فقاسوا موجات الدماغ . وقد وجدوا أن هذه الموجات تختلف من حين لآخر وفق الافكار والمشاعر والاحاسيس والانعكاسات التي تطرأ على الدماغ . وقد برهنت هذه الدراسة على وجود موجات سريعة وبطيئة ومتوسطة ، تختلف مع حالة الحلم . وادرك هؤلاء المجربون ، بعد دراستهم لهذه الموجات ، الاوقات التي يحدث فيها الحلم . فقد عمدوا الى ايقاظ النائم في مثل هذه الفترات لمعرفة انواع الموجات وعلاقتها بالأفكار اي بالاحلام . واستطاعوا ان يصلوا ، نوعاً ما ، الى نتائج ستكون دعائم ومقومات لدراسة من هذا النوع في المستقبل.

وعلى الرغم من دراستهم هذه ، لم يصلوا الى ادراك النوم بمعناه الحقيقي . كما انهم لم يستطيعوا ان يعينوا المناطق التي تعمل في الدماغ اكثر من غيرها . ولكنهم ركزوا على المناطق السفلى في الدماغ المرتبطة بالنخاع الشوكي واعتبروها الأماكن الحساسة التي تعمل اثناء النوم . وتركزت ملاحظتهم ايضاً على حركة العيون اثناء النوم . وقد دلت هذه الحركة على نوعية الحلم لأن موجاتها تدل على شدة الانطباعات . ولم يغفل هؤلاء المجربون عن ايقاظ النائم ليروي لهم حلمه .

والشيء الثاني الذي درسوه هو مسألة الوعي اثناء النوم . فقد اكد بعضهم على فقدانه . واعادوا فقدان الوعي الى فشل الاقسام السفلى في إرسال الانعكاسات العصبية Nerve impulse الى الاقسام العليا من الدماغ Cortex . وهكذا تكون عملية النوم ، في رأيهم ، حالة عدم الاستجابة من الوجهة العلمية(١) .

ولاشك ان دراسة من هذا النوع تحتاج الى فترة زمنية طويلة حتى يستطيع العلماء ان يقولوا كلمتهم فيها . ومع ذلك نستطيع ان نصل الى بعض النقاط التي تساعدنا على إتمام الموضوع بشكل تساؤل :

١ — تنشأ صعوبة دراسة النوم من صعوبة دراسة اليقظة .

٢ — وتنشأ أيضاً من صعوبة التمييز بين انواع الفكر .

---

(١) يناقض هذا ماذكرناه سابقاً ، وذلك لأن النوم عملية نفسية ولا يحتاج لعمليات دماغية من الدرجة العليا . وتبدو أهمية الاقسام السفلى فقط في أحلام الدرجة الأولى . اما في احلام الدرجة الثانية والثالثة فان قياس الحلم لاينفع وذلك لأن الحالم لايحلم بهذين النوعين اللذين يعبران عن حالة فوق عقلية بل باحلام الدرجة الأولى .

...ويه دراسة الانتقال من حالة اليقظة الى حالة النوم .

٤ — الدراسة العلمية لاتقر بوجود عوامل أخرى ، غير مرئية ، كالروح مثلاً ، في مجال التجربة الحسية .

٥ — اعتبار النوم عملية لاوعي يضطرنا ان نميزه عن عملية الوعي الذي تمتاز به اليقظة ، كما يضطرنا الى اعتباره موتاً مؤقتاً .

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » (وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق) مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الآداب

الكتاب والموضوعات

ثلاث قصائد

محمد عفيفي مطر
– القاهرة

١ ـ البومة

أنا بومةُ القرية الساحلية
بأقصى الشتاء الشماليّ ، حفرْتُ عشي
بجميزة الليلِ ،
أطلقتُ أحلام روحي
وأسقيتها من سواقي الجروح
فمدتْ جذور النبوءة
بأرض الأساطير والحزن حتى إنحنتْ بالثمارْ
وفاحت بما يحمل الكون في قلبه الأبكمِ

من الموت والشعر والانتظار
وفاحت بما تحمل الأرض في جوفها من
بكائية طيرتها بسقف النهار .



أرى طينة الأرض شاخت فلا
تنبت الآن غير الرماد
أرى دودها الفارغ القلب قد ساخ فيها
فحطت عصور العفونة
فيا ساعة الأرض .. يا طائراً من حديد
لتنقض .. حتى أرى كيف تأتي القيامة .

عجوز أنا .. لم أعد استطيع الفرار
ولو كنت تقوت عين النهار
لما كان للرعب سلطانه الرحب ،
لاستقبلتني المدينة
نبياً ، بألواحه السود رؤيا
وفي عينه جمرة الوحي تنصب زيتاً ونار .

أنا بومة الطينة البربرية
بجميزة الليل حفرت عش الفناء الكئيب
وقد فارت الأرض جنساً وطمثاً من الدود والرعب ،
لم تشرب الموت تحت الصليب

ولم تعرف السجن حتى ترى روحها البربرية
فأقبلْ .. أيا طائراً من حديد
إلى جيفة الأرض .. دعها تذق موتها مرتين .

أنا بومة الغربة الداخلية
بجميزة الليل ضيّعتُ عمري انتظاراً
ولم ألق في كوكب الثلج ناراً
فأبحرت في ليل قلبي السجين
فياطين .. ياطين .. ردّدْ غنائي
وياطين .. ياطين .. اعصرْ دوائي
من الليل .. واصعد إلى عالمي من جديد ..

٢ ــ أغنيةُ مُتجوِّل :

أمي .. ولدتْني فوقَ سريرِ الجوع
فشربتُ الصدأ السائل من مسمار العالم
ورقصتُ على إيقاع الموتْ
وأكلتُ الأرغفة الحجرية
فاحرقتْ صدري الحربةُ في اعراس الصمتْ .

أخذتْني فوق محفّتِها مركبةُ القمر الأعمى والظلماء
فدخلتُ فصول الرعب

محترقَ الصدر .. فقد زوّجني العالم طفلته الجنية
أدخلني عرسُ الأرض حدائقه السفلية
فأتيت اليكم ملتهب العينين
أسألكم : كيف ارتدّتْ أمي – تحت كروم
الجوع – فتاةً بكراً وامرأتي عذراء !!

٣ – زائرُ الليل :

كانت عيناه الخضراوان
حلماً يتخبّط في اسفلت الشارع والجدران
كانت آيات براءته عطشاً مدفوناً في الانسان
ألقى حبل حصان المطر الأخضر في أوتاد البرق،
وتسلل عبر الغيم
ليزور النوم الراقد في عمر الأطفال
يطعمهم أو يسقيهم من ساقية العسل الأخضر والأشعار

* * *

كانت قدماه العاريتان
تتسلخان فوق صواري الليل
وانغرست في جنبيه عواميدُ الصوّان
فانطرح على أطراف الأسطح والأبراج
مصلوباً ينزف ، تنهشه قطط الظلماء ..

* * *

السمك الأسود يقفز في تيار الدم
ويفز قطارات ملأى بالبشر الصم ،
أبواقاً تنبح ، جِنّاً تصرخ في قمقم ،
أصواتاً تصرخ في حنجرة الاسفلت :
في — جوف الظلمة — مات
ومتى سيجف الدم ؟!



ستائر الأحزان

مســـرة شاكر



سأظل أمشي لاتلمني لاتقل أين المسير ؟
كل الدروب طويلة والشوك في الدرب العسير
يدمي ويضني إنما يحلو من الصعب المثير

* * *

أمشي أسير كأنما لاينتهي دربي البعيد
حب الحياة يجرني ، حب به جلد عنيد
فإذا بلغت الدرب سرت وسار بي درب جديد

* * *

وحكايتي لن تنتهي شوق يلح دم يفور
دمع حبيس صنته فاهتاج يغلي في الشعور
بي ثورة أخمدتها لكنها أبداً تثور

* * *

فحكايتي لن تنتهي أحيا بهـا عمري الظليل
أدركتُ منها بعضَها بعضاً أقلَّ من القليل
سأظلُّ أمشي ربمـا أدركتُها شيئاً جليـل

* * *

أنا لن أنام وفي عيوني نام حلم لايغيض
حلمٌ غفـا متلفعاً كغمامة فيهـا وميض
تهمي إذا ما أقفرتْ نفسي فتورق بـل تفيض

* * *

بل كيف أغفو والدروب جميعها دون اللقاء ؟؟
ونداء قلب ليس يروى لايكفُّ عن النداء ؟؟
والدمع والأحلام حتى أدمعي دون ارتواء ؟

* * *

شيٌ من الأعماق يصرخ لاهثـاً لايستجاب
أترى وردتُ الماء أم يبقى بعيداً أم سراب ؟
أأظل أجري والدروب تقودني دون الرغاب ؟

* * *

ماذا ضممتُ بأضلعي ؟ حباً وشوقاً أم ضياع ؟
وتمرداً أم غضبـة أم فيض دمع والتياع ؟
ليت الشعور رهينة إن شئت يُشرى أويُباع

* * *

دعْ عنك لومي ماصنعتُ حكايتي دون البشر
وجميعنا مها ادَّعينـا كالدُّمى بيـد القدر
بعضٌ له قلبٌ يرفُّ وآخرٌ صـلدٌ حجر

* * *

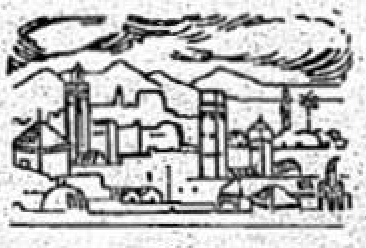
أتقول ذكرٌ بائسٌ ، بالله ماذا أستطيعُ ؟
قــل للخريف ليسرق الأزهار من كف الربيع
أوضعْ فؤاداً أو نهى النذل للنبت الوضيع ،

* * *

لن تستطيع فليس يعطي الشوك عطراً أو عبيرْ
وستائر الأحزان لن تخفي سنا القلب المنير
أنا ما اشتريت مشاعري لكنها كنزي الكبير

* * *

هي جذوةٌ في القلب تدفيء في الحنايا والضلوعْ
هي شعــلةٌ لاتنطفي تزداد حراً أو سطوعْ
سأظلُ أمشي قد تطول الدرب لكن لارجوعْ



أغنية إلى دمشق



محمد منذر لطفي

مهد الصبابة . . بالمفاتن تزخر
وتميس في دل الشباب . . وتخطر
مهد الجمال فدتك مني مقلة
سكرى ، وقلب بالمحبة . . يجهر
هذي مغانيك الحسان كأنها
غيد تباهي بالفتون . . فتسكر
أفدي المروج الساحرات ، ولونها
أحببْ به ، فهو الربيع الاخضر

أفدي الغواني ان خطرن فينثني ... زهو الربى ، ويتيه حتى البيدر
أفدي العيون الناعسات وقصة ... الحب يجلوها الصبا ويعطر
أفدي الشفاه وخمرها ورحيقها ... وحديث غانية يطيب وينضر
أفدي النهود البيض ، أفدي عريها ... أفدي الخصور ، وسحرُها لايفتر
أفدي كروم اللوز والعنب الذي ... تزهو به دوما ، وتزهو دمر
في الغوطتين ملاعب عذراء لم ... يذهب بروعتها الزمان الأزور
سبحان من صاغ الجمال بأرضها ... ومضى من الحسن الفريد يصور
الله اكبر يادمشق فأنت في ... سفر الجمال ملاحم .. لاتقبر

* * *

غنيت في واديك ألف حكاية ... السحر وشحها ، فطاب المنظر
وغزلت من خمر الرياض قصائداً ... سكر الورى منها ، وغنت أبحر
بردى يصفق والأزاهر حوله ... نشوى بنعم النهر فهو الكوثر
والغوطة الخضراء ترفل بالمها ... من كل لون ، فالمحاسن عنبر
نيسان أسكرهن في عرس الصبا ... فضحكن ، والشفة الندية سكر
ورمين قلبي بالسهام فظبية ... ترنو ، وأخرى بالحياء . تدثر

* * *

أدمشق انك بالمفاتن جنة ... تزهو ، وارضك في النضارة مرمر
أدمشق انك غادة سحرية ... عذراء أبدعها الاله الاكبر
أدمشق انك جنة ريانة ... فيحاء وشحها الجمال الأخضر
أدمشق أوقفت القصيد على سنى ... واديك والدوح الذي لايهجر

لم أهو غـــيرك بلدة صداحة ... الا ابنة العاصي ، وقلبي يعذر[1]
حيث النواعير التي في صوتهـــا ... يزهو الزمان على الزمان وينصر
حيث الصبـــابة والمحبة والهوى ... والغيد في سحر الشباب تبختر
أحبب بها غيداً يطيـــب لقاؤها ... فيطيب لي كرز الشفاه الأحمر

* * *

أنا شاعر فنان اسكرني الهوى ... فمضيت في عرس الجمال أصور
أدمشق يابلد النضال . . تحيـــة ... حرى ، وشوقاً عارمـــاً لايقهر
أنا لاأقول بأن فجرك قد مضى ... أبـــداً ، فشعبك ظافر ومؤزر
وبنو أمية كم أشادوا المجد في ... واديك يابلد الفخار . . وعمروا
والمجد مجدك يادمشق فزغردي ... وبنوك في الهيجا ليوث تزأر
والمجد مجـــدك يادمشق تحطمي ... قيد الدجى ، وغداً (ليافا) تثأر

---

(١) اشارة الى مدينة حماه

قصة



هاني الراهب

أيقظت محمداً صرخة حادة . وهب من رقاده مستنداً على راحتي يديه . تفحصت عيناه أخواته بغضب . ونظر اليهن محاولاً أن يكتشف من بينهن واحدة يشتبه بها .

قال : — من صرخ هكذا ؟ لم أكد أغفو بعد صلاة الصبح .

والتفتت البنات اليه بحيرة . بعضهن تأملنه مشدوهاً . وبعضهن فركن عينيه برهة ثم عاد الى ضجعته . واخترقت الصمت صرختان متتاليتان أقامت محمداً من فراشه . هرول الى صحن الدار ، نازلاً درجاً خشبياً هرئاً . وهناك وقف لم يجد سوى بابين متشققين مغلقين . واذ هو بالمسير انفتح باب وأطل منه وجه عمته . عندئذ نظر اليها باستعداد مسبق للإطاعة .

قالت العمة : — محمد ! اذهب الى أبيك ، قل له أمك تلد .

وطار محمد من مكانه يمرق من الباب ، ويدور حول الجدار الطيني الثخين . أمام الجدار توقف بغتة ، وقد شاهد حانوت أبيه . وشد بيديه على فخذيه مسكتاً صوت حبات النخل الصاخب . واضطر الى المشي بهدوء . عند باب الحانوت كف عن الحركة . ووراء الزجاج شاهد أبا أحمد وأبا طه ومصطفى . صرخ به أبو طه يدعوه للدخول ، وعلى وجهه ابتسامة محبة . ولم يتمالك محمد نفسه ففتح الباب واندفع حتى وصل الى حيث جلس أبوه وراء دكة خشبية عالية .

قال : — أبي ، أبي . أمي تلد . ستلد لنا صبياً . أمي تلد .

وحاصره الرجال بصمتهم الباسم ، فتراجع الى زاوية الحانوت ، وجلس على الدكة الخشبية الواطئة .

قال أبو أحمد : ماذا ستسمي ابنك الجديد ، يا أبا محمد ؟ الله يحفظه .

واجاب ابو محمد : — سأسميه عماراً ، ان شاء الله . رأيت في منامي عمار ابن ياسر ، رضي الله عنه . وقلت سأسمي ابني باسمه .

وسأله أبو طه : كم عندك من الأولاد الآن ؟

فرد بهدوء : — ست بنات ، وهذا الفرخ .

وسأل مصطفى مداعباً : — واذا لم يأت الآن صبي ؟

فأجاب وأبو طه بصوت واحد : — صبي ، بنت ، سيدي ، مثل بعضه . كلهم خلق الله .

وبدا ان مصطفى لم يقتنع بالتوقف عند هذا الحد . قال :

— ولكن ثمانية أطفال ! شيء كثير !

ورد ابو احمد بلا مبالاة : — الذي خلقهم يرزقهم . كلهم يرزقهم الله .

وقال ابو طه : — يرزقهم الله . نحن عبيده وهو يلطف بنا .

وقال ابو محمد : — يقول الله تعالى في كتابه العزيز : « وما من دابة الا على الله رزقها . » ونحن دواب الله . لا تخف . تزوج ، وفرخ . والله الكفيل .

ورد مصطفى بعناد : — واذا لم يرزقهم الله ؟

فأجاب ابو محمد : — يموتون ! وهل يعيش الناس اذا لم يرزقهم الله .

وضحك الرجال الاربعة .

عندئذ كف ذهن محمد عن متابعتهم . فكر بأخيه الوافد موجـــداً . وحـاول ان يتصور ملامح وجهه . رآه شبيهاً بأخته سنية ذات الأنف الاقنى ، فابتسم . وطرفت عينه بوعاء الحلوى الزجاجي ، فوخزه شعور غريب بأن الحلوى ستكون من نصيب اخيه بعد الآن . ولم يخفف من بؤسه المفاجىء غير جوف

الوعاء الحاوي . قطعتان او ثلاث ، استقرت على قعره . اما جوانبه فلم يكن ضمنها شيء .

وشرع يتأمل الاوعية الزجاجية الغبراء ، واحداً يتلو الآخر . معظمها فارغ . اوعية اللب والفستق وبذر البطيخ والحمص المشوي فارغة تماماً . ولكن علب الدخان فارغ ايضاً الا من خمس علب . وكذلك اركان الدفاتر والاقلام والبالونات . مكان واحد فقط كان مليئاً ، وهو للراديو العتيق الذي لا يسمع محمد منه سوى اذاعة دمشق .

على اعالي الجدران رأى اوراقاً صفراً ملتصقة . وتمكن من قراءة واحدة منها فاغتبط ، وردد لنفسه : « وما من دابة الا على الله رزقها . صدق الله العظيم » .

دخل الحانوت محمود ، وتقدم من ابي محمد ماداً يده بفرنك اصفر .

قال : — اعطني حمصاً .

وعجب محمد ثم ظل ابوه على مقعده برهة قبل ان يتناول الفرنك ويقدم لمحمود حبات الحمص المعدودات . ثم غاض عجبه عندما نظر اليه محمود نظرة خاصة . نزل عن الدكة ، وانطلق معه الى الخارج .

ابتسم الاثنان لبعضها . وضرب محمود بيـــده على جيب سرواله ، ففعل محمد مثله . وعلا صوت حبات الدحل ، وانطلق الاثنان نحو البيادر . تحت ضوء الشمس الأنيس الصافي ، وعلى الطريق المتغلغل بين البساتين ، نبرت اصابعهما بحبات الدحل ، وتابعتها اقدامها . ربح محمد اولاً ثم خسر . ولم يعجبه ذلك . اتهم صديقه بالغش ، فأنكر الصديق . وأكد محمد اتهامه وهو يوجه نحو صديقه نظرة نارية :

— لماذا خسرت إذن ؟

ـ لأنك لاتعرف ان تلعب .

ـ أنا لاأعرف ان ألعب ؟ أنت ، تغش .

ـ وانت تبكي على ماخسرت . مثل البنات .

ـ انت مثل البنات .

قبل ان يحمل الصديقان على بعضها معتزمين خوض معركة الكرامة ، سمع محمد صوت ابيه يناديه . وعرف انه غاضب . نظر اليه صديقه متحسراً :

ـ هات خمس دحلات .

ـ لا أعطيك شيئاً . يبكي على الخسارة .

ـ انا ابكي ؟ انت مجنون، رزقي على الله ، ومامن دابة الا على الله رزقها .

ثم انطلق الى ابيه ، لحق به عند باب الدار فـناداه ليشعره بوجوده . والتفت الاب فنظر الى ولده نظرة طويلة .

قال : ـ ألم اقل لك ، لاتشتر وصلا بالفرنكات ؟

ـ نعم .

ـ ألم اقل لك : نحن فقراء ، لانملك فرنكات للوصل ، بل للأكل ؟

ـ نعم .

ـ لماذا تشتري اذن ؟ هل تريد ان املص لك رقبتك ؟

ـ نعم .

ـ إن اركَ مرة ثانية تلعب ، يكن لي معك حساب آخر . ادخل الآن وافطر مع أخواتك .

وهكذا استطاع ان يسمع صيحات امه الحادة المضنية . وفاجأه تكررها وتتابعها . أحس انها تلاحقه في صعوده الدرج الخشبي . وإذ وصل ، دخل الغرفة وأوصد المصراعين .

ظلت الصرخات المبشرة بوليد جديد تدق سمعه . وعلى نحو ماشعر بالخوف عندما اقترب من الطعام : الطعام لن يزيد ، وأخواته يزددن . لكن حدة الصرخات خفت عندما وجد أخواته متحلقات حول صينية من القش . ورأى على الصينية قدراً متوسط الحجم ، ملأ ثلثه حساء العدس ، وحوله وضعت رقاق الخبز .

جلس بين أخواته ، وتناول الأطفال السبعة الخبز وبدأوا يأكلون .

بعد قليل نبر محمد : — العمى بعيونك ! أكلت الشوربا كلها .

وأجابت أخته : — بعيونك وحدك . ألست تأكل معنا .

وناولها محمد صفعة انفجر صوتها بشكل اوقف الأخريات عن الأكل . وانطلقت الأخت في صراخ ناعب دامع ، ويدهــا على خدها .

دخل الأب الغرفة فصمت الجميع . وتقدم محمد منه ، يقول :

— يا أبي ! سهيلة لاتأكل الخبز مع الشوربا . أكلت الشوربا كلها بلاخبز . ونحن بقينا جوعانين .

— كذاب ، أبي ، انظر . أنهيت رغيفي .

— هي وحدها فقط .

وقالت أخت : — والله لم نشبع .

وقالت أخرى : — والله لم نشبع .

وقالت ثالثة : — والله لم نشبع .

وقالت رابعة : — والله لم نشبع .

وفي تلك اللحظة جاء من يخبر أبا محمد أن زوجه قد ولدت توأماً ، صبياً وبنتاً ، وأن الوليدين قد خرجا الى العالم ميتين .



قصة

مصطفى الخش

هبط ، ليلاً ، درجات سلم الملهى ، في الطابق السفلي ، وعيناه تتقدان بالشرر ، فما له بد من الانتقام . وقد أعد عدته . وجلب رفيقاً له ليكون ساعده على تحقيق مرامه . وانتحى الرفيقان نضداً منفرداً ، الى جانب الحائط . واهتم لهما النادل فأفرد كرسيين جلسا عليهما .

وأخرج بديع علبة التبغ من جيبه فسارع يشعل له لفيفة منها عب مع دخانها الحقد والمرارة . وناداه أن يجلب له لتراً من الويسكي ، قبل كل شيء ، ثم ان يدعو له « مارغو » لتؤنسه .

وفي موكب من السنا والعطر والفتنة اقبلت إبنة الحسان تخطر في مشيها ، بكبر واحتشام – كأنها من المحصنات – وما كاد الحديث يدور بينها حتى لفت انتباهها أن لهجته تختلف عن سائر الرواد فسألته :

– أو أنت من بيروت ؟

– كلا ولكني سكنت فيها طويلاً ولي فيها معارف كثيرون

– اين سكنت ؟

– لقد سكنت في أحياء كثيرة وبخاصة في حي الحمراء

– ومن تعرف في هذا الحي ؟

– اعرف الكثيرين وبخاصة بيت ح ... أحسبني فيه كأنني بين أهلي فهو يضم ارملة مع ولديها الشابين وابنتها الصبية في عمر تفتح أكمام الزهور . ويزين هذا البيت طفلة ذات ستة اعوام ، لكم داعبتها وجلبت لها الهدايا فكانت ترقص فرحاً إذا دخلت الباب فتزف الى جدتها خبر مقدمي وتركض نحوي توسعني لثماً وتقبيلا وهي تناديني : (عمو بديع . عمو بديع . تعال «نام عنا» .. «ليش بتروح» ؟) كنت استشعر السعادة وأنا اضم هذه الطفلة الى صدري . لكن لها لغزاً لما ادرك كنهه ، ففي كل مرة كنت أسأل عن والدتها كان الجواب مقتضباً

فتارة يقولون : إنها ماتت . وطوراً يقولون : إنها مسافرة . وفوق هذا كنت أحس أن سحابة من الحزن ترين على البيت إما توجهت بهذا السؤال، فالوجوه يزايلها السرور ويعلوها الانقباض ، فلا اجد مندوحة من الصمت وعدم الاسترسال في تقصي الحقيقة فلا أنبس بعده ببنت شفة . وإنني لأحب هذه الطفلة من أعماق قلبي . وليس أحب الي في بيروت من ان اراها واداعبها فتطبع على جبيني وخدي القبلات البريئة

ـ أو تحبها كثيراً ؟

ـ اكثر من أية طفلة رأيتها في حياتي . صدقيني أنني احببتها اكثر من شقيقتي الوحيدة عندما كانت صغيرة

ـ وهل هي حلوة هذه الطفلة ؟

ـ إنها جميلة جداً وعيناها الزرقاوان تكادان تشبهان عينيك على أنها بيضاء وأنت سمراء وان فيها لجاذبية آسرة مثل الذي فيك فأنت آية في الجمال والرقة وستكون هي آية في الجمال والرقة عندما تكبر .

ـ أصحيح ما تقول ؟

ـ كل الصحة ولا شيء يدعوني الى الكذب

ـ خبرني كيف صحة الطفلة ؟

ـ إنها بصحة جيدة وتتمتع بالحنان والرعاية . فكل أهل البيت يحبونها . يفتنون ويتسابقون في إظهار حبهم لها . فهي لكل فرد في البيت بمثابة الطائر الغرد فما تدانيها طفلة في الكياسة وخفة الدم .

- ٣ -

غامت بعينيها الدنيا ، وهي تستمع الى حديثه ، وتشنجت اعصابها وزايلها الهدوء والابتسام وترقرقت الدموع في عينيها ثم لا يدري بديع كيف أنها خبأت وجهها في صدره وانفجرت بالبكاء تذرف الدمع المدرار وظلت تبكي طويلاً ثم رفعت رأسها وذهبت الى المغسلة فغسلت وجهها وعينيها وعادت الى مكانها تصتنع الاتزان والهدوء .

وإنه ليدرك سر المسألة . فما من شك في أنها والدة الطفلة ولكنه اراد أن ينتزع منها الاعتراف انتزاعاً . وإن حقده عليها وغيظه منها قد تبدلا – بقـــدرة قادر – الى شفقة ومحبة فاستأنف حديثه معها :

– لعلك بكيت لانك عرفتني إذ ألقيت بي وبشابين آخرين في السجن مدة اربعة ايام بدون ذنب اقترفناه وانما لسكرك في تلك الليلة وتكسيرك البلور والالواح الزجاجية في الفندق الذي تنامين فيه . وكان رفيقي يبغي ان ينام فيه ايضاً عندما جاءت دورية الشرطة – وأنت على ماأنت عليه – وستراً لفعلتك وبالتواطؤ مع صاحب الفنـــدق كنا كبش الفداء فاقتادتنا الى النظارة ثم الى السجن ولم يخل سبيلنا الا بكفالة الى حين انتهاء الدعوى التي اقيمت ضدنا بتهمة انتحال صفة رسمية . ويشهد الله اننـا لم ننتحل أية صفة ولم نقترف أي ذنب نستحق عليه هذا السجن لأننا كنـا مجرد شهود عيان لعربدتك وسكرك . وقد دبر صاحب الفندق هذه المكيدة لنـــا بالتآزر مع دورية الشرطة تبريراً لتوقيفنا الذي تم على غير ماسبب . وقد لفقت افادة ضدنا كانت سبباً لتوقيفنا .

– صدقني مابكيت لهذا وسامحني إذا ماكنت سبباً لسجنك ورفيقيك فانا لاأعرفك ولاأعلم ماأفدت به أمام الشرطة في تلك الليـــلة لأنني كنت سكرى ولم أع شيئاً مما فعلت . وإنني لمستعدة للتكفير عن ذنبي بما تشاء .

– لا أريد شيئاً الا ان تقبلي دعوتي لتناول طعام الغداء غداً .

– انني اقبلها بارتياح . والى غد

وودعته ثم خرجت بمفردها من الملهى بعد أن أسرت كلاماً في اذن النادل . وجاء دور بديع ليدفع الحساب فاذا به يقال له :

– الحساب مدفوع

– من دفعه ؟

– « مارغو » نفسها

– ٣ –

خرج بديع من الملهى يحمل عاطفة صادقة نحوها بدلا من الحقد اذ كان يود أن يوقع بها وبصاحب الفندق . فقد إشترى بعضاً من الافيون وحشيشة الكيف وجاء الى الملهى ليتقرب منها لاسيا وهي لاتعرفه ابداً . وكان موطداً العزم ان يجزل لها العطاء ابتغاء ان يدخل معها غرفتها في الفندق ليدس الافيون وحشيشة الكيف في بعض الجوانب ثم يشي بها وبصاحب الفندق فيذهبان الى السجن بلا ذنب مثلما سجن ورفيقاه ، بلا ذنب ايضاً : فواحدة بواحدة والبادىء اظلم .

وضحك لتلك المصادفات العجيبة . فلقد جاء من بلدة البعيدة الى حلب ليذهب منها الى الحسكة ، وكان مقدراً أن يكون فيها ، فأوجد سيارة صغيرة في المرآب فآثر البقاء الى صبيحة اليوم الثاني ثم التقى من قبيل الصدفـــة أيضاً بصديق له يجري فحصه بكلية الحقوق في دمشق وقد جاء الى حلب ليتزود بالمال اللازم له لكنه لم يجد سيارة يعود بها في المساء . وظل بانتظار مثل هذه السيارة حتى منتصف الليل فاضطر للمبيت لكنه لم يغمض له جفن بعد أن ألقى نفسه في غياهب السجن .

كل هذه المصادفات أدخلت الايمان الى قلب بديع فبات يعتقد ان الانسان مسير وليس مخيراً البتة فأوى الى مضجعه وصورة « مارغو » ماثلة في عينيه فالفتنة تشع في قسمات وجهها المستدير وفي جسدها المكتنز الصبي وفي قوامها المعتـــدل الرشيق وبرغم مهنتها فانها لتبدو آية في الاحتشام كأنها سيدة « صالون » وكأنها ربة بيت . مزيتها انهـــا تدخـــل الى القلب ، بلا استئذان ، تماما مثل ابنتها الطفلة في بيروت ولكن لماذا يسميها ابنتها .. من قبيل الافتراض ؟ لابل من قبيل الحدس والملموس .. على الاصح .

وانتابه خاطر فما يمثل هذه السهولة ينسى احتباسه مدة أربعة أيام بلياليها . وأين

خطة الانتقام ؟... ان لم يكن من اجله فن اجل رفيقيه اللذين دخلا السجن لأول مرة في حياتهما في حين أنه دخله مرة ومرات بدون حصر او عد لكنه لم يدخله لسبب شائن ... أبداً .

واستشعر الطمأنينة والارتياح الكاملين لأنه لم ينفذ الخطة فلابد ان الندم سيكون حليفه إما رجح لديه ان المرأة تمت بصلة الى البيت الذي يشده اليه رباط الصداقة المتين .

وازدحمت الهواجس في رأسه ، فالدموع الحرار عبرت عن حقيقة امرها . ولكن من يدري فلعل لها طفلة في مثل سن التي تحدث عنها وهو لايدري ان كانت ستلبي دعوته الى مأدبة الغداء . وقبا لو انفرد بها هل تنطق له بكلمة السر ... سرها هي ... وشيء آخر : لعلها تهرب منه وتتفلت من أية خلوة بينهما لمجرد أن عرفت أنها عملت على أذيته بدون قصد منها ولكن المكتوب يقرأ من عنوانه ... من مغلفه . وقد دلت على صدقها وعراقة منبتها إذ دفعت ثمن المشروب بما يزيد عن المئة ليرة وما كانت ملزمة بذلك فلو تجاهلته لما كان يعاتب عليها لاسيما وأنها كانت مضطربة الجنان وفي وضع غير طبيعي .

وتنبه من صياح الديكة ومن حركة السيارات الى ان الصبح قد تنفس ، لكنه قبل ان يغمض جفنيه قر رأيه على ان يوطد العلاقة معها ليتحقق من صدق حدسه وليقدم لها أية خدمة أو معونة لانها لابد مفجوعة بماضيها ، بحاضرها ، بسلكها الشائن الذي انقادت اليه غير مختارة ... ومن يدري أيضا فلعل الصدفة جرتها الى مثل حالها ...

— ٤ —

برت بوعدها ودخلت المطعم في الموعد المحدد . في ملامح وجهها الجميل أثر للكآبة وفي عينيها الزرقاوين العميقتين عمق البحر احرار خفيف يشير الى انها لم تنم ليلتها وتطلعت تتفرس في وجوه الجالسين . فلما وقع بصرها على بديع — وكان بانتظارها — اندفعت نحوه بخطوات رشيقة وهي بادية الارتياح لكأنما وجدت فيه متنفساً لكربها او لكأنما ادركت معه شاطىء الامان .

وجلست اليه في مثل خفة الظبية فانبرى قائلا وهو يشرقها بعينيه كأنما شد اليها بحبل من مسد :

— مامن رقيب بيننا . هات حدثيني بما عندك . فيم بكاؤك الليلة البارحة ؟

— عاطفة الامومة غلبتني على امري فما استطعت تجلداً فبكيت اذ ذكرت ابنتي امامي .

ـ اذا كنت تحبينها إلى هذه الدرجة فلماذا ابعدتها عن حضنك ؟

ـ لقد زلت بي القدم ونفذ المقدر .

ـ وكيف تم ذلك ؟

ـ كانت ابنتي في الثانية عندما فاجأني زوجي على فراشه مع حبي الأول فما نبس ببنت شفة ولا اضطرب له جنان والتزم جانب السكون . وبعد أن لاذ العاشق بالفرار طلب الي ان البس ثيابي وان اتبعه الى سيارته التي وقفت بنا امام منزل أهلي فاحتضن طفلتنا وصعد بها الدرج في حين وليت الادبار الى منزل صديقة لي حيث اختبأت عندها مدة من الزمن الى ان هيىء جواز سفري فانطلقت الى العراق لأعمل في أحد الملاهي ومنها سافرت الى تركية فايطاليـة . وأنا في سورية منذ شهر واحد ، فلا ارقص ولا اغني وانما اجلس مع الزبائن فقط من بعيد ... لبعيد !..

أسرتك كبيرة وفيهم كثيرون يسافرون الى الخارج أفما صادفت أحداً منهم ؟

وتوقفت قليلا وبلعت ريقها وبدت شاردة الذهن قبل ان تجيب :

ـ لقد صادفت عمي الشيخ في ملهاي بروما فاصطفاني للجلوس معه ففعلت وتكلمنا بالفرنسية دون أن يعرفني ـ طبعاً ـ ووعدته أن اقضي بقية ليلتي معه لولا اني انسحبت من الملهى ـ قبل موعد اقفاله ـ بعد ان دفعت الحساب . ونمت في الفندق الذي تعودت أن انام فيه . وفي صبيحة اليوم الثاني اقلعت بي الطائرة خارج ايطاليا كلها ... وبعد، فهذه قصتي من الفها الى يائها فماذا ترى؟

وران عليه التفكير يريد له مخرجاً من ورطته معها لكنه استشعر المسؤولية كاملة ازاء صداقته لاسرتها فطرح عليها هذا الاقتراح :

ـ أرى ان تعودي الى منزل أهلك فما خلقت لتعيشي حياتك هذه، ولسوف أمهد لك سبيل العودة فابحث موضوعك مع والدتك وشقيقيك ونضع ستراً على الماضي ان لم يكن من اجلك فمن أجل طفلتك التي لاذنب لها في ان تحيا يتيمة الابوين ، محرومة من عطف الوالدين .

ـ مستحيل ... « مش ممكن » . لقد سودت وجه اسرتي ولن يغفروا لي زلتي ، فما لها اية مغفرة كما أنني لن أنشد غفراناً من أحد لا من أهلي ولا من ذاتي نفسها ولسوف أدفع ضريبة العذاب عن هذه الزلة مدى الحياة . ماظلمني أحد ولكني ظلمت نفسي .

ـ ولكنك تظلمين غيرك .

ـ تقصد ابنتي ... لها الله ، نفسي فداء لها .

ـ ان تظلمي نفسك فهذا مالانؤاخذين عليه أما أن تظلمي غيرك فهذا لن ينجيك من عذاب الضمير الذي تدل الدلائل على أنك تحوزين اكبر قسط منه .

ـ ان وخز الضمير يؤلمني كثيراً . وليتني أعيش بدونه لاجتر بقية ايامي كالسائمة سواء بسواء .

ـ دللي على رسوخ هذا الضمير لديك وهيا بنـــا الى ابنتك لتنمو في كنفك فحرام ان تبعديها عن حضنك فهي جذابة وتكاد تكون صورة طبق الاصل عنك ... ولعل هذا هو سر حب أهلك لها .

ـ أمري وصبري لله . ليكن ما تقول .

ولم تكد تنطق بهذه العبـــارة حتى انتفضت كالمذعورة وقد تقلصت قسمات وجهها المضيئة فرددت :

ـ مستحيل ... « مش ممكن » . وأي مبرر لغيابي مدة اربع

سنوات وما عسى أن يتقول الناس عنه . لا لن اكون العار الذي يتنصب أبداً في وجه أمي واخوتي فيطرقون بي رؤوسهم خزيا وشنارا . لا ، وان عاري لايمحي وليست له كفارة . لا وان غيابي عن أهلي أهون بكثير من وجودي بينهم . وشيء آخر : إنني احب اخويّ واكن لهما احتراما عميقا اذ انني ارى فيهما مثالين للمروءة والشهامة . فان ابقيا علي ضمن حبي واحترامي لهما ، والا دفعت بهما الى ارتكاب جريمة قتلي ... جزاء وفاقا لما جنته يداي . الا انني أربأ بهما ان يفقدا مروءتهما وشهامتهما – امام ناظري – كما انني اشفق أن القي بهما في غياهب السجن فاصبح من جديد مضغة في الافواه ويبقى العار – عاري ... أنا – على حاله ، لاصقا باهلي مدى الحياة ... ولولا أن القتل عملية سرقة يستلبها المرء من الحياة لقتلت نفسي ، ذلك انني اعاف السرقة فيما اعاف .

وكفت عن الكلام لتمسك رأسها بكلتا يديها وهي ترتجف ، ثم تنهدت تنهداً عميقاً حاراً ، فانفرجت شفتاها ارتعشتان بالعبارة التالية :

– الا ليت ابنتي ماكانت فيزول بزوالها أي أثر لي . ولكنها مابقيت الا لتثير شجني وشجن اهلي آناء النهار وأطراف الليل ، الآن وكل أوان والى أبد الآبدين .

وتنبه بديع الى ان الارهاق بلغ بها شأوا بعيداً وان الدموع طفرت من عينيها اكثر من مرة ، اثناء الحديث الذي استغرق ساعتين ونصف الساعة أي حتى الساعة الثالثة والنصف ... موعد انتهائنا من الطعام فاراد ان يسري عنها فقال :

– لعلك بحاجة الى المال فأسد لك منه عوزا

– العكس صحيح فالمال موفور لدي ويسرني ان اقدم لك منه ماتشاء لأني لم اعد بحاجة اليه ابداً بعد أن فقدت الطموح والأمل . ومهما بذلت لك في العطاء لأوفي دينك عليّ في حنوك على ابنتي وعطفك عليها وتقديك

لها الهدايا . فانا لهذا جد شاكرة لك حسن صنيعك وحبذا لو تقبلها عني بعد الآن مرات ومرات .

– بوسعي ان اجلبها لك لتشاهدينها

– لن أحملك هذه المؤونة

– اذن فلنختتم موضوعنا اليوم ، وماعليك الا أن تستريحي قليلا في فراشك قبل ان تذهبي الى عملك في المساء ولسوف ألحق بك الى الملهى لنقرر معاً برنامج الغد .

ومد اليها يمناه فضغطت عليها بشدة ، وهي تزرع نظرها في الارض بين قدميها ، ويكاد ينطق محياها بالخفر والحياء وتمتمت بكلمات حلوة رقيقة :

– خاطرك . . خاطرك

وتوقفت قليلا لتشعل سيجارتها فحدقت في عينيه تبغي ان تغوص فيها وقالت له بنغمة آمرة ، وعلى شفتيها رواء ابتسامة آلفة وتحبب :

– عدني إذا ماذهبت الى بيروت ان تقبل عني يد والدتي وخـــدود اخوتي ولاتنس ان تقبل ابنتي طويلا ولكن حذار ان تذكر لهم عني شيئا .

– الحديث ذو شجون ولن نفترق بمثل هذه السرعة لأقطع لك وعداً . أنا باق من اجلك . . اياماً عديدة .

– عدني على كل حال

– اعدك ان اقبل يد والدتك وخدود شقيقك وجبين اختك الصغرى ثم ان اقبل ابنتك الحلوة : خديها وعينيها وجبينها وفمها وشعرها وعنقها ، اهذا ماتريدين ؟

– هذا ماارجوه وكان الله في عونك وعون اهلي جميعاً وليحفظ الله ابنتي .

ـ كان الله في عونك . والى اللقاء

ولكنها ماانبست ببنت شفة وهي تضع نظارتها ، منصرفة الى حال سبيلها. فلا بد أن مقلتيها قد اغرورقتا بالدموع .

ـ ٥ ـ

لو اطلق لعاطفته العنان ، لكان أول رائد الملهى ولكنه تجلد بالصبر حتى الساعة الحادية عشرة لئلا كيا يترك لها الحرية في ممارسة عملها والجلوس مع الزائرين. فلما دخل الملهى لم يجدها فيه ، فاختلق لها الأعذار ثم لم يلبث ان استبدت به الوساوس . وزاد تلهفه لمرآها فالفى نفسه يتلظى على جمر . فلما بلغ الوقت منتصف الليل سارع الى صاحب الملهى يسأله :

ـ لماذا لم تحضر « مارغو » ؟ أهي مريضة ؟

ـ كلا . لقد اقلعت بها الطائرة الى روما في الساعة الخامسة والنصف. وقد طلبت الي فسخ عقدها معي لمدة شهرين فلما امتنعت ، تركت لي أجر الشهر بكامله . أبداً لم اصادف امرأة بمثل هذه النوعية من التسامي والعلو . لكأنما خلقت لتكون من ربات البيوت ، لا من بنات الحان ... واشهد ان احداً لم يمسها بسوء ... ليتني اعطيتها أجر الشهر وليتها لم تذهب من عندي فهي حبيبة الى كل قلب وقد لقيت على وجهها الخير ، كل الخير ..

وادار ظهره فتمتم بديع ، وهو يلملم اذيال الخيبة ، كسيف الخاطر :

ـ لقد صممت على الرحيل فور اعترافها لي وغب أن قطعت لها العهد ـ آنفاً ـ حسماً لدابر الاتصال مع أهلها فما تبغي العودة اليهم ابداً ..

وانه ليلفي نفسه في حلم ولكنه حلم مريح ومزعج في آن واحد ، ولو أنه ظل سراً مكتوماً .. في صدره ، ليس له الى نسيانه من سبيل !!..

تطوّر الاستشراق الانكليزيّ

بقلم يعقوب فرام منصور
— بغداد

مما لا مرية فيه أن المدنية العربية التي ازدهرت في سورية والعراق وترعرعت بعدئذ في الأندلس وصقلية ، فاقت في رقيها مدنيات الغرب المعاصرة ، فلا غرابة أن تؤثرّ الأولى على الثانية تأثيراً عميق الغور ، شاسع المدى ، الى حد أضحت فيه العلوم العربيـة – بفضل مصنفيها وتصانيفها القيمة – سائدة ومزدهرة في بعض أقطار أوربا الجنوبية ردحاً من الدهر ، غبّ زوال السيادة العربية عن الأندلس وصقلية وقبل ذلك ايضاً بحين ، حتى ان بعض ملوك

الأفرنج ، أجادوا التحدث بالعربية وآزروا العلماء العرب في مساعيهم [1] . فتسربت تعاليم أرسطو الى أوربا ، مهذبة بفلسفة ابن رشد ، وأنشئت اول أكاديمية في (طولوز) عام ١٣٤٥ ، صبت اهتمامها على الآداب ، كما أنشئت أخرى في (نابولي) ، صبت اهتمامها على العلوم [2] . قال المستشرق (جيمس بريستد) : « ان إنخذال المسلمين في اسبانيا ، كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية » . وقال المستشرق (تشارلس بتريس) في تاريخ إسبانيا الأخير : « ان عصر الآداب الاسلامية فيها كان من أزهى عصور امتزاج العناصر في تاريخ الحضارة » [3] .

يعود تاريخ الاستشراق والاستعراب الإنكليزيين الى القرن الثاني عشر ، عند قدوم أبرز الرواد في هذا المضمار العالم الانكليزي (أدلارد Adelard) من مدينة (باث) الى إسبانيا وسورية في الربع الأول من هذا القرن ، بغية اتقان اللغة العربية وتحصيل العلوم العربية . ويعد هذا من ألمع السابقين في ميدان نشر الثقافة العربية في الغرب ، فنقل الى اللاتينية عدة كتب عربية في الفلك والرياضيات ، وقف عليها معاصروه الغربيون . ومما يؤثر عن هذا الأديب أنه ألف كتاباً في « المسائل الطبيعية » أهداه الى العاهل هنري الثاني ، وأنشأه

---

(١) استناداً الى كتيب انكليزي (مضمون إنكليز في الدراسات العربية British Contributors To Arabic Studies) للدكتور برنارد لويس المحاضر في التاريخ الإسلامي في جامعة لندن – مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية . من مطبوعات (لونغمان وغرين) وشركاهما – لندن ١٩٤١ . وعليه عولت بصورة رئيسية في تقديم هذا البحث .

(٢) مجلة (العصور) – العدد الثاني – المجلد الأول لتشرين الأول ١٩٢٧ – عمر عنايت .

(٣) في المختبر – ص ٢٣ – مارون عبوده .

بأساوب حواري أجراه بينه وبين ابن شقيقه الذي اقتبس العلم في الجامعات الأفرنجية ، مخاطباً إياه بصدد الطريقة التي تلقنها في الأندلس بالقول :

« إنني – والعقل قائدي ودليلي – قد تعلمت شيئاً من أساتذتي العرب ، وأنت قد تعلمت شيئاً يغايره . لقد بهرتك مظاهر السلطة ، فوضعت في رأسك لجاماً تقاد به . والا فباي اسم آخر يمكننا ان نسمي السلطة سوى أنها لجام ؟ فكما ان الحيوانات الضارية تقاد من مقودها أنى يشاء المرء من غير ان تدري لماذا واين ... كذلك كثير منكم يرسف في اغلال السذاجة وتصديق كل مايسمع ويقودكم الى الخطر سلطة الكتاب والمؤلفين ... علينا ان نبحث قبل كل شيء عن العقل ، فاذا اهتدينا اليه ، بحثنا عندئذ في السلطة . فان سايرت العقل قبلناها . لاتبعث السلطة بمفردها ثقة في نفس الفيلسوف ، ولا يجوز استخدام السلطة لغرض كهذا . »

ومع انصرام القرون الوسطى ، وبزوغ القرن السابع عشر ، طرأ تحول جوهري في وسيلة اقتباس العلوم العربية . فبينما كان العلماء وطلاب العلم ، منذ القرن الثاني عشر والى خاتمة القرن السادس عشر ، يحجون الى اسبانيا وصقلية ويتجشمون عناء السفر شطر سورية ومصر للعكوف على درس وتحصيل المعارف فيها ، طفقوا في مطلع القرن السابع عشر ينهلون العلوم العربية في بلادهم بالذات واستغنوا عن شد الرحال الى أصقاع العلم والعرفان السابقة . فشرع الانكليز مثلاً يدرسون اللغة العربية وآدابها في جامعاتهم ، وأخذ المستشرقون والمستعربون يجمعون المعاجم ومؤلفات النحو العربي ، وينشرون المخطوطات العربيـــة في الغرب قبل طبعها في الشرق ، وينقبون عن أسفار تاريخ العرب وكل مايمت بصلة الى العرب ومعارفهم وآدابهم وفنونهم وتراثهم . ففي هذا القرن استحدثت

جامعتا (أكسفورد) و (كمبرج) منصب الأستاذية للغة العربية ، وأقبل طلبة عديدون بشغف على تعلم العربية على أيدي أساتذة إنكليز ، وطبعت مؤلفات عربية لأول مرة .

لقد مهد لهذا التحول رجال سباقون في هذا المضمار ، أولهم (وليم بدول) — William Bedwell — الذي عاش بين ١٥٦١ و ١٦٣٢ ، ولقب بأبي الدراسات العربية ، وأنشأ مقالة أورد فيها أهمية اللغة العربية وضرورة تعلمها ، فذاع صيته كمستعرب في ارجاء اوربا ، واشتهر بتصنيف قاموس عربي في سبعة مجلدات ، لم يكتب له النشر ، ويلي ذلك نصوص عربية مطبوعة ودراسات في القرآن الكريم ومعجم ضم مفردات عربية شائعة في لغات غربية منذ العهد البيزنطي حتى عصره . وجدير بالذكر أن المستشرق الكبير (ادوار بو كوك) قد تتلمذ عليه .

ومن اللامعين (إدموند كاستل) — Edmund Castell — الذي عاش بين عامي ١٦٠٦ و ١٦٨٥ وهو من الاساتذة الاوائل الذين درّسوا العربية في جامعة (كمبرج) ، وحاز على شهرة بمعجم اللغات السامية المنشور في عام ١٦٦٩ بعد أن أنفق (١٨) عاماً في انجازه ، ونظراً لأهميته ، أعيد طبعه مرات ليس في انكلترا فحسب ، بل في أوربا كذلك . ومن أعماله أيضاً رسالة في قيمة الدراسات العربية وتعليق على ابن سينا ، ومجلد ضم اشعاراً عربية نظمها بنفسه .

أما فارس ميدان المتضلعين في العربية في القرن السابع عشر ، فقد كان (ادوار بو كوك) — Edward Pococke — الذي عاش الفترة ١٦٠٤ — ١٦٩١ ، وهو أول من درّس العربية في جامعة (اكسفورد) . لقد تتلمذ هذا المستشرق على يـد (وليم بدول) الذي سلف ذكره ، وعلى يد (ماثيو باسور) الذي نزح من ألمانيا . لكن مكوثه في حلب من ١٦٣٠ الى ١٦٣٥ أهله لأن يلك

ناصية اللغة العربية انشاء ونطقاً ، وخلال هذه الفترة عقد أواصر الصداقة مع حلبيين عديدين ، أبرزهم معلمه العلامة الشيخ فتح الله الذي لبث على صداقته مدى الحياة ، ولما آب (بوكوك) الى بلاده – تصاحبه طائفة ثمينة من المخطوطات العربية – أسندت اليه استاذية اللغة العربية في (اكسفورد) حيث حاضر عن أدبها ونحوها .

لكنه زار الشرق ثانية ، وكان رفيقه هذه المرة الرياضي الانكليزي (جون غريفز) – John Greaves – وآب الى (أكسفورد) عام ١٦٤١ ، فكرس أوقاته للمنجزات العلمية هناك في ظل شجرة التين المشهورة التي جلبها من سورية، ومابرحت أقدم شجرة من صنفها في انكلترة .

يتمتع (بوكوك) بمكانة عظيمة بين المستعربين . إذ كانت لمؤلفاته أهمية كبيرة آنذاك فتطارقت اليه الوسائل من الغرب والشرق ، ناشدة العون والتوجيه منه ، وأقبل طلبة العلم على (اكسفورد) من ارجاء نائية كرومانيا مثلاً ليتلقنوا اللغة العربية على يديه . وهو كمستعرب اوربي لايضاهيه سوى (جوليوس) الهولندي أستاذ اللغة العربية في جامعة (ليدن) في عصره ، حتى ان (بوكوك) ذاته نعته بقوله : « لاند له ولا يشق له غبار في العلوم الشرقية » . ومن مؤلفاته : كتاب دعاه (نموذج من تاريخ العرب) واجتزأه من تاريخ أبي الفرج ابن العبري ثم أردفه بسلسلة دراسات عربية مستفيضة في التاريخ والعلوم والأدب والدين ولأهميته الاستشراقية ظل ردحاً مصدراً معتمداً هاماً واعيد طبعه في عام ١٨٠٦ في (أكسفورد) ، و (لامية العجم) للطغرائي المزودة بتفاسير وافية وقد طبعت عام ١٦٦١ ، و (مختصر تاريخ الدول) المشتمل على النص العربي الكامل لتاريخ ابن العبري . وقد خلف مؤلفات اخرى و (٤٢٠) مخطوطة هي الآن في حوزة مكتبة (بودلي) في (أكسفورد) .

ولما أطلّ القرن الثامن عشر ، أضحى في كل من جامعتي (اكسفورد) و (كمبرج) كرسيّان لأستاذية اللغة العربية . فبرزت اسماء عديدة لامعة لأساتذة وباحثين . لكنّ اشهر مستعربي هذا القرن من الانكليز أربعة ، نظراً لما لمؤلفاتهم من أهمية خاصة ، إذ كوّنت شطراً أساسياً من الثقافة الإنكليزية التي تركت أثراً عميقاً في الأدب الانكليزي عموماً ، وهم : (سيمون اوكلي) و (جورج سيل) و (وليم جونز) و (بور كهارت) .

فالأول (اوكلي) — Simon Ockley — الذي عاش الفترة ١٦٧٨ — ١٧٢٠ ، المتلمذ على العلاّمة (بوكوك) السالف الذكر ، أفلك في شغفه بالعلوم العربية الى مدى اوصله الى الإدقاع . وقد اصاب شهرة بمؤلفه الانكليزي في ثلاثة مجلدات (تاريخ الاسلام الثقافي والسياسي) لانه اول محاولة اتيح فيها للقارىء الانكليزي بشكل سلس مفهوم، الوقوف على رفعة شأن المدنية العربية سالفاً ، حتى أن المؤرخ العظيم (جيبون) عده مرجعاً من المراجع التي ركن اليها.

والثاني (سيل) — George Sale — الذي عاش الفترة ١٦٩٧ - ١٧٣٦ ، وبلغ من اهتمامه بالاسلام شوطاً حدا بالمؤرخ (جيبون) ان ينعته بنصف مسلم . وقد نال شهرة واسعة بفضل ترجمته القرآن الى الانكليزية التي نشرت اولاً عام ١٩٣٤ ، فكانت اول ترجمة غربية ناجزة . ويكفيه فخراً ان الخبراء المعاصرين ما عتموا يعتبرون ترجمته الفضلى ، فهي لذلك شائعة الاستعمال ، وطبعت مراراً ، واعتمدتها النقول الفرنسية والألمانية والبولندية ، وبلغ نطاق تداولها الواسع في اوربا سابقاً حداً دعا فولتير ان يذكرها في مؤلفه (القاموس الفلسفي) . فضلاً عن ذلك ، اسهم (سيل) في تأليف دائرة المعارف ، فحرر كل البحوث المتعلقة بالعرب .

والثالث (جونز) — Sir William Jones — المتميز بدراساته الهندية الواسعة حتى عده العارفون أبا الدراسات الهندية في اوربا . لذا فشهرته كمستعرب تتضاءل إزاء دراساته الهندية . لقد درس العربية والفارسية قبل السنسكريتية ، والارجح ان اهتمامه بالعربية والاسلام حمله على الرحلة الى الهند . ومن ابرز اعماله نقله المعلقات السبع من العربية الى الانكليزية ، ونشر بعض المؤلفات في الشرع الاسلامي .

والرابع (بور كهارت) — J. L. Burckhardt — الذي عاش الفترة ١٧٨٤ — ١٨١٧ ، وهو جوّاب ، سويسري النجار ، لكنه اكتسب ثقافة وجنسية انكليزيتين . فقصد حلب ولزبها ردحاً حتى ملك زمام العربية ، وانفق غالب سنيه في التجوال بين سورية ومصر والجزيرة العربية حيث زار مكة المكرمة . وصيته البعيد يعود الى مؤلفاته التي سجلت رحلاته في الشرق الادنى ، منها كتاب (الرحلات النوبية) . وهو من السابقين الذين كتبوا عن العرب القاطنين شمالي السودان وعن الوهابيين في كتابه (البدو والوهابيون) معتمداً إختياره الذاتي بصدد تلك الحركة التي بلغت عنفوانها آنذاك ، فسردها بدقة وتفصيل . كما نشر مجموعة ضخمة من الامثال العربية ، التقطها اثناء رحلاته ، مع ترجمتها وشرحها بالانكليزية . فلاقت إقبالاً كبيراً عليها ، وترجمت الى لغات اوربية .

وعندما شارف القرن الثامن عشر على الانسلاخ ، اشتد اهتمام الغرب بآثار الحضارة الشرقية بفضل تكامل الجهود التي بذلها المستشرقون السالفون ، فبات الادب العربي في خاتمة هذا القرن من الاهتمامات المألوفة لدى معظم ادباء الانكليز ، ناهيك عن ادباء الغرب الآخرين كغوته وأنداده المستشرقين الالمان والهولنديين والفرنسيين وعداهم . قال المستشرق (جب) في ترجمة حكايات (الف ليلة وليلة) الى اللغات

الغربية ، التي ظهرت في مطلع هذا القرن ، وفي تسمية القصص والحكايات والروايات الغربية بأسماء شرقية جلية : « اسمع العرب اوروبا حكايات السندباد البحري وما اليها ، فكانت خميرة للادب الخيالي الاوربي الجديد الذي زحزح الادب التقليدي ، وحل محله ، فنشأت في اوربا الروايات الرومنتية » . كما قال في صدد النثر العربي إنه « اخرج نثر اوربا في القرون الوسطى من جموده وصرامته التقليديين بما منحه من خياله الذي يشبع الحواس » . وقال في معرض الشعر : « إن الشعر الافرنسي والايطالي متأثر بالشعر العربي الاندلسي ، وإن غوته متأثر بالادب الشرقي » . [1]

ولا يغربن عن البال حملة فرنسا على مصر بقيادة نابليون ، ثم ظهور مصر كدولة قوية في عهد محمد علي الكبير ، فهذان عاملان قويان اديا الى احتكاك مباشر بين الشرق والغرب ، نجم عنه مزيد من الإقبال على الدراسات العربية خصوصاً والشرقية عموماً . بيد أنه لا اخالني مجانفاً الحقيقة إن أبديت ان الاستشراق في القرن التاسع عشر تأثر بالنزعة الاستعمارية وبالتنافس السياسي العنيف الذي ظهر بين الامبراطوريتين فرنسا وانكلترا ، وبمطامع الغرب التوسعية بعد أن اعترى الوهن جسم الامبراطورية العثمانية ، فأطلق عليها قيصر روسيا نقولا الأول لقب (الرجل المريض) . لذلك لم يعد الاستشراق في نظر حكومات الدول الاستعمارية ، ونظر بعض المستشرقين بالذات ، نزعة علمية خاصة ، كما كان في القرون الأربعة السالفة ؛ بل شابته بعض النزعات المريبة والمطامع التوسعية من لدن حكومات الدول المعنية ، فحرفت بعض المستشرقين وطلاب الاستشراق

---

(١) مارون عبود – في المختبر ص ٢٢ و ٢٣ .

عن السبيل السوي والغرض العلمي النزيه ، ومن هؤلاء (ريتشارد برتون) الذي حجّ الى مكة المكرمة متنكراً ، والذي سيلي الحديث عنه.

كان في طليعة الاستشراق الأوربي الجديد طلبة العلم الفرنسيين برفقة نابليون ، فدرب سلفستر دي ساسي (Silvestre De Sacy) ــ أعظم المستعربين الفرنسيين ــ جيلاً كاملاً من الطلبة من مختلف الجنسيات . كما ظهر في انكلترا رهط جديد من المستعربين واستحدث منصب للأستاذية العربية في جامعة لندن المؤسسة حديثاً . علاوة على ذلك ، كان لتأسيس الجمعية الآسيوية الملكية ــ التي ضمت المستشرقين الانكليز ــ حافز جديد على اقتباس العلوم الشرقية . كما ان الطلبة الانكليز الذين كانوا يدرسون لغات ملكي الهند ، ألفوا ان بحوثهم وتحرياتهم قدحتمت عليهم اتقان اللغة العربية باعتبارها أساس الثقافة الاسلامية .

بيد ان من حسنات الاستشراق والاستعراب في هذا القرن ان مؤلفات المستشرقين والمستعربين كانت معيناً سخياً للعلوم والمعارف ، منها نهلت طلائع النهضة العربية وطلاب العلم العرب في منتصف القرن التاسع عشر غب بزوغ فجر النهضة على الوطن العربي ، ونشوء الحركة القومية في النصف الأخير من هذا القرن ومستهل القرن العشرين ، لعدم تيسر الكتب باللغة العربية ، وانعدام المطابع . وبذا أدى المستشرقون والمستعربون بعض دينهم للعرب الذين صانوا للعالم المتمدين تراثهم وتراث الاغريق .

من المستشرقين اللامعين في هذا العصر (هندلي) الضليع بالفارسية والعربية ، والمشهور ببحثه عن أبي الطيب المتنبي وتاريخ حياته بالانكليزية . ثم (لمسدن) استاذ العربية والفارسية في كلية (فورت وليم) بالهند ، ومؤلف كتاب نحو عربي ، شاع استعماله في الغرب والهند . أما (لين) ــ Edward W. Lane ــ



المستشرق لين (منصور افندي) E. W. Lane

الذي عاش الفترة ١٨٠١ – ١٨٧٦ فيعتبر أشهر المستشرقين الانكليز قاطبة في هذا القرن . فشغفه بالدراسات الشرقية – لاسيا المصرية – قد دفعه نحو الابحار الى الاسكندرية عام ١٨٢٥ ، واوشك على الهلاك غرقاً بفعل أعاصير عاتية ، لكنه تدارك الأمر بنفسه بأن قبض على سكان السفينة رغم جهله بادارتها ، غيران إلمامه بالرياضيات نجاه . لكنه زار مصر ثانية عام ١٨٣٣ وأقام بها عامين ، حيث كرس اهتمامه لدرس الحياة القاهرية عن كثب ، حتى انه تزيا بلبوس المصريين ، وحصر اختلاطه بـ مسلميهم فحسب ، وعرف بين اصدقائه منهم بمنصور أفندي .

أما الشهرة الواسعة التي أصاب ، فتؤول الى كتابه (أخلاق وعادات المصريين الحديثين) في مجلدين ، المنشور سنة ١٨٣٦ ، فنفدت نسخه خـــلال اسبوعين لاشتماله على وصف مسهب دقيق لحياة القاهريين وعاداتهم حينذاك ، وما برح مرجعاً هاماً للمعنيين. وبعدذلك ، انصرف الى نقل (ألف ليلة وليلة) الى الانكليزية رغم كونه من غير السابقين في هذه الحلبة ، لكنه آثر نقلها مع الاحتفاظ بمعنى الأصل العربي وروحه ومحيطه ، وزودها بشروح وتفاسير مسهبة عن التقاليد الاسلامية في القرون الوسيطة ، ثم طبعت هذه التفاسير والشروح في مجلد مستقل اسمه (الحياة العربية في القرون الوسطى) . ومعجم (لين) العربي ـ الانكليزي جليل النفع رغم كونه غير ناجز بسبب وفاته ، لكن المجلدات التي نشرت منه بعدئذ ، أسدت نفعاً قيماً في حقل الاستشراق .

يليه المستشرق (ادوار بالمر E. H. Palmer) الذي عاش الاعوام ١٨٤٠ — ١٨٨٢ والذي عرف في الشرق بالشيخ عبد الله . لقد أثار رغبة (بالمر) في تعلم العربية والفارسية والأردية استاذ هندي يدعى عبد الله المحاضر آنذاك في اللغة الهندستانية بجامعة (كمبرج) . كانت لغة العرب احب اللغات الى نفسه ، فنقل اليها طائفة من اشعار الانكليز ، وقرض الشعر بالعربية كما قرضه بالفارسية . والغريب في هذا الرجل انه كثيراً ما عبر بالعربية عن مكنون افكاره ومشاعره في صلب رسائله الانكليزية التي خاطب بها بعض الملمين بالعربية ، نظير بيتيه التاليين :

ليت شعري هل كفى ماقد جرى ۔۔۔ مذ جرى ماقد كفى من مقلتيّ
قـــد برى أعظم حزنٍ أعظمي ۔۔۔ وفنى جسمي حاشـــا أصغريّ

ومن ابرز مؤلفاته سفر حوى شعر البهاء زهير مع ترجمة شعرية انكليزية ،

وكتاب في قواعد اللغة العربية على غرار الطريقة التقليدية التي انتهجها النحويون العرب ، ومجلد عن هارون الرشيد بأسلوب رشيق ممتع . ومن مغامراته الجريئة ، اختراقه شبه جزيرة سينا على صهوة جواد ، حيث مات في التيه .



المستشرق بالمر (الشيخ عبدالله) E. H. Palmer

وبين اللامعين (السير وليم مور Sir William Muir) الاسكتلندي الارومة والذي عاش بين عامي ١٨١٩ و ١٩٠٥ ، ويمتاز هذا المستشرق بخلو

مؤلفاته من التعصب ، وابرزها كتاب في سيرة الرسول العربي وآخر في التاريخ الاسلامي وآخر في تاريخ الخلافة المعتمد على المصادر العربية . واعماله المذكورة مابرحت حتى اليوم من المراجع الهامة التي يركن اليها في الجامعات الانكليزية والهندية .

لقد ذكر الدكتور (برنارد لويس) بصراحة تامة [1] ان المستشرقين الذين سلف ذكرهم قد عنوا بالدراسات العربية لغرض علمي صرف ، لكن نفراً من المستشرقين اللاحقين ـ الذين سأستعرض اعمال بعضهم ـ قد حدت باهتمامهم باللغة العربية وبأحوال بلاد العرب ، بواعث غير علمية بحتة بل مشوبة بغايات اخرى ، وهذه اشارة خفية نوعاً ما الى الحوافز السياسية او التوسعية الانكليزية التي أثرت على أذهان بعض المستشرقين والمستعربين ، فحرفتهم عن السبيل العلمي المجرد . وهذا يدعم رأيي الذي أسلفته .

فريتشارد برتون (Sir Richard Burton) أقام أعواماً عديدة في أحياء الهند الاسلامية إبان انخراطه في الخدمة العسكرية ، تفرغ خلالها الى الدراسات العربية والفارسية . وغب أوبته الى انكلترا ، نشر أربعة كتب عن الهند . وزار مصر عام ١٨٥٣ فاتجه من القاهرة الى السويس على بعير ، فأدركها بعد رحلة شاقة مفعمة بالحوادث ، ومنها أبحر بسفينة الحج الى (ينبع) واخترق الحجاز متنكراً شطر مكة والمدينة . ولما ألقى عصا التسيار مؤقتاً في انكلترا ، نشر ثلاثة مجلدات حوت وقائع رحلته الى الحجاز والعودة منها ، فراجت رواجاً كبيراً ، واعيد طبعها اكثر من مرة ، لأنها مافتئت من المراجع الهامة للراغبين في الوقوف على أحوال ذلك العهد . لقد كان قلقالاً وهو في اعتقادي يشبه الى حد

---

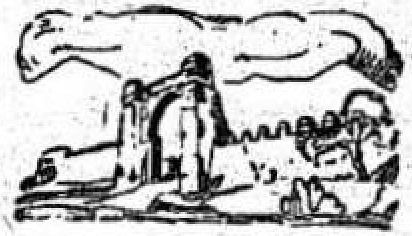
(١) British Contributores to Arabic Studies p. 26

بعيد (إدوار بالمر) الذي سلف الحديث عنه ، لكنه فاقه في نشاطات مريبة جريئة الفضول كرحلاته الاستكشافية في مجاهل افريقيا والحبشة متنكراً بزي تاجر عربي ، وفي اواسط افريقيا وغربها وفي الأمريكتين وعداها . ولما اندلعت حرب القرم عام ١٨٥٥ خاض غمارها ، وجاب أنحاء سورية مع قرينته ابان الفترة ١٨٦٩ - ١٨٧١ . وغب مرور ستة اعوام ، أم ارض الكنانة ومسح بعض الأراضي التي لم تمسح قبلا ، ومن مؤلفاته ترجمة (الف ليلة وليلة) المتميزة بطابقتها الأصل .

أما (ويلفرد بلنت) — W. S. Blunt — الذي عاش الفترة ١٨٤٠ — ١٩٢٢ واستهل حياته سياسياً ، فهو أفضل من سابقه ولاحقه لأنه يمتاز باهتمامه بأحوال الشعوب المستضعفة المضطهدة ، وبدفاعه عن حقوقها المهضومة في الحياة الكريمة المستقلة كالهند وإرلندا ومصر ، فنظراؤه في هذا المجال قلة . لقد طاف الشرق الأدنى والشمال الافريقي مع زوجه ، وأم نجداً عام ١٨٧٨ والحائل حيث أهداه الأمير جياداً عربية ويسر له الأوبة الى بغداد ، وإبان تجواله في الهند ومصر ، اتصل بالزعيمين جمال الدين الافغاني وعرابي باشا ، ولزب بالقاهرة منذ (١٨٧١) برفقة قرينته (آن) المستعربة والماهرة في ركوب الخيل والترحال . لقد نشر (بلنت) عدة مؤلفات بصدد القضية المصرية ، ونشرت قرينته كتباً عن العراق ونجد وترجمة إنكليزية للمعلقات السبع ، فنظمها هو شعراً فيما بعد .

والآخر (تشارلز داوتي) — Charles E. Doughty — الذي عاش بين ١٨٤٣ و ١٩٢٦ ، وشهرته تؤول الى جولته الاستطلاعية في أواسط شبه الجزيرة العربية دون أن يخفي حقيقة جنسيته ومذهبه ، والى كتابه عن هذه الرحلات المشتمل على معلومات جغرافية وجيولوجية مجهولة قبله ، وعلى ملاحظات حول العرب وحياتهم وأخلاقهم وتقاليدهم .

اما الاستشراق في القرن العشرين ، ففي العقدين الاولين منه ، لم ينخفض في المستوى عن ازهى ادواره في القرن التاسع عشر ، إذ أن أقساماً عربية عتيدة انشئت في جامعات اسكتلندة ومعظم جامعات انكلترا ، كما انشئت كلية جديدة في جامعة لندن مكرسة لتلقين اللغات الشرقية . وأعلام الاستشراق في هـذا القرن هم : (توماس أرنولد) المتوفى عام ١٩٣٠ والمشهور بكتاب (دعوة الاسلام) وكتاب (الخـلافة) ، و (لسترانغ) المتوفى عام ١٩٣٤ والمشهور بكتابي (بغداد ايام الخلافة العباسية) و (بلاد الخلافة التركية) ، و (مرجليوث) المتوفى في مطلع سني الحرب العالمية الثانية والمشهور بأستاذية اللغة العربية في (اكسفورد) وعضوية المجمع العلمي العربي في دمشق وترجمة (معجم الادباء) لياقوت الحموي و (رسائل أبي العلاء المعري) و (احاديث التنوخي) . وعلاوة على ما اسلفت ، فثمة ثلاثة مستشرقين هم : نيكلسون (Nicholson) وجب (Gipp) وستوري (Storey) ، قال عنهم الدكتور (برنارد لويس) إن الحكم عليهم من حق الاجيال القادمة .





الفنون

الكتاب والموضوعات

الهيكسوس

ماذا نعرف عنهم في وقتنا الحاضر

بول بالتا P. Balta
ترجمة عدنان البني

إن الهيكسوس ، تلك الجماعات المحاربة التي احتلت مصر قرناً ونصف ، بين القرنين الثامن عشر والسادس عشر قبل الميلاد، مايزالون منذ زمن طويل لغزاً من الألغاز المحيّرة . فمن هم أولئك الهيكسوس ؟ ومن أين قدموا ؟

سجل الهيكسوس التاريخي محشو بالمعلومات المتناقضة أحياناً كما أنه ، من ناحية ثانية ، مليء بالثغرات . ومع ذلك ـ ففي السنين العشرين الأخيرة ـ خطا التحقيق المنهجي الذي يقوم به البحاثة في مختلف البلدان عن الهيكسوس خطوات كبرى الى الامام ، وذلك بفضل اعمـــال التنقيب في سورية وفلسطين التي أكملت بشكل مفيد جداً أعمال التنقيب في وادي النيل . فمن الضروري اذن أن نبين الى أي حد وصل ذلك التحقيق .

وفي تاريخ مصر القديم ثغرات تختلف سعة وضيقاً بين عهد وآخر . ولكن في العهد الذي نحن بصدده لانجد عمليـــاً إلا الفراغ . وتكتفي أكثر المراجع بالاشارة الى الهيكسوس بشكل غامض . حتى أننا نسمع هذا اللفظ الرنان دون ان ندرك تماماً أية مفاهيم يتضمنها . وبصورة عامة إن مرور هذا الشعب في التاريخ يتلخص في مرحلتين : اجتياح الهيكسوس لمصر عام ١٧٢٠ ق . م . طرد الهيكسوس من مصر عام ١٥٦٠ ق . م .

في الحقيقة ، ان الأوابد واللوائح الملكية التي مكنت علماء المصريات من انشاء ثبت السلالات المصرية ليس فيها مايساعدنا على معرفة فترة الهيكسوس ، اذ أن اكثر اللوائح تستبعد السلالات بين السلالتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة . أما « برديات تورينو » ، تلك الوثيقة الوحيدة التي تنفرد باعطائنا الثبت الكامل للسلالات المصرية ، فقد تفتتت خلال نقلها من مصر واصبحت تتخللها الثغرات التي لايمكن سدها ابداً . كما جهدت الصدفة ، على مايظهر ، في أن تجعل مهمتنا شاقة ، فالملوك الهيكسوس ورد ذكرهم في الأجزاء التالفة من هذه البرديات . وفضلاً عن ذلك ليس هناك معبد أو آبدة أو منحوتة تشهد بيقين على وجود الهيكسوس ، على

الرغم من وفرة الآثار التي تم العثور عليها في مصر العليا ، اذ أن المصريين كانوا قد جهدوا في استقصاء آثارهم ومحوها .

وعند هذا الحد نتساءل عما هو بين أيدينا من آثار الهيكسوس ؟ هناك بضعة نصوص ولقى كشفت عنها التنقيبات توقفنا على أشياء كثيرة ، ولكنها تبقى صامتة صمتاً يبعث على اليأس فيما يتعلق بأصل هذا الشعب الذي يكتنفه الغموض.

ان لفظ هيكسوس (وأصله في المصرية « هيكاشيساوت » ويعني سادة البلاد الأجنبية) لم يستخدم أبداً في العهد الذي نحن بصـــدده للدلالة على مجموع الغزاة . والمصريون الذين كانوا يعرفون جيرانهم وأعداءهم معرفة جيدة جداً وتركوا لنا عنهم صوراً مدهشة في دقتها ، كان لديهم عدد كبير من المصطلحات للدلالة على اولئك الجيران والأعداء . كانوا مثلا يستعملون كلمة «سيتيو» للدلالة على (الآسيويين) و« آمو » عندهم لفظة تدل على (جماعة من البداة الساميين الذين تحضروا وتوطنوا في لبنان) و « منتيو » تطلق على (بداة سيناء) وهناك «منتيو آسيا » ويعنون بها (السوريين) ، ولكنهم لم يستعملوا ابداً كلمة هيكسوس . ومع ذلك ثمة نصوص من مصر العليا تطلق على فرعونين من الهيكسوس لقب « هيكاشيساوت » . وأول من استعمل كلمة « هيكسوس » كمصطلح جنسي هو مانيتون ، المؤرخ والكاهن المصري الذي عاش في عهد البطالمة ، وقد كان بحكم منصبه يستطيع الاطلاع على محفوظات بلاده . ومع ذلك فهو لا يتعدى كونه شاهداً متأخراً . فضلاً عن ان أياً من نصوصه لم يصلنا مباشرة . ورغم هذه التحفظات فان مانيتون مايزال بالنسبة لنا مرجعاً ثميناً كما يظهر من خـــلال المعلقين عليه كالمؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس (واسمه الحقيقي يوسف بن متّى) المولود في القدس عام ٣٧ ميلادي والمتوفى عام ٩٥ ميلادي .

ويوسيفوس في مؤلفه المعروف « ضد آبيون » . . يستشهد بمانيتون مطولا ، ولكن يوسيفوس بدوره شاهد متأخر ومغرض. وبما ان معاصريه كانوا يبدون احتقاراً لليهود ويرفضون دعوى قدمهم وبالتالي دعوى عراقتهم ، فقد جهد يوسيفوس في تأييد اصول شعبه بالاستناد الى الاحكام التي قبلها اليونان ،وللوصول الى هذا الهدف حاول ان يبرهن على ان اليهود والهيكسوس ليسوا سوى شعب كان قد غادر مصر – الخروج في التوراة – قبل حرب طروادة بألف سنة .

وقد ذكر يوسيفوس بالاستناد الى مانيتون في الحديث عن الهيكسوس « ان عرقهم كان يحمل الاسم الجنسي هيكسوس الذي يعني الملوك الرعاة لأن هيك في اللغة المقدسة تعني ملك و سوس في اللغة الشعبية معناها راع » الا ان يوسيفوس يضيف: « ومع ذلك فقد ورد في نسخة اخرى ان هيكسوس لا تعني ملكا بل على العكس انها تدل على رعاة أسرى » . ثم يضيف قائلا « ووجهة النظر هذه تبدو لي معقولة اكثر وتنطبق على التاريخ » .

وجود الهيكسوس عبر سورية وفلسطين

لقد أدان علماء المصريات ذلك الاشتقاق المغلوط ، وبرهنوا على ان كلمة هيكسوس انما جاءت في الحقيقة من « هيكاشيساوت » . الأمر الذي لم يحل دون ان يذهب أكثر العلماء وحتى وقت قريب جداً ، بتأثير التعليل المغري والمشبوه الذي قدمه المؤرخ يوسيفوس ، الى القول بأن الهيكسوس كانوا رعاة والبطارقة كذلك وان الهيكسوس طردوا طرداً جماعياً من مصر والتجأوا الى فلسطين وكذلك العبرانيون . فالهيكسوس والعبرانيون هم شيء واحد إذن !

ولكن التقدم الذي حققه علما التاريخ والآثار جعل بالإمكان البرهنة على خطل هذه النظرية . ومع ذلك فما زال هناك علماء بالمصريات يعتقدون بأن الهيكسوس إن لم يكونوا عبرانيين فهم على الاقل من أسرة الساميين وسنعود لهذا الامر فيما بعد .

وبغية الانتهاء من الوثائق المكتوبة ، لا بد ان نشير الى وجود بعض النصوص المصرية وهي «بردية ساليه» (سيرتان ذاتيتان لجنديين حاربا الهيكسوس) و « رقيم كارنافون » (المسمى باسم اللورد الانكليزي الذي اكتشفه في مصر العليا عام ١٩١٠) وأخيراً نصب تاريخي اكتشف في الكرنك عام ١٩٥٤ . إن هذه النصوص التي تتحدث عن طرد الهيكسوس ثمينة ولكنها متحيزة ايضاً لأن المصريين يتحدثون بايجاز عن خصومهم بينما يسهبون عندما تكون الاحداث في صالحهم .

وقد جعلتنا الاكتشافات الاثرية التي تمت في نصف القرن الاخير نعيد النظر في بعض آرائنا عن دور الساميين وأن ننصف الحضارات الشرقية غير السامية كالحثيين الذين كان دورهم هاماً .

حدثت الهجرات الآسيوية الكبرى دورياً اعتباراً من مستهل عهد السلالة الثينية القديمة (٣٣١٥ — ٢٨٩٥ ق.م) مما اضطر مصر ، خلال تاريخها كله ، للدفاع عن « بابها الشرقي » في وجه تسرب الجماعات الآسيوية التي كانت تتلقى مرة بعد مرة ضغط الأموريين والغوتيين واللاوين والحثيين والكاشيين . وتتجه التنقيبات الاثرية الى اثبات أن غزو الهيكسوس لمصر مرتبط بحركة الهجرة هذه ، علماً بأن ألغازاً كثيرة ما تزال تكتنف هذا الامر ايضاً .

والآثار المكتشفة – بخلاف النصوص – يمكن ان تعتبر شواهد غير متحيزة . ومع ذلك فان الانسب ان نلاحظ فرقاً بسيطاً في هذا المجال، فثمة عهد او ملك ينسب لنفسه آثار عهد سابق ويجهد في طمس آثار خصم او منافس . وبالمقابل فان الفخار والاشياء ذات الاستعمال العادي هي شواهد صحيحة لا تكذب إلا انها تحتاج لتأريخ وشرح .



أشكال جديدة أحدثها الهيكسوس في صناعة الخزف والفخار

واليك صورة ممتازة عما ذكرنا . فالنصوص جميعها متفقة في القول بأن افاريس مدينة الرب – سيت – كانت عاصمة الهيكسوس . وقد جهد الباحثون عبثاً للعثور على تلك المدينة ، الى ان سوّى عالم المصريات بيير مونتيه هذه المعضلة بثاقب بصره حيث قال إن أفاريس التي تحفل بذكرها النصوص لا نقع لها على أثر بينما تانيس (وهي اغنى المدن المعروفة بآثار لها علاقة بالرب سيت) لم يرد لها ذكر قبل السلالة الحادية عشرة . وقد اوضح مونتيه ان ثمة مدينتين ، مدينة لها

أسم ولا مكان لها واخرى دون اسم ولكن نرى خرائبها ونلمسها . وعلى هـــذا يجب اعتبارهما مدينة واحدة والاستنتاج بالتالي بأن أفاريس هو الاسم القديم لمدينة تانيس ذلك الاسم الذي سعى اعداء الرب سيت لطمسه .



الرب سيت

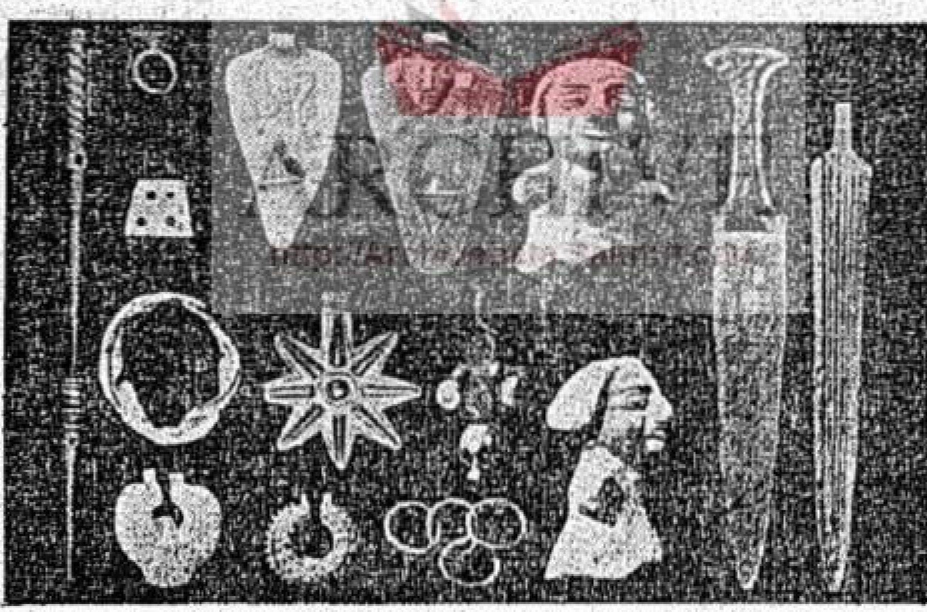
وما تزال مصر حتى الآن ضنينة علينا الا بالقليل عن الهيكسوس بالقياس لما كنا نتوقعه منها . وبالمقابل فان اعمال التنقيب كانت من ناحيتهم مثمرة في سورية وفلسطين وخاصة في غزة التي ظلت مدة طويلة وقفاً على الأثري البريطاني السير فلندرز بيتري .

وثمة أثري آخر هو سافيه ـ سودربرغ قد انشأ ثبتاً يضم خمسة وعشرين موقعاً من مواقع الهيكسوس تؤلف سلسلة تبدأ في سيار و كركميش وتمر برأس الشمرة وخان شيخون وتل ماسين وتل سفينة نوح وقطنا (المشرفة في سورية) وتل التين وقادش وتل القاضي ، وحازور ، وتل كيسان ومجدو وتل تعنك والجليل وأريحا وتل الجريشة وعسقلان وتل الدوير وتل بيت مرسم وتل الحسي وتل العجول (غزة القديمة) وتل الفارة ، وبعد مرورها بسورية وفلسطين تنتهي السلسلة في مصر بتل اليهودية وهليو بوليس .

على طول هذه الطريق اكتشفت معسكرات الهيكسوس خاصة في

المشرفة (قطنا) ولاكيش وتل العجول (غزة) وتل اليهودية الخ . وكل من هذه المعسكرات شكله مربع أومستطيل محصن بسور منحدر الجدران بميل حوالي أربعين درجة .

وان دراسة عمارة هذه المعسكرات تفرض الاستنتاجات التاليـــة : ١ ـ ان المشاة ما كانوا يقومون الا بدور ثانوي وتابع ، ٢ ـ كان الدفاع يعتمد على النبالة بدلالة الأسوار المنحدرة (الأمر الذي تؤيده رؤوس السهام التي عثر عليها في القبور) ، ٣ ـ ان مدخل المعسكر مشيد بشكل منحدر وفي ذلك دلالة على أنه أعد خصيصاً للعربات والخيول ، ٤ ـ ان الترتيب العام للمعسكر هو ترتيب خاص بشعب معتاد على المسافات الشاسعة (قزوين ؟السهوب؟)



نماذج من صناعة الحلي والأسلحة لدى الهيكسوس مع نموذج لشخص هيكسوس اكتشفه العالم الأثري فلندرز بيتري

واذا كان الهيكسوس معدّنين ممتازين ـ ادخلوا البرونز الى مصر ـ فانهم كانوا ايضاً صياغاً مهرة ، فقد كشفت التنقيبات في مدائنهم كلها حلياً على

جانب كبير من الجمال منها النجوم والرصائع والأقراط والدبابيس وهي منزلة بالحجارة الكريمة فضلاً عن الأساور والأطواق الخ . ولكن الأثر الأوثق ارتباطاً بوجود الهيكسوس هو الجعران . فلم نعهد أن تزودنا مصر وسورية وفلسطين قبل هذا العهد اوبعده بمثل هذه الكمية الضخمة من الجعرانات . لقد كانت من الوفرة بحيث تطرق الشك الى صحتها . ولكن كان لابد من العودة الى الاعتقاد



نماذج من جعرانات الهيكسوس

بأن الهيكسوس استعملوا الجعرانات بافراط . وكانت هذه الجعرانات ، بالنسبة لحكام المقاطعات والارستقراطية المحاربة التي تستخدمها كأختام ، رمزاً للسلطة التي قلدهم اياها الملوك الهيكسوس الذين يديرون امبراطوريتهم من أفاريس . ولكن هذه الجعرانات كانت تستعمل ايضاً كحلي اذا مانزلت في الخواتم أو كتمائم .

سلاح متفوق على اسلحة المصريين

هذه الجعرانات كلها توجد بينها صفات تميزها عما عرفنا من جعرانات في العهود السابقة واللاحقة . وقد توصل فلندرز بيتري الى تصنيفها الى فئات وفترات . الأمر الذي مكنه من اجراء تصنيف لملوك الهيكسوس أكمل من التصنيف الذي تركه لنا مانيتون .

وفي ختام هذه البراهين التي يمكن اعتبارها قاطعة ، نود أن نقول بضع كلمات عما استحدثه الهيكسوس . ان مستحدثات الهيكسوس هي من حيث الأساس حربية كالحصان والعربة والقوس المركب والسهام ذات الرؤوس البرونزية وكذلك البلطة البرونزية والخنجر والسيف المقوس والخوذة والترس الصغير . وهذا السلاح متفوق على سلاح المصريين الذي كان مستصنعاً من النحاس والسيف من الخشب والقوس بسيطة . والجندي من المشاة يحتمي بدرقة ضخمة مربكة .

اما مستحدثات الهيكسوس في المجال السلمي فهي أقل شأناً ولكن لايستهان بها . والمؤرخ فيليب حتي يجمل هذه المستحدثات السلمية على الشكل التالي : « تطور التعدين في عهدهم تطوراً كبيراً في سورية ومصر ، فصناعات الحلي والفايانس والعاج خطت خطوات الى الامام وكذلك المنقوشات الحجرية والغلبتيك » . واذا كان النقش على العظام موجوداً في سورية منذ العصر الحجري فان التنزيل والتطعيم ظهر في هذا العهد . وأول نماذج التنزيل كانت عبارة عن رسوم بسيطة تتألف من خطوط ودوائر (ولكن سرعان ماظهرت رسوم الطيور المتقابلة) . ان التنزيل والتطعيم بالعظم والعاج في زخرفة العلب الخشبية والأثاث ظل مفخرة من مفاخر دمشق منذ ذلك العهد . وقد ظهرت مفاهيم جديدة في نطاق صناعة الفخار بظهور الهيكسوس . ثم إن صناعة الخزف ـ وهي من أكثر الصناعات ازدهاراً في فلسطين ـ بلغت اوجها في نهاية تلك الفترة . »

وفي عهد ملك الهيكسوس أوسيرا آبوبي نسخت مقالة في الرياضيات تعرف باسم « بردية رند » ونلاحظ ان هذه المقالة هي اطول واكمل المقالات الرياضية السبع التي نملكها . ونجد فيها علاوة على ذلك طابعاً نظرياً لانجده

في المقالات الاخرى ، فمؤلفها لايكتفي باعطاء الحلول بل يحاول ان يوضح كيف توصل لهذه الحلول ، ويخلص الى ذكر عبارة تعادل مانستعمله اليوم حيث نقول « وهذا مايجب البرهان عليه » . وفي مثل هذه الشروط يصح ان نتساءل فيما إذا كانت هذه البردية تتضمن جانباً مبتكراً اضافه المؤلف الى المعطيات القديمة .

وأخيراً لقد تأثرت اللغة المصرية تأثراً عميقاً بمجيء الهيكسوس ، إذ ان اللغة المستعملة في نهاية عهدهم وبعد طردهم تدل على زوال المجتمع القديم وظهور طبقات اجتماعية جديدة .

ولايمكن للمرء الا ان تعتريه الدهشة من التكتم الذي يكتنف الهيكسوس في الوقت الذي يتضح لنا فيه اكثر فأكثر ان احتلالهم لم يقتصر على تغيير وجه مصر تغييراً عميقاً فحسب بل كان أيضاً الخميرة التي أدت الى نهضة مصر الجديدة ، أي مصر في عهد السلالة الثامنة عشرة التي تميزت بالاصلاح الديني الذي قام بـه اخناتون ، وفي عهد السلالة التاسعة عشرة الرعمسيسية التي أسسها رمسيس الأول سليل الملك سيت — أبيهي — نوبتي ، مؤسس أفاريس .

ان هذه السلالة التي هي من اكثر السلالات المصرية تألقاً ، ورمسيس واسطة عقدها ، لهي بمثابة ثأر الهيكسوس والرب سيت من أعدائهم . ولكن هذا الثأر أدى بدوره الى انتقام رهيب ، إذ ان كل مايذكّر بالرب سيت قد محي أو شوّه او طمس ، كما ان مدينته قد أزيلت تماماً ومن ثم شيدت حوالي عام ١١١٠ ق . م فوق خرائب مدينة أفاريس ومدينة بي — رمسيس (وهي مدينة رمسيس الثاني الفخمة) مدينة تانيس التي تناقلت اسمها الاجيال .

لقد نجح اعداء الهيكسوس والرب سيت في سعيهم الخبيث لطمس معالمهم فما نستطيع الا بشق الانفس وبكل تؤدة ان نصل لمعرفة الحقيقة عنهم . وفي

هذا المجال ما يزال عدد من النقاط غامضاً لم يحظ بجواب شاف او حاسم. ومن هذا القبيل مثلاً آثار تعرف بآثار الهيكسوس تضم مجموعتين من المنحوتات بالغتي الجمال منها « حاملو التقدمات » و « اسفنكسات سان » (من أفاريس – تانيس) . وثمة لغز آخر : هل تبنى الهيكسوس الرب المصري سيت كما يعتقد مونتيه ام كانت لهم شعائرهم الخاصة وربهم الخاص سوتيخ الذي امتزج بالرب سيت وهو يشبهه من وجوه عدة ؟

من أين أتى الهيكسوس

إن اهم لغز في معضلة الهيكسوس هو اصلهم . وإذا كنا قد جلونا حتى الآن عدداً من المسائل فما زال بالمقابل سؤالان لم يرد عليها جواب دقيق حتى الآن ، وهما من اين اتى الهيكسوس ؟ ومن هم اولئك الهيكسوس ؟

لقد لاحظ العالم ماريت انه في منطقة تل سان (الاسم الحالي لموقع أفاريس – تانيس) كان يعيش اناس وجوههم عريضة ممتلئة ووجناتهم بارزة وافواههم مقوسة تذكرنا بالسفنكسات سان التي لا تشبه ابداً من التماثيل الملكية العائدة للامبراطورية القديمة والمتوسطة سواء في ممفيس او طيبة . وقد ذهب مونتيه الى مثل هذا التأكيد ، فخلال دفاعه في مؤلفه « مأساة افاريس[1] » عن نظريته في اعتبار الهيكسوس من الساميين قال ما يلي : « كان ماريت إذن مصيباً ، فثمة قبيلة متميزة تماماً عن سكان وادي النيل توطنت في (مروج الريح) ، واستقرت بها حتى يومنا هذا . ولكن من اين اتت ؟ ومتى استقرت في مصر ؟ أهم عبدة الرب سيت ؟ ان هذه الاسئلة ما تزال تحيرنا » .

وعلى الرغم مما تقدم فان لدينا براهين محسوسة . فالهياكل العظمية تدلنا

(١) المكتبة الاستشراقية ، بول غوتنر ، باريس ١٩٤٠ – ١٩٤١

على ان الهيكسوس كانوا ذوي قامات قصيرة مثل «شعب الهون» - حسب تعبير فلندرز بيتري نفسه ، كما ان جماجمهم قصيرة . ثمة رأس منحوت اكتشفه فلندرز بيتري نفسه ومشهد صيد منقوش على خنجر مكتشف في موقع سقّارة ، وصورة أسير من الهيكسوس يقود محراثاً ، وكلها تنحو نفس المنحى ، وهي تقريباً الوثائق الوحيدة التي وصلتنا . ان كل الاشخاص في هذه القطع الثلاث المار ذكرها يختلفون اختلافاً بيناً عن المصريين فهم جميعاً ذوو رؤوس ضخمة وانوف صغيرة مثلثة ووجنات بارزة .

واذا كانت الدلائل العديدة (كمعسكرات الهيكسوس والعربة والحصان وصناعة البرونز الخ) تقودنا نحو السهوب فليس في استطاعتنا مع ذلك ان نحدد تماماً المكان الذي قدموا منه . وبالمقابل فان من المؤكد اننا لسنا في صدد شعب متجانس بل خليط مركب يضم ساميين وبصورة اخص آسيويين غير ساميين (كالحوريين والحثيين والميتانيين والحبيرو) .

ويمكن للمرء ان يفترض مبدئياً انه كان في نطاق الهجرة الآسيوية الكبرى ، التي استهلت في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، ارستقراطية محاربة تتألف من مجموعة أو قبيلة من الفاتحين متفوقة وقمينة بتوجيه الجموع البشرية ، كانت تتقدم ببطء من المناطق السهبية باتجاه مصر .

وكانت جذور هذه الارستقراطية تتعمق تدريجياً مع تقدمها حاملة مدنيتها الخاصة ومتمثلة المدنيات التي تجدها محلياً دون ان توقف سيرها الى الأمام ، وهي تجر معها مرتزقة ومغامرين محليين بل قبائل من البداة بأسرها يجذبهم جميعاً محاربون يشقون الطريق بعرباتهم وخيولهم وقسيّهم . ولا بد ان وصولهم لمصر قد احدث ، في قوات فرعون مستضعف على رأس مملكة مجزأة ، نفس الاثر الذي احدثه كورتيز وبيزارو اللذان استطاعا بالأسلحة النارية وبعدد من الخيول ان يحتلا العالم الجديد بشكل صاعق امام سكان دب في قلوبهم الرعب .

معرض الفن العربي

غازي الخالدي



(الموديل) لنذير نبعة – سورية

لاول مرة يتاح لنا رؤية نماذج مختلفة من اعمال الفنانين العرب من سورية العربية ، والبحرين ، والكويت ، والعراق ، والاردن ، والجمهورية العربية المتحدة ، ولبنان .

لوحات زيتية لفنانين معاصرين يعيشون في الوطن العربي ، قدمتهم احدى المؤسسات العالمية ، بقصد الدعاية لمنتجاتها .. ونحن هنا لا يهمنا اسم الشركة ولا المنتجات التي تقدمها .. بقدر مايهمنا العمل الفني العربي الذي قدم لنا من خلال هذا المعرض ، خاصة وانه فرصة طيبة للتعرف بالفن العربي الذي يطوف العالم في هذه الايام .

يحوي المعرض الذي أقيم في المتحف الوطني بدمشق (٥٦) لوحة فنية من مختلف الاتجاهات المعاصرة ، لـ (٥٦) فناناً وفنانة . وحتى تسهل دراسة هذه اللوحات يمكننا ان نقف لحظات عند كل دولة على حده :

الجمهورية العربية السورية

اشترك من سورية كل من : بدر الدين مولوي ، وفاتح المدرس ، وخزيمة علواني ، والياس زيات ، وممدوح قشلان ، ونصير شورى ، ومحمود حماد ، ونذير نبعه . وفاز بجائزة سورية ـ حسب اختيار لجنة خاصة شكلت لهذا الغرض ـ الفنان نذير نبعه بلوحته رقم (٤١) (الموديل) .

ست لوحات تجريدية ، ولوحتان واقعيتان ، وقد اعترف مدير صالة والكر آرت في ليفربول (هيو سكرتون) بانه من الصعب بمكان ان يقرر اية لوحة من لوحات مجموعة سورية هي الاحسن ، وقال : « ان عدداً كبيراً منهـــا يستحق الذكر . »

وبالفعل فقد استطاعت المجموعة السورية ان تقف الى جانب المجموعات العربية بتفوق واضح ، خاصة وان بعض الفنانين المشتركين في هذه المجموعة عرفوا بماضيهم العريق وتجاربهم العديدة في ميدان الفن التشكيلي ، ورغم ان

هذه المجموعة لاتمثل سورية تمام التمثيل لانها لم تشمل انتاج جميع الفنانين السوريين الا انها برزت بين المجموعات العربية لعدة اسباب :

اولاً : ان طابع البحث الجدي واضح تماماً في اكثر اللوحات : زيات ، حماد ، مدرس ، شورى ، نبعة .

ثانياً : ان الرؤية المعاصرة للاشكال وطريقة فهم المواضيع فهماً جديداً يتماشى مع روح العلم والتطور الحضاري الحديث ظهرت ايضاً في اعمال المجموعة السورية ، وخاصة لوحات زيات وحماد ونبعة .

ثالثاً : ان المجموعة السورية انطلقت من مفهومين اثنين : الفكر المجرد ، والواقع المطور ، فأخذ قشلان ونبعه موضوعاتهما من الواقع ، بينما أخذ الباقون مواضيعهم من قيم وافكار ورموز تجريدية معاصرة .

رابعاً : ان وحدة الشخصية العربية السورية تكاد ترى بوضوح من خلال الخيط الرفيع الذي يربط المفاهيم النظرية والتقنية عند الفنانين السوريين .

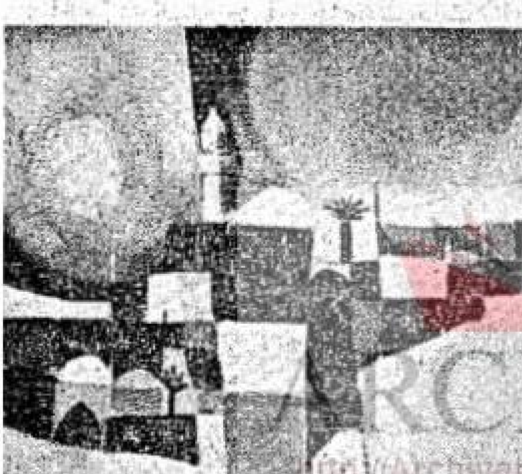
اما اللوحة الفائزة لنذير نبعة فقد اعتبرها (هيو سكرتون) اكمل المجموعة السورية ادراكاً ، وهي بسيطة جداً تمثل سيدة جالسة الى جانب قصرية من الزرع ، والبساطة ليست في الموضوع فحسب ، بل بالاسلوب التقني المعالج ، وباللون العنابي الموحد مما اعطى لهذه اللوحة طابع الشرق الدافيء ، فقد أوجد نذير من مجموعة معطيات شكلية بسيطة قيماً جمالية رائعة .

• لبنـــــان

لبنان لا يتمتع بشخصية واضحة في اعمال مجموعته حتى أنه يمكن القول تجاوزاً أن كل لوحة من اللوحات المعروضة يمكن أن ننسبها الى بلد عالمي بمعنى

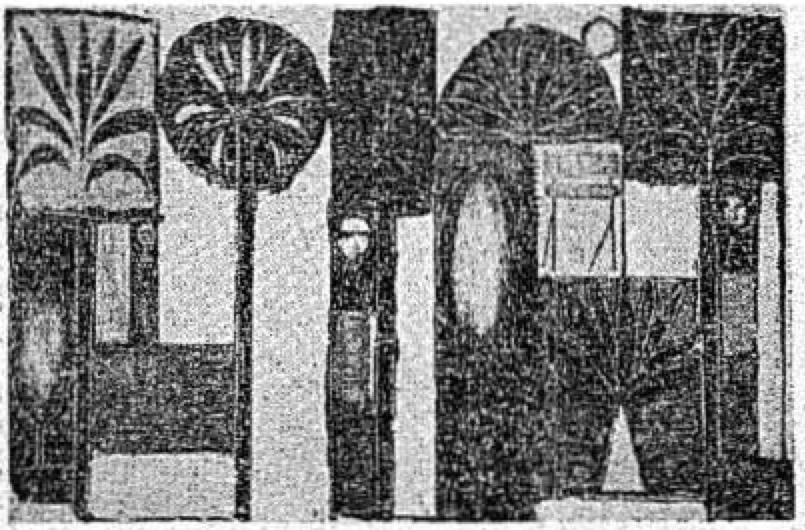
أن الفنان اللبناني لم يصل بعد الى جذور الحياة الطبيعية اللبنانية، باستثناء وجيه نحلة الذي قدم لوحة «لحن شرقي» وفيها محاولة للاستفادة من المعطيات الشكلية للحرف والكلمة العربية، ولعل مرد ذلك هو كثرة التيارات الفكرية والفنية التي يعيشها الفنان اللبناني في الوقت الحاضر، واستغراقه في التأمل في الفكر الغربي والحضارة الغربية، حتى أن اللوحة الفائزة من المجموعة اللبنانية لنادية صقيلي لا تعطي اكثر مما فيها من الوان؛ اي أنها لا توحي بأي بعد نفسي او فكري في اللوحـــة. ولعل الأغراق والغموض الذي اتبعته في طريقة الاداء هي التي جعلتها تفوز بين المجموعة اللبنانيـــة.

• الاردن



(القرية المصلوبة) لكمال بولاطة — الاردن

في الاردن، كما يبدو من المجموعة التي تعرضها، تطل تجارب متنوعة وتختلف اختلافاً كبيراً فيما بينها بما يؤكد حقيقة هامة بالنسبة للحركة الفنية هنالك، وهي أن طابع الرسم التوضيحي والفكر الاعلاني يؤثر على الفنانين الاردنيين ويجعلهم يعيشون في حدود ضيقة بعض الشيء بالنسبة للفن العالمي المعاصر. اما اللوحـــة الفائزة لأدبية معاذ، فهي ليست جديدة وينقصها التقنية كما قال رئيس لجنة التحكيم في هذا المعرض؛ لأن الطريقة التي نفذت بها لوحتها طريقة بدائية جداً وبرأيي أن لوحة كمال بولاطه رغم انها متأثرة بيول كليه فهي من أفضـــل لوحات المجموعة الاردنيـــة.



(منظر النخيل) للورنا سليم – العراق

• العراق

يمكن اعتبار العراق وسورية في المقدمة بالنسبة لهذا المعرض ، وتقسم المجموعة العراقية الى قسمين اساسيين قسم حافظ على روح البيئة العراقية واعطاها الطابع المحلي (لورنا سليم – ضياء العزاوي – فائق حسن – هاشم سمرجي) ، وقسم تجاوز حدود البيئة العراقية وتأثر بمدارس واتجاهات معاصرة في اسبانيا والمانيا وفرنسا مثل (سعاد العطار – وكاظم حيدر – وسعدي الكعبي) .

وهذا لايمنع من التأكيد على ان المجموعة العراقية مجموعة متفوقة بالفعل، وذات مستوى جيد بكل معنى الكلمة . اما اللوحة الفائزة من هذه المجموعة فهي (تكوين) لهاشم سمرجي . وقد تحمس لهذه اللوحة رئيس لجنة التحكيم تحمساً مبالغاً فيه ، فهذه اللوحة ليست جديدة على الاطلاق ، رغم الجرأة الكبيرة التي تبدو فيها لأول وهلة ، ومن المحتمل جداً ان تكون مستوحاة من لوحة لفنان الماني معاصر ومعروف .

● الكويت :

ان الطابع العام الذي يميز المجموعة الكويتية هو المحاكاة والنقل لأعمال فنية معروفة أو لاساليب فنية مستهلكة في الفن الانكليزي الكلاسيكي، والفن الامريكي التأثيري، وهذا غالباً ماتراه عندالهواة عندما يبدأون تجاربهم الفنية مستلهمين الافكار والمواضيع من لوحات معروفة ومنتشرة في المتاحف وفي الكتب . لوحة سامي محمد احمد الصالح لوحة تكاد تكون لفنان امريكي كلاسيكي ، ولوحة سامية عمر عاصم (رقصة الاعياد) هي تكبير حرفي لصورة فوتوغرافية ، اما لوحة عيسى صقر (الديك) فهي اللوحة الوحيدة التي فيهامحاولة فهم تشكيلي ولوني معقول . أما اللوحة الفائزة لعبد الله القصار فهي تقليد لأعمال امريكية من المرحلة الانطباعية .

● البحرين :

ليس في مجموعة البحرين عمل شخصي له طابعه المميز الا لوحة عبد الكريم البوسطه (صناعة السفن) . فهذه اللوحة، رغم الاخطاء الكثيرة التي فيها، تكاد تكون أحسن المجموعة . اما لوحة سلطان محمد معروف (من الماضي القريب) فهي تشبه اعمال الفنانين الفلمنكيين ؛ فهي تقليد حرفي للمدرسة الهولندية .

اما اللوحة الفائزة لحسين قاسم السني فهي لوحة انطباعية على طريقة الرسام كورو ؛ وهي ذات حساسية جيدة من حيث اللمسة اللونية .

● الجمهورية العربية المتحدة :

ان الحضارة المصرية القديمة تطل من جديد في اعمال المجموعة المصرية المعاصرة، رغم ان الاسماء التي اشتركت ليست عريقة في ميدان الفن . وكنا نتوقع

ان نلتقي بأعمال بيكار وصلاح عبد الكريم وصلاح طاهر وكمال أمين وصموئيل هنري وممدوح عمار ويوسف فرنسيس .



(نغمات النيل) لنوراير أصلانيان - ج. ع. م.

وهذا لايعني ان مستوى المجموعة المصرية المشتركة في هذا المعرض ضعيف. لكن الشخصية الفنية عند الفنانين العارضين لم تتبلور بعد . اللوحة الفائزة لنوبار اصلانيان هي محاكاة واضحة لآشور زوريان ، وهو فنان مصري معروف . ولوحة فتحي فؤاد لطفي (تكوين من الاحرف العربية) هي محاولة مشوهة لأعمال الفنان السوداني المعروف احمد محمد شبرين، الا أن المعالجة التي استخدمها فتحي في لوحته تختلف عن شبرين ولعلها مستوحاة من تجارب المرحوم رمسيس يونان الذي كان يرسم بالشفرة والسكين واللون الواحد .



تحرص المجلة على التعريف بنتاج الفكر العربي الجديد بصورة خاصة ، ونتاج الفكر العالمي بصورة عامة . ويسعدها أن تتقبل شاكرة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر العربية والأجنبية ، أو التي يبعث بها الينا مؤلفوها ، ليصار الى دراستها وعرضها في حقول المجلة .

. . .

— المقالات التي ترد الى المجلة ، لا تعاد الى اصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

. . .

— ترجو المجلة من الكتاب الذين يبعثون اليها بمقالاتهم وبحوثهم ، أن تكون هذه مكتوبة بخط واضح جداً (والأفضل أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة) وأن تتضمن اسم كاتبها الحقيقي كاملاً ، وعنوانه واسمه الأدبي الذي يرغب في أن ينشر مع مقاله .

. . .

— ترجو ادارة المجلة من مشتركيها ومن أصدقائها الذين ترسل اليهم المجلة هدية ، أن يعلموها كتابياً عن كل تبديل يطرأ على عنوانهم .

كتاب المعرفة



عرض وتحليل:

الدكتور هشام متولي

بالأمس ، كان مركز البلد في العالم يعتمد على ماتحويه تربته من ثروات طبيعية ، وما تحويه خزائنه من ذهب . ولكن عالم اليوم ليس بعالم الامس . ومقاييس الحاضر تختلف ، بجزء منها على الأقل ، عن ضوابط الماضي . فقيم حضارة أمة من الأمم اليوم إنما تقاس بثروتها من رأس المال البشري الواعي . ورجال السياسة الذين كانوا يتفاخرون بما تملكه بلادهم من ذهب ووسائل حربية ، أصبحوا اليوم يعرفون ان الجاهل وشبه المتعلم لم يعد قادراً على حسن استخدام الأسلحة الحديثة الدقيقة ، كذلك أصبحوا يتفاخرون خصوصاً بما تحويه بلادهم من ثروات فكرية : في الهندسة والطب والعلوم الكونيـــة والاقتصادية والاجتماعية ..

وجرت العادة اليوم على تصنيف بلدان العالم الى متخلفة ومتطورة . ولكن التخلف الاقتصادي ليس سببه فقط ندرة الثروات الطبيعية ، فالبرازيل وفنزويلا والهند والعراق والسعودية وبعض الدول الافريقية تملك ثروات طبيعيـة هائلة ، كذلك ليس سببه فقط ندرة رأس المال لأن بعض هذه البلدان تملك بعضاً من رأس المال الضروري ، ولكن التخلف الأساسي هو في عدم وجود رأس المال البشري ، عدم وجود الانسان الذي هو أثمن رأس مال . واعني بكلمة انسان هنا ذلك المتمتع بالارادة الضرورية لتغيير الطبيعة وأن ينعكس هذا التغيير عليه . وانه بالقدر الذي يتوفر في بلد ما العدد الكافي من العلماء والخبراء في العلوم الصرفة ، وفي العلوم الانسانية ، وبالقدر الذي يتوفر فيه التنسيق والتقريب بين هذه العلوم جميعاً ، يتخلص البلد من التخلف . فليست مساحة الأرض إذن ، ولا كثرة السكان ، ولا الثروات الطبيعية غير المستقلة ، ولا اي شيء من هذا القبيل يصنع وحده عظمة بلد ما . بل تقوم عظمة البلد في الحاضر والمستقبل

على المستوى العلمي والتقني الذي يحتله في العالم ، وحسن استغلال ذلك في سبيل تطوير الاقتصاد القومي ، وازدهار المجتمع ، ورفع المستوى المعاشي والفكري للفرد .

عندما كتبت هذه الكلمات (١) ، كنت اتساءل عن سر عدم قيام رجال الفكر والتربية في بلادنا العربية بمعالجة موضوع أصبح يحتل أحد مراكز الصدارة في تهيئة مستقبل أي بلد ، سواء أكان متقدماً أم متخلفاً : واعني موضوع التربية والتعليم . حقاً كنت اطلعت على بعض الكتب التي صدرت بالعربية حول هذا الموضوع(٢) ، ولكنها لم تكن بكافية من حيث معالجتها لمشكلة التربية والتعليم بمختلف أبعادها وتفرعاتها ، وخاصة من حيث التطبيق وصلة التحليل النظري ، والتركيب التخطيطي ، بالواقع التربوي والاقتصادي والاجتماعي للبلدان العربية . لاشك أن هناك أسباباً كثيرة تكمن وراء قلة الدراسات حول هذا الموضوع في بلادنا العربية . فأولاً ليس هو بالموضوع السياسي الصرف حتى يلاقي الاقبال الكافي والتهافت الملحوظ . وثانياً انه موضوع كان شبه مهمل حتى سنوات قليلة خلت . وعلينا ألا ننكر هنا أن الاهتمامات العالميــة بالموضوع ليست قديمة من حيث الالتفاف اليها ، اذ انها أخذت بالظهور بعيد الحرب العالمية الثانية ، حيث طرحت مشاكل التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومشاكل التخطيط ، ومشاكل البلدان المتخلفة ورفع مستوى المعيشــة وضرورة التصنيع ... الخ . ولعل مايثبت قولنا

---

(١) الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لمفهوم التربية والتعليم . مجلة المعرفة . العدد ٥٢ . حزيران ١٩٦٦ .

(٢) انظر فهرس المصادر من كتاب الدكتور عبد الله عبد الدايم : التخطيط التربوي . دار العلم للملايين . بيروت . تموز ١٩٦٦ ، حيث تجد حصراً شبه تام لمصادر هذا الموضوع بالعربية والفرنسية والانكليزية .

هذا مراجعة تواريخ نشر الكتب المتعلقة بهذا الموضوع والتي أثبت معظمها الدكتور عبد الدائم في كتابه الذي نحن بصدده .

إن مشكلة التربية والتعليم ، او التخطيط التربوي ، هي حجر الزاوية للتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في أي بلد من البلدان . فتنمية الطاقة الانتاجية ،وتطوير المؤسسات إنما يعتمد الى حد بعيد على التغذية بالكم والنوعية بأصحاب المهارة والخبرة والاختصاص .

واذا القينا نظرة على الطرق التقنية للانتاج ، نلاحظ ان نسبة الكثافة العلمية ، في استخدامها وتطورها تزداد يوماً عن يوم . وانه يكاد يكون من المستحيل تصور استثمار الموارد الطبيعية لمصلحة الانسان — كالسد العالي وسد الفرات مثلاً — دون استخدام العلم والطرق التقنية . **فتوفر فئة من السكان على درجة كبيرة من التخصص العلمي القادر على تطوير الخبرة العلمية وتنظيمها يشكل الدافع المحرك لأية تنمية اقتصادية .**

ان نظام التربية والتعليم ،بالاضافة الى انه يهيء الجيل المختص عملا وتجربة وعلماً ، يساهم مساهمة اساسية وفعالة في رفع المستوى الثقافي والتعليمي العام لأفراد المجتمع ، الأمر الذي يؤدي الى تطوير احوال الفرد باعتباره مواطناً من حيث زيادة مساهمته في رفاه المجتمع الذي يحيا فيه .

ولكي يتمكن نظام التربية والتعليم من ان يكون فعالاً وذا آثار ايجابية من حيث تهيئة الجيل المختص ، القادر علماً وعملا على تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمعناها الواسع ، لابد من توفر عدة عوامل : ماهي مثلا حاجات مجتمع ما ، او اقتصاد ما ، من هذه الفئة من الاختصاصيين خلال فترة معينة قصيرة ام طويلة الأجل ، وما هي درجة الاختصاص ، والى اي حد يمكن الافادة من هذا الاختصاص ؟. الى اي حد يمكن

القول انهذا النموذج في التربيةوالتعليم، وبالتالي التخصص ، يستجيب مع الحاجات الاقتصادية والثقافية والإجتماعية والروحية والتاريخية والآجلة للمجتمع الذي اختير النموذج من اجله ؟. كذلك يمكن التساؤل الى أي حد يستطيع النموذج المختار ان يهيء اصحاب النباهة والتتبع على زيادة اختصاصاتهم وتهيئة الأعمال والمناصب التي تمكنهم من العمل المنتج لمصلحة التقدم الاجتماعي والازدهار الاقتصادي .

ان الاجابة على هذه التساؤلات ، وغيرها ، تستوجب بالضرورة توفير التخطيط التربوي ضمن اطار التخطيط العام الشامل لحاجات المجتمع الحاضرة والمستقبلة .

ومن هنا تأتي الأهمية البالغة للكتاب الجامع الذي وضعه الدكتور عبدالدائم. فهو بعد ان جال بنا في فصل تمهيدي عن مفهوم التخطيط التربوي ، وحدد ابعاده ومبررات وجوده ، وخاصة في النصف الثاني من قرننا العشرين ، حيث السيادة المطلقة للعلم والطرق التقنية واستخدامها عن طريق التخطيط الجامع [١] ، انتقل الى معالجة لب المشكلة من الأساس : اي انه نفذ اليها من بابها الرئيسي باب العوامل الاقتصادية او المرتبطة بها . فبعد دراسة تحليلية للمشكلة السكانية وارتباطها بالتطور الاجتماعي والتقدم الاقتصادي ، عالج مكانة التخطيط التربوي في قدرته على ازالة مساوئها وآثارها الضارة [٢] . ان الحديث عن الطاقة العاملة يعني الحديث عن هذه الفئة من المجتمع التي يقوم على اكتافها ، بشكل او بآخر ، الانتاج القومي [٣] . والحديث عن تخطيط التربية بغاية سد حاجات الانتاج القومي ، بل وتطويره ، يعني الحديث عن تخطيط الانتاج القومي

(١) انظر القسم الاول بفصوله الثلاثة .
(٢) انظر الباب الاول من القسم الثاني .
(٣) انظر الباب الثاني من القسم الثاني .

بحد ذاته . من هنا كان الربط الأصيل بين الاقتصاد والتربية وقد عالجه الاقتصاديون اكثر مما عالجه رجال التربية. ولكن الاستاذ المربي الدكتور عبد الدائم قد افرد له الباب الثالث بكامله من كتابه الذي نحن بصدده ، وعالج مشكلة اقتصاديات التربية ، سواء من صلتها بالنمو الاقتصادي او تكاليفها الاقتصادية ومردودها الاقتصادي وطرق تمويلها ، اقول عالج هذه المشكلة كاقتصادي مطلع وواسع الاطلاع [1] على ان ذلك لم يجعله يخرج عن مجال اختصاصه او الهدف الذي وضع كتابه من اجله : لذلك نراه وقد حدد منذ البدء اهم المعلومات الاقتصادية اللازمة للمخطط التربوي .

وتكاد انظمة التربية والتعليم تكون انعكاساً للتركيب الاجتماعي القائم . ان ادخال اي تغيير على هذه الانظمة يؤدي بالضرورة الى ادخال تغيير على البنيان الاجتماعي وبصورة خاصة على التركيب الطبقي للمجتمع. وقد خصص الدكتور عبد الدائم الباب الخامس من كتابه لهذا الموضوع الهام الدقيق والشائك معاً . وهو إن لم يلجأ في معالجته الاجتماعية هذه الى إصدار أحكام قيم ، فانه قد ذكر لنا مراراً المشكلة الرئيسية في هذا المجال التي هي مشكلة اختلال **التوازن الاجتماعي نتيجة** لعدم توفر **الفرص المتكافئة** للجميع في مجال التربية . **إن ديمقراطية** التربية هي الأداة **الاساسية لتكوين المجتمع الديمقراطي** [2] .

وهكذا فانه بعد هذا التمهيد الاقتصادي الاجتماعي لمشكلة التربية والتعليم، تمهيد « ابتلع » اكثر من نصف الكتاب ، ولكنه يمثل في اعتقادنا الجزء الأهم من حيث التحليل والمعلومات العامة

---

(١) انظر الباب الثالث : العوامل الاقتصادية ودورها في التخطيط التربوي .

(٢) انظر الباب الخامس : العوامل الاجتماعية ودورها في التخطيط التربوي . لا شك أن بعض المؤلفين يختلفون في الرأي هنا مع الدكتور عبد الدائم ، وذلك تبعاً لتمذهبهم بالمذاهب الاقتصادية والاجتماعية المختلفة .

للمختصين ولغير المختصين في شؤون التربية والتعليم على حد سواء، انتقل مؤلفنا الى القسم الثالث، حيث حدثنا عن كيفية وضع الخطة التربوية وأصولها وضوابطها والأولويات التي يجب اخذها بعين الاعتبار تبعاً لدرجة تقدم المجتمع ومستوى تطوره[1]. والحديث عن الخطة والتخطيط يستوجب ويستتبع بالضرورة الحديث عن اجهزة التخطيط. **ولا بد لنا من الاشارة هنا الى أنه كان يفضل بالمؤلف وضع التنظيم الاداري للاجهزة التخطيطية في الهامش او في ملحق في آخر الكتاب، اذ أن ايرادها في متنه اخرج القارىء من عمق التحليل في الصفحات السابقة الى ميدان الترتيبات الادارية المختلفة**[2].

وكان لابد للقسم الأخير من الكتاب من تناول تاريخ وواقع التخطيط التربوي في العالم العربي. **وهذه النظرة التاريخية الواقعية التي تعكس التركيب الاجتماعي - الاقتصادي - الثقافي - القائم في البلدان العربية هي الكفيلة بلفت نظرنا الى مدى تخلف برامج التربية والتعليم لدينا عن تلبية الحاجات المتطورة والمتغيرة بسرعة التي تتعرض لها مجتمعاتنا العربية.**

إن ما تقدم من قول هو عرض سريع للخطوط البارزة للمواضيع التي تناولها الكتاب. وحتى لو كنت قادراً على تلخيص هذه الصفحات الطويلة والكثيفة في هذا المجال لما فعلت ذلك. والسبب هو أن قراءتها واجبة في اعتقادي على المختص في شؤون التربية والتعليم. فكتاب الدكتور عبد الدائم قد جمع الى جانب دقة الاختصاص في مجال التخطيط التربوي، شمول المعلومات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، سواء على الصعيد النظري ام في الميدان التطبيقي للعالم العربي.

---

(١) انظر البابين الاول والثاني من القسم الثالث، وهما الفصلان الاساسيان في هذا القسم.

(٢) الباب الثالث بكامله.

على أنه اذا كان المجال لا يتسع لعرض تفاصيل آراء المؤلف والخلاصات التي انتهى اليها، فإن من الواجب الوقوف قليلا أمام الفكرة الجامعة والمهيمنة والمسيرة لهذه الآراء، فكرة نبّه اليها مؤلفنا منذ البداية ليكون مخلصاً وواضحاً تجاه القارىء.

وهذه الفكرة هي: **تعيين حدود التخطيط التربوي، وبالتالي صلتـــه بالأوضاع الاجتماعيـــة والاقتصادية لمجتمع ما**. فاذا كان التخطيط التربوي يعرف المؤلف هو «**النظرة الشامـــلة المتكاملة الى مشكلات التربية جميعها، وهو رسم السياسة التعليمية في كامل صورتها رسماً ينبغي ان يستنـــد الى احاطة شاملة ايضاً بأوضاع البلد السكانية واوضاع الطاقـــة العاملة والاوضاع الاقتصادية والتربوية والاجتماعية**»[1]. واذا كانت الفلسفة في العهود القديمة تعتبر علم العلوم، فان التخطيط التربوي قد احتل هذه المكانة في عصرنا هذا. ولكن مهلا! فان المؤلف لايتبنى مذهب القائلين بالتفسير وحيد الطرف للحياة الاجتماعية. **وهو اذا كان يريد احلال التخطيط التربوي محله من حيث جعله قادراً على «قيادة المعركة»**[2]**، فهذا لايعني انه يوصي بنوع من التبعية: تبعية الاقتصاد او التفسير الاجتماعي او الثقافي للتربية، او تبعيتها لهذه الأمور جميعاً. لأن** للتنمية الاقتصادية مكانتها الهامة ايضاً، ولكن بشرط الا تبقى مجرد أهداف مادية فحسب: «**ان التنمية اما ان تكون عملا اقتصادياً واجتماعياً وتربوياً متكاملا وإما لاتكون**»[3]. وعلى هذا الاساس يذهب مؤلفنا الى تحديد المقصود من التخطيط كفلسفة اجتماعية وبشكل عام. يقول: «**والتخطيط تخطيط واحد شامل، له قطبه الاقتصادي وقطبه الاجتماعي وقطبه الثقافي. وهو ينحدر**

---

(١) انظر ص ٦ من التصدير.

(٢) انظر ص ٨ من التصدير. ويعود المؤلف لمناقشة هذه الفكرة بتوسع في الصفحة ٦٨ من كتابه.

(٣) انظر ص ٩ من التصدير.

ويفقد أغراضه إذا أهمل أي واحد من هذه الاقطاب الثلاثة ، ولاسيا إذا أهمل الجانب الثقافي والاجتماعي . والهدف من التنمية بالتالي ليس هدفاً اقتصادياً وانما هو هدف اقتصادي اجتماعي ثقافي، محط رحاله خلق الحضارة الجديرة بالانسان »[1] . وعلى هذا الاساس، أساس الارتقاء نحو النظرة الانسانية ، يذهب مؤلفنا الى نكران النظرة الواحدية والتفسير الواحدي للاشياء ، وتنكر أن ترد الحوادث والظواهر الى علة واحدة ، ونأخذ بالتفسير الدائري الذي يقيم بين هذه الظواهر صلة تأثر وتأثير متبادلين ، صلة أخذ وعطاء »[2] .

والحقيقة ان المؤلف يغمز بتحليله الصحيح هذا ، وبطرف خفي ، الى الموقف الذي يتخذه بعض الاقتصاديين من تفسير كافة الظواهر على أساس اقتصادي بحت . فيقول مثلا : « إن تكوين (رأس المال البشري) هو رأس كل تنمية وبناء للمجتمع[3] . غير ان هذا لايجوز أن يعني - كما يعني أحياناً لدى بعض الاقتصاديين - مجرد تكوين المهارات الفنية والكفاءات التقنية اللازمة لتسيير عجلة الانتاج . فالانسان ليس آلة ولايعمل كآلة . ونتاجه اولا وآخراً يتأثر بجملة تكوينه وبكامل شخصيته وجماع طبعه وخلقه ونظرته الى الاشياء . واعداده ليكون انساناً لايقل شأناً عن اعداده للانتاج . وهذه المهمة ، مهمة تكوين الانسان المنتج ، والمنتج الانسان ، هي مهمة التربية والتخطيط التربوي، وهذا التخطيط

(١) انظر ص ١٠ من التصدير . ركز المؤلف على معالجة هذه الفكرة في نواحي متعددة من كتابه وخاصة في بحثه عن التنمية التربوية والتنمية الاقتصادية والحلول الممكنة لمعضلات التواصل بينها . ص ٦٧ - ٧٢ .

(٢) انظر ص ٨ .

(٣) انظر ص ١٠ .

هو المسؤول عن رعايتها قبل غيره»[1].

ويقول في مكان آخر من كتابه « ان مسألة النمو هي مسألة تطرح قضية حضارة الانسان كلها، قضية سعادة الانسان»[2].

كاقتصادي، لا اختلف مع المؤلف فيما ذهب اليه . وكاقتصادي ، اعتقد انه من اجل التخطيط لحضارة المستقبل، ولسعادة الانسان ، يجب أخذ الانسان ككل . ولكن المشكلة الاساسية تبقى هي التالية : كيف يمكن الوصول الى تحقيق ذلك . لاشك ان وسيلة التعليم هي وسيلة فعالة ، ولكنها لاتحتل الميدان لوحدها . ومهما قيل، فان الواقع بين لنا دوماً ان نسبة هيمنة العوامل الاقتصادية البحتة في تشكيل المجتمعات هي نسبة غالبة ومهما قيل في أيها اسبق : العوامل التربوية الثقافية ام العوامل الاجتماعية الاقتصادية ؟ وهل من سبيل لاقامة التوازن بين هذه العوامل في الحياة الواقعية ؟ ، فان الحضارات القديمة ، حضارة الاغريق وحضارة العرب وغيرهما، تقدر على خلق حضارة اقتصادية رغم طابعها الثقافي والتربوي الرفيع . ولكن الحضارة الاقتصادية التي ولدت مع الثورة الصناعية ادت مع الزمن الى تطور الثقافة والتربية ، بل الى تغيير اسس المفاهيم الثقافية والتربوية[3].

ورغم عدم اختلافي مع المؤلف من حيث الغايات التي حددها، الا انني اعتقد أن التخطيط التربوي يجب ان يشكل جزءاً لايتجزأ من التخطيط الاقتصادي الاجتماعي الشامل الذي يجب أن يتميز ككل بتحقيق المجتمع الافضل . اعتقد ان المؤلف قصد الى ذلك في الواقع . لذلك كنت اتمنى لو أنه افرد لنا فصلاً خاصاً عن فلسفة التخطيط ، ومن ثم

---

(١) انظر ص ١٠ — ١١ .

(٣) انظر ص ٦٩ .

(٤) لقد شرحنا هذه النقطة بشكل اولي في بحثنا « الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لمفهوم التربية والتعليم » . مجلة المعرفة . العدد ٥٢ . حزيران ١٩٦٦ .

درس عوامل التخطيط التربـوي ضمن اطار هذه الفلسفة . قد اجاب بأن المؤلف خصص المقدمة للتنبيه الى ذلك . هذا حق ، مادمت اعتمدتها في اقتطاف اقواله . ولكني اعتقد ان ابراز هـــذا الأمر بشكل اكثر تركيزاً ، بوضـــع ركائزه الفلسفية ، وقواعـده الفكرية ، هو مهمة العاملين في الحقل الفلسفي الثقافي كالدكتور عبد الدائم .

هذا ، ونظراً لكون كتاب الدكتور عبد الدائم كتاباً علمياً في موضوعه ومعالجته ؛ فاننا افتقدنا منه الخلاصة التي يتميز بها كل كتاب قائم على التحليل العلمي . من الحق أن المؤلف بسط و كرر معظم أفكاره ومساهماته الاساسية في متن الكتـاب ، ولكن بقيت هنـاك نقاط وتساؤلات أخرى مكانها الطبيعي هو في الخلاصة التي نأمل قراءتها في الطبعة الثانية للكتاب .

بقي أن أذكر ان كتاب الدكتور عبد الدائم هو كتاب للمختصين وغير المختصين في الوقت ذاته . انه كتاب في الثقافة العامة الى جانب صفحاته العلمية البحتة . واذا أضفنا الى ذلك أنه مكتوب بلغة واضحة ، سهلة ، مركزة ، أكدنا على ضرورة قراءته من كل من يبغي الى تحقيق المجتمع العربي الأفضل ، ضمن إطار من مجتمع انساني أفضل [٦] .

---

(٦) ان هذه النظرة الانسانية لدور التربية نجدها أيضاً لدى مؤلف سوري آخر هو الدكتور جميل صليبا . انظر كتابه القيم «مستقبل التربية في العالم العربي» . عويدات . بيروت ١٩٦٧ .

رسالة لندن

من حسام الخطيب

المحررون الأدبيون - وسر المهنة

ذلك الفيض الهائل من الكتب التي تقذفها المطابع الاوروبية في كل دقيقة ، كيف يمكن لإنسان أن يحيط بها ، او يبقى على تماس مع افضلها على اقل تقدير حتى يستطيع أن يزعم لنفسه أنه يتابع حقلاً معيناً من حقول المعرفة متابعة حية ويومية ومجارية للأحداث !

ان حركة الزمن الفكرية في أوروبا مرعبة وهي لا تقل سرعة عن طائرات (السوبر سونيك) التي سوف تستطيع بعد خمسة اعوام، او اكثر او اقل، أن تجعل السفر بين عواصم العالم أسرع من التنقل بين حي وآخر في طرفي احدى المدن الكبرى كباريس ولندن ونيويورك وموسكو. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن الباحث المنقطع للعلم (الأكاديمي) يجد نفسه بعد ستة أشهر او سنة او سنتين شبه متخلف حتى بالنسبة لاختصاصه الضيق في أي مجال من مجالات المعرفة . ان الدخول الى أية مكتبة كبرى في بريطانيا على السليقة ودون تصميم مخطط يعني الدخول في متاهات لايخرج منها المرء بغير احد استنتاجين او بهما معاً ؛ أنه اضاع وقتاً طويلاً في (تشويش) دماغه ، وأنه اجهل مما كان يظن بكثير .

ومن هنا كان القارىء الاوروبي عالة على محرري الصحف والمجلات المختصين بمراجعة الكتب .. ان عدد القراء الذين يكتفون بمطالعة مراجعات الصحف اكثر بكثير من اولئك الذين يقرؤون الكتب نفسها (١) ، وحتى اولئك الذين يهتمون بقراءة الكتب الجديدة دون وسيط انما يعتمدون في انتقاء هذه الكتب اعتماداً رئيسياً على المحررين الادبيين . وهكذا يكون القارىء والمؤلف دائماً تحت رحمة هؤلاء الناس ، ويزيد الأمر سوءاً في صحافة كالصحافة الامريكية مثلا أن المراجع المشهور قد يعمل لأكثر من صحيفة واحدة ، وبعضهم يكتبون لعدد كبير من الصحف ، مما يعطيهم فرصة التحكم التام في مصير الكتاب الجديد وفي مصير الثقافة العامة . وبالرغم من أن عدداً من هؤلاء المراجعين اصبح معروفاً لدى القراء النابهين ، بحيث يمكن ان يقدروا بعض الدوافع التي تحفزه لتمجيد كتاب او تفنيد آخر ، فان اغلب القراء لا يخطر لهم ان يناقشوا مايقوله المراجعون ، بل ان بعض التحقيقات التي أجريت في انكلترا اثبتت أن مجرد ذكر الكتاب في الصفحة الادبية حافز كاف لدفع القارىء الى قراءته . ومن هنا يفضل المؤلفون أن يكون نصيبهم من المراجعين النقد ، ولو مراً ، لأن الاشارة الى كتبهم بحد ذاتها تعني انهم اجتازوا عتبة الاهمال المظلمة التي يعيش كل كاتب في فزع منها .

لماذا يهمل المحررون الادبيون بعض الكتب ؟

هنا سر المهنة .

قد يفاجأ المرء حين يعلم أن الاحصاءات في بريطانيا تدل على أن الكتب التي تحظى بالمراجعة لا تتجاوز ثلاثة كتب من كل عشرة ، ويقول المحررون الادبيون إنهم لايستطيعون أن يراجعوا كل مايرد الى صحفهم من الكتب ، بسبب ضيق الوقت وقلة المساعدين ، ويجب أن لا نتصور أن مجرد زيادة الهيئة البشرية المكلفة بالمراجعة هي حل للمشكلة لأن عملية

(١) برنارد برغونزي B. Bergonzi ، مجلة New Society ، عدد ٦ نيسان ١٩٦٧ .

المراجعة هي مسؤولية كبيرة جداً تحتاج الى ذوق ومهارة واطلاع كاف وموهبة نقدية وقدرة على التركيز في الكتابة. ومن يقرأ مراجعات الكتب في Times Literary Supplement او في Punch او New Society او Observer يدرك بالفعل الصعوبة النفسية التي يعانيها المراجع المضطر الى تركيز مادة الكتاب المراجع ، ومآخذه ومزاياه كلها في عمود او عمودين او فقرتين احياناً. ويشكو المحررون الادبيون دائماً من عجزهم عن المتابعة ومن اسفهم لأن كثيراً من الكتب، التي ربما كانت ذات غناء ، يكون نصيبها أن تتكدس على رفوفهم دون أن يشار اليها بكلمة .

ما هو المقياس الذي يتبعه المحررون الادبيون في اختيار الكتب المراجعة؟

هنا السر الثاني .

ومن الغفلة أن نعتقد أن الجودة وحدها هي أساس الانتقاء . قد تكون قيمة الكتاب الذاتية عاملاً رئيسياً في الانتقاء ولكن ما اكثر العوامل الأخرى ! ان شهرة المؤلف تريح الناقد، وقد ترضي القارئ نفسياً ؛ ولذلك نجد أن كتباً معينة تحظى باهتمام مشترك من قبل جميع الصحف ، بينما تغوص أعداد هائلة منها في هوة الإهمال. ثم هناك طبيعة المعالجة في الكتاب، فان كتاباً يثير قضايا حيوية ، او يتعرض لمفهومات عامة بلهجة جريئة ، او ينفي او ينقض او يتهجم ليس من السهل السكوت على مثله، فلا بد للناقد من أن يشير اليه مادحاً او قادحاً . ومن هنا نرى أن الكتاب الناشئين في الغرب يتمادون في الغرابة والتطرف بل الشذوذ لأنها تمهد لهم الطريق ليسمعوا الناس آراءهم . وكثيرون منهم يعودون الى اتخاذ لهجة اكثر اعتدالاً بعد أن يضمنوا طريق الشهرة .

ومما يزيد الأمر صعوبة ان المراجعين ليسوا في الأصل مختصين في فرع ما من فروع المعرفة (باستثناء المجلات الاختصاصية) ، وهم في الأغلب صحفيون ناجحون أنيطت بهم مهمة المراجعة في جملة ما يناط بهم من مهمات . ولذلك نراهم يميلون الى الكتب ذات الطابع العام أكثر مما يميلون الى الكتب التي تبحث بالتفصيل نقاطاً خاصة من المعرفة . وفي المجال الأدبي — على وجه التحديد — نجد أن كتب النقد الأدبي تلقى إهمالاً واسعاً لأن مناقشتها صعبة من جهة وتتطلب قراءة الكتاب بدقة من جهة ثانية . ويلاحظ (برغونزي) ان كتابين من أهم الكتب التي أعطت شيئاً جديداً في النقد لم يلقيا اهتماماً لائقاً من المراجعين لدى صدورهما في العامين الماضيين وهما (**الشخصية والرواية**) للأستاذ هـ . ج . هارفي Character and The Novel . W. T. Harvey (١٩٦٥) و (**الرواية والمجتمع**) لديانا سبيرمان The Novel and Society Diana Spearman (١٩٦٦) . يضاف الى ذلك ان العرف جرى على إهمال الكتب ذات الغلاف الرقيق

Paperbacks ، أي أعمال كل مايصدر من سلاسل (بليكان)و(ميترفا) وغيرها .

ثم ان الادب والفكر الحديثين يحظيان باهتمام زائد في حين يفترض معظم النقاد ان الكتب التي تتعرض للفكر والأدب قبل منتصف القرن التاسع عشر لاتستحق سوى حيز ضيق من المراجعة وكأنهم ينتقمون من تعصب الأكاديميين للقديم .

ولعله يسهل على الانسان ان يلاحظ ان (الانكماشية) البريطانية واردة في هذا المجال كما هي واردة في مجالات الحياة الأخرى الفكرية والنفسية والاجتماعية . فقلما يقرأ الانسان هنا مراجعة لكتب أجنبية . واحياناً قد يحظى كتاب فرنسي بأهمية معينة (مثل قوة الأشياء لسيمون دوبوفوار حيث احتلت مراجعته عند ظهوره الصفحة الأولى من Times Literary Supplement ، وهو حدث ذو أهمية طبعاً !) أما الكتب الأخرى التي تصدر في العالم فلا تعني الانكليز كثيراً ، حتى أن الكتب الأمريكية وغيرها من الكتب التي تطبع بالانكليزية لاتلقى أية عناية .

أما كيف ينتقي صانعو الرأي العام الثقافي فتلك مسألة من أدق أسرار المهنة ولقد تجرأ الكاتب الأمريكي ريتشارد كوستلانتز Kostelanetz في مقال له عن الجو الأدبي في لندن (Twentieth Century 1965) على التعرض لهذا الموضوع ، فاذا بالصحافة الانكليزية تصب نقمتها العارمة عليه. إن معظم المراجعين هم أصلاً طلبة جامعيون يرى الناشرون اسماءهم في مجلات الناشئين فيسارعون الى اختطافهم ليكلوا اليهم مثل هذا العمل الدقيق الشاق ذي الأثر الأكبر في توجيه الثقافة والفكر .

انها صورة للفوضى الثقافية في أوروبا أحببنا ان نعرضها دون تعليق وان كان لابد من كلمة فلنقل ان مثل هذه الفوضى تربة صالحة للاستغلال وسوء التوجيه والتلاعب لا من قبل الناشرين المتمولين فحسب ، بل من قبل المؤسسات الصهيونية ووكالة الاستخبارات المركزية وغير المركزية .

روبرت لويل في لندن
Robert Lowell

حظي وصول الشاعر الامريكي روبرت لويل الى لندن في شهر آذار الماضي بنصيب كبير من اهتمام الصحافة الانكليزية الأدبية ، وقد روجعت مسرحية (بينيتو سيرينو Benito Cereno) في الصفحات الأدبية لمختلف الصحف اليومية والاسبوعية ، وكان حضور حفلة الافتتاح في Mermaid theatre مناسبة فريدة للمحررين الأدبيين الذين اشتهروا

في أمور كثيرة خلاف مسرحيته ، ولاسيا في قضايا فيتنام والحرية في أمريـكا ، والتمييز العنصري . وجلت اجوبـة لويل مفارقة Contrast واضحة بين صراحة آرائه وبين أمريكيته وعراقة أصله الارستقراطي ، فهو ينحدر من اسرة تمتاز بالأرستقراطية في في الأدب والسياسة منذ عام ١٦٠٠ . وفي امريكا يقولون :

أسرة لويل تتكلم مع أسرة كابوت، وأسرة كابوت لاتتكلم إلا مع الإله !

على أن ما استخلصناه من سيرة الشاعر يدل على ان تفاهمه مع اسرته كان ضئيلا منذ البدء ، وهو يعمل الان محاضراً في جامعـة هارفرد . عمره خمسون سنة ، وزوجته ناقدة ومحررة . وأهم آثاره :

١ — أرض الجفاء Land of Unlikeliness وهو ديوانه الاول ، نشر سنة ١٩٤٤ .

٢ — قلعة اللورد ويري Lord Weary's Castle وقد نال هذا الكتاب جائزة بوليتزر سنة ١٩٤٦ .

٣ — دراسات حياة : Life Studies ويعتبر اكبر ثورة في الشعر منذ الأرض الخراب Waste Land لإليوت . ومركز الاهتمام فيه أسرته وحياته الشخصية ، واسلوبه سهل بعيد عن الشكلية .

٤ — أفضل كتبه (في سبيل الاتحاد الميت For The Union Dead) نشر في بريطانيا في العام الماضي .

٥ — وأحدث ديوان له « بالقرب من المحيط Near the Ocean » يقول فيه :

رحمة بالكوكب ، فلقدذهب كل فرح
من هـــذا الكوكب المخروطي البركاني العذب
والسلام لاطفالنا حين يسقطون
في حروب صغيرة في اعقاب حروب صغيرة
حتى نهاية الزمن .
لـكي يقوم بعمله البوليسي على الارض
هناك شبح يلف معها دائماً
ولقد ضاع الى الابد
في سموّنا الرتيب .

وحين سئل لويل عمــا يقصده بالسمو الرتيب monotonous sublime أعطى مثلا: أمريكا المسرح حيث الناس مفلسون يشعرون باللا أخلاقية لدى مخالفة أسلوب الصفقـــات الكبرى وحيث يصعب ان تكون شاعراً ذا قيمة :

حصيلة مقابلة جون غايل Gale :

وكان حوار جون غايل مع روبرت لويل مختصراً ومركزاً وصريحاً، نجتزىء منه خلاصة السؤال والجواب .

١ ـ من أين يأتي بالضبط خطر الحرب ؟

ـ بالدرجة الأولى خطر الحرب مرهون بالاجهزة الحكومية البيروقراطية في أمريكا وروسيا .

وهناك ماهو اخطر من الحرب ، انها المذابح ، مذبحة أندونيسيا ، مذابح المسلمين والهندوس ، مذابح آسية الشرقية . وهناك مذابح متوقعة في جنوب افريقيا وفي كل مكان.

٢ ـ حول مزاجه في النظم اجاب:

ـ أنظم الاشعار الحزينة حين أكون مسروراً . المطلوب من الشاعر دائماً اتقان وطرافة وجدة وإلا ملّه الناس ، بصرف النظر عن السرور او الحزن ، وهما لا يختلفان كثيراً . أهدف دائماً الى نظم « بطيء وواضح » .

٣ ـ ماذا يتمنى لويل أن يكتب؟

ـ تمنيت لو كتبت عن تروتسكي ، ولكن ذلك صعب وفيه غنى عظيم . كنت أتمنى لو أن دوستويفسكي أتيح له ان يكتب عن تروتسكي . موضوع تروتسكي فيه بطولة وفيه عطف ، ولكنه مملوء بالأشياء المخيفة .

كذلك تمنيت لو أكتب عن مالكولم أعظم الزعماء الزنوج . في موضوعه أشياء أصعب. ومن المشكلات الكبرى قتل الزنوج بعضهم بأيدي بعض .. ويشعر المرء أنه وتروتسكي كان يجب أن يقتلا .

٤ ـ وماذا عن فيتنام ؟

ـ لو كانت هناك امكانية لنجاح روبرت كنيدي في الانتخابات القادمة فربما وجد سبيل للبحث في ايقاف الحرب .. ان فيتنام الشمالية تحتاج الى متاعب حتى تؤدبنا بما يعادل ايذائنا لانفسنا . لقد مزقت حياتنا وجنح تلاميذنا . وحشية الحرب وكلفتها مرعبتان .

هناك اقلية صغيرة في امريكا تتحمس من الحرب ، ولكن معظم المثقفين ضد الحرب.

ماذا أيضاً عن لويل ؟

في الحرب العالمية الثانية كان لويل يتهيأ للتطوع ثم سمع بقصف المدنيين فرفع صوته محتجاً . وكانت النتيجة خمسة أشهر في السجن .

وفي مطلع الحرب نفسها تخلى عن مذهبه (رغم كاثوليك) وصار انكليكانياً ، والآن هجر الديانة التقليدية .

ومنذ مدة رفض دعوة جونسون لاحتفالات الفن في البيت الأبيض ، محتجاً على السياسة الامريكية في فيتنام ، ومنذراً بأنه بأن امريكا تتحول الى امة شوفينية .

أطلس اللهجات الانكليزية

من الاوهام الشائعة في بلادنا ان اللغة العربية تنفرد بحالة الازدواجية بين العامية والفصحى ، في حين أن اقطار العالم الاخرى لاتعاني من هذه الحالة ، وغالباً مايضرب المثل بانكلترا . على ان زائر انكلترا لايفوته

ان يلاحظ منذان يبدأ الاختلاط مع الاوساط التي لا (تحترف) التعامل مع الاجانب ، ان هناك فارقاً بين لهجة الاذاعة البريطانية في نشرة الاخبار ، وبين لهجة اية بائعة في مخزن انكليزي وهذا الفارق يذكرنا بشكل متفاوت بالفارق بين لهجة نشرة الاخبار السورية ، ولهجة البائعين في سوق الحميدية .

وفي دراسة بدأتها جامعة ليدز منذ أربع سنوات تبين وجود فوارق واضحة في المفردات المستعملة ، وفي اللفظ بين مناطق متجاورة جداً في انكلترا ناهيك بالمناطق الاخرى المتباعدة .

كشفت الدراسة مثلاً وجود ٤٧ طريقة مختلفة للفظ كلمة Cow (بقرة) . كما أن شبح الحقل Scarecrow له اسم خاص في كل منطقة من بريطانيا . واحياناً لا توجد صلة اشتقاقية . وفيما يتعلق بتركيب الجمل طرح السؤال التالي على مجموعات مختلفة من الانكليز في مناطق مختلفة :

Which of you is Eng lish here ? (١)

فكانت الأجوبة متباينة حسب المناطق المختلفة :

— I am (٢)

— I is (٢)

— I be (٢)

— I bin (٢)

كما كشفت الدراسة عن وجود أصوات طفيلية غريبة عن اللغة في عدد كبير من المناطق يصعب تفصيلها في مثل مجالنا . والمهم هنا التأكيد على ناحيتين :

١ — ان العامية موجودة والفصحى موجودة في بلد مثل انكلترا يفتح فيه سائق الباص جريدته عند الموقف لكي لا يضيع وقته . وقد تجد سائق السيارة الصغيرة ينتظر الركاب في الليل ويقرأ على ضوء مصباح السيارة الداخلي .

٢ — منهج البحث اللغوي غاية في الاهمية . فقد بدأ البحث في اللهجات سنة ١٩٦٣ بدراسة عن المناطق الشمالية في انكلترا . وظهرت في شهر آذار ١٩٦٧ دراسة عن المناطق الجنوبية . وينتظر ان تظهر بين ١٩٦٨ — ١٩٦٩ دراسة عن المناطق الوسطى الغربية والشرقية . كما توجد نية لدراسة اللغة في مجتمعات الصيد وكذلك في المدن اذا توافرت الامكانات المادية . وتستخدم في الدراسة اجهزة تسجيل وخرائط وفرق باحثين ، وتهدف الى تسجيل اللهجات والاصوات لتبقى حية بعد ان يصمت اصحابها . وتزمع جامعة ليدز عمل (اطلس) لغوي لانكلترا يمكن ان يبين عن طريق

---

(١) أيكم الانكليزي .

(٢) أنا .

الخرائط التوزيع الاقليمي للكلمات واللهجات في انكلترا .

كلمة للتاريخ [1]

بقلم ونثروب ألدريتش
Winthrop W. Aldrich

السفير الامريكي السابق في بريطانيا :

منذ أن تقاعدت من وظيفة سفير الولايات المتحدة الى بريطانيا العظمى في شباط ١٩٥٧ ، كتب الكثير عن الاحداث التي رافقت استيلاء الحكومة المصرية على قناة السويس في تموز سنة ١٩٥٦ . كما نشب خلاف متشعب جداً حول ردود فعل الحكومات الفرنسية والبريطانية والامريكية تجاه هذا الحادث ، مما قد يجعل من المفيد أن اسرد بأقصى ما يمكن من الاختصار والوضوح قصة ما حدث من وجهة نظر السفارة الامريكية في لندن .

[يتحدث السفير هنا عما سبق الازمة من سوء تفاهم بين ايدن وجون فوستر دالس حول التصرف بالنسبة لمطالب مصر في القناة] .

في السادس والعشرين من تموز ١٩٥٦ غادرت لندن الى نيويورك جواً في عطلة قصيرة . وبعد ساعة من مغادرتي تلقت الحكومة البريطانية انباء استلام البوليس المصري لمراكز شركة قناة السويس تنفيذاً لمرسوم التأميم . وقد وجه الي فوراً رئيس الوزارة — وهو لايعلم انني غادرت لندن — دعوة لحضور اجتماع للوزارة البريطانية التي دعي أعضاؤها على الفور . وقد حضر الاجتماع السيد أندرو فوستر مستشار السفارة وقتئذ باعتباره قائماً بالاعمال . وكانت الصدمة للحكومة البريطانية قاسية جداً لأنها لم تتلق من مخابراتها اي تحذير مسبق بشأن الاستيلاء .

ولم تتوصل الوزارة الى أية نتيجة في هذا الاجتماع باستثناء وجوب إجراء مشاورات فورية مع الولايات المتحدة ، وعلى مستوى عال . وبينما كنت على طائرتي في طريقي الى نيويورك ، كان السيد روبرت ميرفي نائب وكيل وزارة الخارجية يتجه الى لندن بالطائرة للتشاور مع الحكومة البريطانية ؛ ولدى وصولي الى نيويورك توجهت فوراً الى واشنطن وقصدت دار السيد دالس حيث وجدته يتشاور مع موظفيه ، وكان عائداً لتوه من زيارة رسمية للبيرو . وقد سادت حالة من الضيق . وكان وزير الخارجية يتلقى انباء تفيد بأن البريطانيين يخططون لاستخدام القوة ضد المصريين مالم يرد القنال الى شركة قنال السويس . وقد اشتركت في النقاش ولم أشعر بأن هناك وزناً كبيراً لما كنت أقوله وكان بين الحضور رجال أكفاء الى اقصى حد مثل ليفنغستون ميرشانت Livingston Merchant وهيرمان فليجر Herman Phleger وروبرت بوي Robert Bowie :

---

(١) Foreign Apfairs, April , APril 1967 ص ٥٤١ — ٥٥٢

وفي يوم الثلاثاء ٣١ تموز طرت مع دالس الى انكلترا ، وعقدنا اجتماعات لمدة يومين مع الأعضاء البارزين في الحكومة البريطانية بما فيهم إيدن ، ووزير الخارجية سلوين لويد ، وهارولد ماكميلان ، ولورد سالزبوري . وقد أقنع (دالس) البريطانيين بالدعوة الى عقد اجتماع في لندن بأقصى سرعة ممكنة . على أن يضم الأطراف الموقعة على اتفاق عام ١٨٨٨ الذي اعتبر القنال بموجبه ممراً مائياً دولياً ، وكذلك الأمم الأخرى التي تستخدم سفنها القنال استخداماً واسعاً .

[يروي السفير بعد ذلك وقائع المشاورات والتحركات السياسية وهي أمور معروفة تاريخياً ، ثم يتعرض لأخبار التعبئة الاسرائيلية فيقول] :

في مساء الأحد ، ٢٨ تشرين الأول ، أي في اليوم الذي سبق الهجوم الاسرائيلي على مصر ، تناولت طعام الغداء مع السيد لويد ، وكان بصحبتنا معاوني (ولورث باربر) ، والسيد هارولد بيلي Beeley خبير وزارة الخارجية لشؤون الشرق الأوسط . وسألت لويد **عما اذا كان لديه علم حول حجم وأهمية التعبئة الاسرائيلية فأجابني انه يجهل التفاصيل ولكن حكومة جلالتها وجهت الى الاسرائيليين بياناً قوياً جداً مفاده أنهم اذا هاجموا الاردن فان حكومة بريطانيا ستضطر الى الوفاء بالتزاماتها والتدخل للدفاع عن الأردن** . وأضاف ان الحكومة ستأسف لذلك لأنه سوف يعني ان بريطانيا تعمل ضد اسرائيل والى جانب عبد الناصر . وسألته بوجه خاص الا يعتقد بأن اسرائيل قد تهدف الى مهاجمة مصر ، فأجاب بأن ليس لديه دلائل تظهر ان التعبئة الاسرائيلية كانت موجهة ضد مصر ... وقد كرر هذه الأقوال في مجلس العموم ايضاً .

وفي اليوم التالي ، ٢٩ تشرين الأول ، وحالما سمعت بأنباء الهجوم الاسرائيلي على مصر طلبت مقابلة السيد لويد . وقابلته في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي في وزارة الخارجية بحضور السيد بيلي (١) والسيد باربر . وسألت السيد لويد عن نوايا الحكومة البريطانية تجاه العملية الاسرائيلية ، **فأجاب ان حكومته ستدين اسرائيل فوراً في مجلس الأمن الدولي بالعدوان على مصر** . لقد كانت هذه هي عبارته وقد تبين انها مذهلة جداً في ضوء ماحدث بعد ذلك . وأضاف ان رئيس الوزارة الفرنسية ووزير خارجيته كانا في طريقهما الى لندن ، وان الحكومة البريطانية راغبة في

(١) يذكر السفير أنه حرص على حضور (بيلي) دائماً لأنه شك في نوايا لويد .

التشاور معها قبل اي تصرف لأنها تحب ان يكون تصرفها منسجماً مع تصرف الفرنسيين، بل انه قال إن للبريطانيين سفناً وحمولات ذات قيمة ضخمة ويجب مراعاة هذه النقطة وقد أخبرني لويد في نهاية الاجتماع انه لايستطيع تحديد نوع التصرف الذي سيقوم به البريطانيون الا بعد الاجتماع الذي سيعقد في الحال، ووعد باخباري بالقرار بعد الغداء. وأبرقت الى واشنطن بتصريحات لويد وعملت على إبقاء خط هاتفي مفتوحاً مع واشنطن من اجل اتصالات تالية.

[ويذكر السفير بعدها ان لويد اعتذر عن مقابلته، وقد قابله في الساعة ٤،٤٥ السير إيفون كير كباتريك الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية وابلغه ان فرنسا وبريطانيا أنذرتا كلا من اسرائيل ومصر بالابتعاد عشرة اميال عن السويس، وان الانذار أبلغ لسفير مصر في الساعة ٣،٢٠ ولسفير اسرائيل في الساعة ٣،٣٠ مساء، وأنه أعلن في مجلس العموم. وقد اتصل السفير بحكومته فوجد أنها علمت النبأ من الاذاعات (لا عن طريقه)، وهو ينبه هنا الى ان الانذار تضمن عزم البريطانيين والفرنسيين على احتلال بور سعيد والاسماعيلية والسويس سواء استجاب الطرفان للانذار أم لا].

يذكر السفير بعد ذلك مهمته في لندن وصعوبة التفاهم مع إيدن، واتصاله باعضاء الحكومة البريطانية من وراء ظهره، وارتياحه لاستقالته وسفره الى جامايكا، ثم يعلق على نقاط مهمة في الموضوع خلاصتها :

١ – لم يتدخل الأسطول السادس الأمريكي بأي شكل ضد قوات المعتدين، بل جرى الاتفاق على الاحتفاظ بممر من القاهرة الى الاسكندرية في مأمن من الغارات الجوية وذلك لاجلاء الامريكيين.

٢ – سهلت الحكومة الأمريكية لبريطانيا تقوية احتياطيها من الدولار بشتى السبل، كما سهلت عمليات ارسال البترول اليها من نصف الكرة الغربي بعد أن اشتدت أزمة البترول نتيجة لسد قناة السويس ونسف انابيب البترول المارة من سورية.

٣ – كانت الحكومة الأمريكية تميل الى أن يكون (بتلر) خلفاً لإيدن، ولكن الانكليز فضلوا ماكميلان أملاً في أن يكون تفاهمه مع ايزنهاور اسهل لما كان بينهما من اتصال وثيق في افريقية اثناء الحرب.

٤ – في حديث السفير مع الجنرال (كنلي) تبين أن الأخير لم يكن يعلم سوى الأوامر، واعتقد أن مهمته هي وقف القتال بين مصر واسرائيل. وقد تقيد تماماً بهذه المهمة – على حد قول السفير – وصرح بأن احتلال مصر كان يتطلب عمليات اوسع من ذلك بكثير.

٥ – يسرد بالتفصيل موقف الوفد الأمريكي في هيئة الأمم المتحدة من التعديل البلجيكي الذي قدم الى الجمعية العامة لتخفيف وطأة مشروع القرار الذي قدمته الدول الآسيوية الافريقية بمطالبة المعتدين بالانسحاب

(فوراً) . إذ أن ممثلي دول حلف الاطلسي وأتباعهم أحبوا أن ينقذوا البريطانيين والفرنسيين من الذل . وقد أبلغ هنري كابوت لودج مندوب امريكا أن يصوت الى جانب التعديل البلجيكي ، كما ابلغ هذا الأمر الى الحكومة البريطانية رسمياً بالهاتف وبشهادة السفير . ولكن لودج – كما هو معروف – صوت الى جانب القرار الآسيوي الافريقي في ٢٣ تشرين الثاني . وكان ذلك مفاجأة . يقول السفير :

«خلال عملي سفيراً في لندن لم تجرح العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا بمثل ما جرحت ، نتيجة لمخالفة لودج التعليمات التي أبلغني مورفي نائب وكيل وزارة الخارجية أنه تلقاها من وزارة الخارجية الامريكية ، والتي أعادها مباشرة على الهاتف الى اقطاب الحكومة البريطانية .

ولم استطع أبداً فيما بعد أن أعرف كيف تمت مخالفة القرار عملياً . وربما كان إيزنهاور بالطبع قد اجاز بنفسه تصرف لودج ... »

ويضيف السفير :

« من بين الصعوبات الكبرى اثناء أزمة السويس أن ايدن كان يشك فيما اذا كانت الخطط المختلفة التي قدمها دالس تهدف الى بلوغ النتائج التي يريدها ايدن نفسه او تهدف الى احباطها .. وقد بذلت كل ما في وسعي لمنع ايدن من اساءة فهم موقف دلس ، ولا اظن أني كنت ناجحاً .. »

ويحاول السفير بشيء من اللباقة أن يكذب بعض ما رواه ايدن في كتابه (الحلقة المفعمة Full Circle) عن رأي دلس في امكانية استخدام هيئة المنتفعين لإضفاء طابع الشرعية اذا اقتضى الأمر العودة ثانية الى استخدام القوة في ذلك الوقت .

انه تاريخ من الأكاذيب والأطماع (مشرف) للحكومتين ، وقد اراد السفير الأمين بهذا المقال ان يصلح ما بين الحكومتين (الشقيقتين) فكان أن فضحهما معـاً كما يتضح لمن يتأمل في الحقائق التي اوردها ، وفيما وراءها .

استنتاجات للتاريخ ايضاً :

للتاريخ يجب ان نسجل بعض الاستنتاجات التي استخلصناها من الازمة التي عصفت في النصف الاول من شهر آذار ١٩٦٧ بمجلة (جويش اوبزرفر Jewish Observer and the Middle East Review) .

لقد أدت الازمة الى عزل رئيس التحرير (جون كمشي) ، والى تشديد رقابة الاتحاد الصهيوني البريطاني على الصحيفة . ولكن الازمة لم تنته بعد ؛ فهي نوع من الازمة (المفتاحية) التي ينتظر ان تجر وراءها سلسلة من الازمات . وفي الاسبوع الاول من شهر نيسان الماضي كان المسؤولون في

الاتحاد الصهيوني البريطاني وفي الحكومة الاسرائيلية يحاولون ان يجدوا طريقة التهرب من الاسئلة الكثيرة التي كانت تحمل احتجاج اعضاء المؤتمر الصهيوني في لندن على موقفهم من قضية الجويش اوبزرفر ، وبالضبط على رضوخ الاتحاد الصهيوني لمحاولات الحكومة الاسرائيلية إخفاء حقيقة الوضع المتردي في اسرائيل عن الرأي العام العالمي وعن يهود العالم.

لقد عزل جون كمشي لأنه حاول نشر مقالة عن البطالة في اسرائيل . واهم ماجاء في هذه المقالة ان عدد العاطلين عن العمل في الارض المحتلة ٩٦ ألفاً حسب الاحصاءات الرسمية، وان الوضع الاقتصادي في سبيله الى الانحدار السريع، وان الحكومة الاسرائيلية أعجز من ان تنقذ الوضع بل حتى ان تدير الامور بشكل مقبول . وتلا ذلك سلسلة من المناقشات والخصومات شاركت فيها الصحافة البريطانية التي اخذت (تتمادى) تدريجياً في كشف حقيقة الوضع في الارض المحتلة ، حتى ظهرت فيها مقالات (جريئة) حقاً ولاسيما الاوبزرفر والصنداي تايمز .

لقد تكشفت الازمة عن حقائق كثيرة كانت مستورة حتى الآن بسبب سيطرة الصهيونية على الصحافة الغربية وأهم هذه الحقائق :

اولا : الانشقاق بين الحركة الصهيونية العالمية واسرائيل الدولة :

وهذا امر متوقع تاريخياً، وقد آن اوانه . ان اسرائيل (دولة لها مصالحها وواقعها ومصاعبها) والحركة الصهيونية تجمع رأسمالي شوفيني ، يعتقد انه خلق الدولة وعليه الاستمرار في مساعدتها بشرط ان يكون له حق الاشراف عليها طبعاً . ولكن السنوات التسع عشرة الماضية اثبتت أن مصالح الطرفين لايمكن ان تستمر متطابقة ، ولو كانت كذلك لهاجر الرأسماليون الصهاينة الى (أرض المعاد) ووضعوا مصيرهم ومصيرها في كفة واحدة. او على الأقل لكانوا ارسلوا بعض اموالهم لاستثمارها هناك ، وهذا مالم يحدث الا على اضيق نطاق . ثم انهم دفعوا لاسرائيل كثيراً على أمل ان تصبح في المستقبل مركزاً لسيطرتهم المالية والصناعية على المنطقة ولكن (اسرائيل) خيبت املهم ، واكدت لهم بظروفها الحالية المحتمة انها ستبقى عالة عليهم، وسوف تؤثر دائما على مواقفهم الداخلية في البلاد الرأسمالية التي يقيمون فيها ، وبالتالي على مصالحهم المالية وهو أمر لايمكن ان يتساهلوا بشأنه .

ولقد اشارت الجرائد البريطانية الى هذا الانشقاق. وقالت الاوبزرفر (١٢ آذار): إن الصحافة الاسرائيلية تعكس وجود أزمتين : **الاولى** أزمة بين اليهود داخل (اسرائيل) **والثانية** أزمة بين اسرائيل ويهود العالم .

ثانياً : وصول الاقتصاد الاسرائيلي الى نقطة التوقف المحتمة :

ان ازمة الاقتصاد الاسرائيلي ليست أزمة

عارضة ولكنها علامة الموت لاقتصاد مصطنع بني على نبعين في طريقهما الى الجفاف ، والنبع الاول هو الهجرة البشرية المستمرة الى الارض المحتلة . وتفيد الاحصاءات ان القادمين الى اسرائيل سنة ١٩٦٦ بلغوا عشرين ألفاً والمهاجرين منها بلغوا ١٤ ألفاً ومعنى ذلك ان هذا الرافد تضاءل من ١٠٠ ألف في بعض السنوات الماضية الى ٦ آلاف في العام الماضي . ويزيد الامر خطراً ان المهاجرين خارج الارض المحتلة معظمهم من الاوروبيين الاختصاصيين الذين ضاقت بهم سبل الحياة في مجتمع غير طبيعي .

والنبع الثاني هو المساعدات الاجنبية التي اخذت تتضاءل بالتدريج وقد لخص دافيد هورلدن نتيجتها بكلمة مركزة :

(نقص المعونة الاجنبية يعني نقص النقود ، ونقص النقود يعني عدم القدرة على اغواء المهاجرين ، ونقص المهاجرين يعني تضاؤل الاسواق ، وتضاؤل الاسواق يعني تضاؤل العمل ، وتضاؤل العمل يعني تضاؤل النقود ، وهكذا تأخذ السلسلة الانحدارية بعضها برقاب بعض لتقوض عدداً كبيراً من الاسس التي قامت عليها دولة اسرائيل) .

ثالثاً : توقف المد الفكري الصهيوني ، وبدء مرحلة الانحسار المعنوي :

ففي الماضي استطاعت الدعاوة الصهيونية ان تصور اسرائيل حلماً ذهبياً ، وان تضفي طابعاً من المثالية على نشأتها العدوانية . ولكن لاشيء يبدد الاوهام كالوقائع . وباعتراف اليهود انفسهم انه لم يبق هناك من يؤمن باستقطاب اسرائيل ليهود العالم سوى عدد قليل من المتحمسين مثل بن غوريون ، بعد أن تحولت (الدولة المنشودة) الى جزيرة مغلقة في وسط لايمكن ان يتقبلها على أي وجه ، وقوام حياتها الازمات الاقتصادية والفوضى الاجتماعية .

رابعاً : إخفاق الدولة الصهيونية في صهر المهاجرين في بوتقة واحدة :

إن اسرائيل اليوم (دولة ذات عدة قوميات Multi - Nation State) ولا يحتاج الانسان الى شواهد كثيرة ليميز وجود قوميتين واضحتين تماماً ومتصارعتين في الارض المحتلة وهما اليهود الغربيون واليهود الشرقيون . والأولون اقوياء ومسيطرون على الجيش والحكم ، والآخرون - وهم أكبر عدداً بلا ايتقاس - مستضعفون ومضطهدون . والمسؤولون الصهيونيون لايحرصون على اخفاء هذه الحقيقة ، وهم يصرحون بأن اسرائيل يجب ان تبقى اوروبية . ومعنى ذلك أنهم يجب أن يسيروا على نمط افريقية الجنوبية وروديسيا .

ان ذلك الكل الاجتماعي الاقتصادي البشري الذي يطلق عليه اسم دولة اسرائيل إنما هو مجموعة من العلاقات الديالكتيكية المتداخلة التي لم تنشأ بفعل القانون الطبيعي ؛ ولذلك يصعب بل يستحيل على أية قيادة ان تتحكم فيها او ان توجهها نحو هدف تطوري مرسوم . واذا كان يحلو لبعض منتقدي

اسرائيل من الصهيونيين أن ينسبوا الازمة الى ضعف النظام السياسي ، او الى عجز وزارة معينة أو حزب معين؛ فنحن نعتقد ان ذلك ليس الا نوعاً من التمويه . على انه من السذاجة بمكان ان نتخيل ان هذا الكلام يعني ان اليهود سيرحلون عن فلسطين ، وقد بدؤوا يكتشفون الحقيقة ،بل يجب ان نتوقع من جانبهم أسوأ ردود الفعل الممكنة ، ردود فعل اليائس والمقضي عليه واللامسؤول .

سيرة برتراند رسل

The Autobiography of Bertrand Russel

لم ترافق ظهور سيرة برتراند رسل تلك الضجة الكبرى التي ترافق عادة ظهور ترجمات المشاهير في مختلف حقول المعرفة في العالم . وبالرغم من ان مواقف برتراند رسل السياسية يمكن أن تعد من الأسباب التي دفعت الصحافة الادبية البريطانية الى محاولة الايحاء الى القارىء بأن ظهور سيرة رسل حادث فكري من الدرجة العادية (تمثل ذلك باختصار المراجعات التي كتبت عنه ، وتجنب اعطائها موضع الصدارة) فلا بد من الاعتراف بأن هناك بعض الأسباب الوجيهة التي مكنت الصحافة من تغطية موقفها الذي كان يتضمن الغمز من رسل وأسرته كلما سنحت الفرصة .

من أهم هذه الأسباب أن (رسل) سبق ان نشر تجربته الفلسفية وتطوره الفكري ومراسلاته مع أصدقائه الكبار وايتهيد وكونراد وويبر ولا سيما في كتابه (صور من الذاكرة Portraits From Memory) . وهذه المادة نفسها تشغل اكثر من مئة صفحة من السيرة الجديدة . ثم ان النصف الاول من السيرة هو مجموعة من الرسائل التي تلقاها (رسل) من أصدقاء وأقرباء وأشخاص مختلفين قد لايهم القارىء ماكتبوه لرسل بقدر مايهم ماكتبه هو إليهم .

وبالطبع ، تحمل سيرة رسل أدوار حياته الشخصية ولا تتعرض لتفكيره الامن خلال الأحداث والانفعالات التي نجمت عنها اراؤه . ولعل من أطرف هذه الأحداث مارافق تأليفه لكتابه (مبادىء الرياضيات Principa Mathematica) . ففي عام ١٩٠٢ انتهى الفيلسوف من تدوين آرائه في المنطق والرياضيات في مئتي ألف كلمة مرصوفة بأسلوب جميل . وقضى بعد ذلك ثمانية أعوام من العمل المتواصل في حدود (١٠-١٢) ساعة يومياً ليكتب مبادئه ومعتقداته في أسلوب تعليمي شكلي الى أقصى حد . وكان يعيش اثناء ذلك في الريف مع زوجته أليس وكانت النتيجة الطبيعية ان انتهى زواجهما بالاخفاق ولا سيما منذ سنة ١٩٠١ اذ انقطعت الصلة الجنسية بينهما ، وتبع ذلك انهماك رسل في العمل ثم مأساته المالية ، حيث اضطر بعد كل هذا العناء الى دفع (٥٠) جنيهاً (مساهمة) منه في طبع الكتاب الـ

ومن الأمور المهمة التي يستنتجها المرء من الكتاب أن (رسل) لم يصبح رسمياً (زميلاً مقيماً) في كامبردج حتى سنة ١٩١٠ إذ عمل محاضراً في كلية ترينتي Trinity، مع أن اتصاله بكامبردج بدأ سنة ١٨٩٠ واستمر على فترات مختلفة، وهذه الحقيقة تدفعنا الى اعتباره خاتمة تلك السلسلة من المفكرين البريطانيين التجريبيين البعيدين عن الأكاديمية مثل لوك وهيوم وميل ممن مارسوا الفلسفة والفن باعتبارهم أدباء مستقلين. وهذه الحقيقة تتفق اتفاقاً كاملاً مع الشمول الهائل لاهتماماته العامة وعواطفه الانسانية ومواقفه المستقلة الجريئة.

كانت رسائل برتراند رسل لطيفة وبسيطة كما أن حديثه عن فتوته مفعم بالبساطة التي يؤخذ بها المرء ويحترمها.

على أن القارىء العربي لا يستطيع أن يتخلص من الغصة التي تلازمه كلما تابع باعجاب مواقف الفيلسوف العجوز المعاصرة. لماذا يحاكم جونسون ومجرمو حرب الفيتنام أمام محكمة التاريخ، بينما يسكت ضمير القاضي الانساني عن جرائم الصهيونيين إن لم نقل انه يفهمها على غير حقيقتها.

تصفية امبراطورية

تعليقاً على ما ذكرناه في العدد الماضي عن جمود الفكر السياسي في بريطانيا لابد لنا من التنبيه الى أن اقصى حالات الجمود موجودة حتماً في غرف وزارة الخارجية البريطانية، وأخف الحالات يمكن أن توجد في مكاتب مراسلي الصحف البريطانيين في آسية وافريقية حيث يضطر عدد منهم – لا كلهم ولا معظمهم – أن يواجهوا الحقائق وأن يحاولوا فهمها. ونستطيع أن نعتبر (كير كان) مراسل التايمز في افريقية واحداً من هؤلاء على الاقل في نظرته الى الامبراطورية البريطانية.

ينتقد كير كان في كتابه الجديد: تصفية إمبراطورية: Uns crambling an Impire السياسة الاستعمارية البريطانية في عشر سنوات (١٩٥٦ – ١٩٦٦) من زاوية معينة هي اخفاق هؤلاء الساسة في عملية انهاء الاستعمار وتصفية التراث الامبراطوري نتيجة لعجزهم عن ادراك حقيقة تاريخية كبرى وهي أن الامبريالية المتهاوية ليس لها خيار في الذين يرثونها، فالسلطة تنتقل عادة الى اكثر الناس استعداداً لتوليها: اي الى القبيل الأقوى او الحزب السياسي الأشد تصميماً. والفراغ لا يملء بالدساتير الورقية ولكن بالقوى الضاربة. وهكذا تكون وزارة الخارجية البريطانية متحفاً للآثار عاجزاً عن التعامل مع قوانين الحياة الحديثة.

لقد رأى كير كان بنفسه خلال عشر سنوات من عمله مراسلاً للتايمز في افريقية كيف اخذت بريطانيا تتراجع من موقع الى آخر معطية وعوداً لا تتحقق، متخلية عن الأقليات وعاملة بمنتهى الوقار على اصطناع دساتير لشعوب تعرف بريطانيا سلفاً أنها مصممة على عدم العمل بهذه الدساتير.

ومع أن كير كان لا يتعرض مباشرة لفشل

بريطانيا في تكييف نفسها داخلياً (كما يقول دوغلاس براون)، فانه لايغفل من ايراد ملاحظة مهمة جداً ، وهي ان القصور – كما اوضحنا في العدد الماضي عن المعرفة – يعود الى تخلف العقلية السياسية . "لقد تم تراجع بريطانيا خلال السنوات العشر الماضية على يد وزراء من حكومة المحافظين ،ولكن كيركان يعتقد ان الامر ما كان ليتغير لو ان المسؤولين كانوا من العمال في فترة التصفية الاجبارية للامبراطورية . ان هذا الكلام يذكرني بحديث للادي غايتسكل ، وهي من الاعضاء البارزين في الوفد البريطاني الدائم لهيئة الامم المتحدة. ففي مقابلة لها اذاعتها الاذاعة البريطانية في (١١ نيسان) علقت السيدة غايتسكل على انسحاب بعثة هيئة الامم المتحدة من اليمن بقولها : ان ذلك كله من تدبير المصريين وقد آن لنا ان نفهم ان المصريين يكرهوننا بالفعل ويعملون على احتلال مواقعنا في الشرق الاوسط تشاركهم في ذلك شعوب اخرى في المنطقة .

ان انفعالات السيدة غايتسكل لم تسمح لها ان تبحث عن الاسباب . ليتها تقرأ كتاب كيركان .

قصص :

من بين السيل الهائل من الانتاج القصصي الجديد يمكن ان نشير الى كتابين حمل كل منها الى القارىء نكهة خاصة ، وهما :

١ – هل نستطيع استعارة زوجك ؟ تأليف غراهام غرين

May We borrow your Husband ? by G ahim Greene

٢ – اريد لعبة سوداء لفرانك هيركولز .

I Want a Black Doll by Frank Hercules

ولعل غراهام غرين من اكثر الكتاب شهرة في البلاد العربية، وقد ترجم قسم كبير من انتاجه الى اللغة العربية . ويعتبر الكاتب الوحيد الذي استطاع منذ ديكنز ان يجمع بين مستويات مختلفة من الطموح الادبي، وان يحافظ في الوقت نفسه على درجة محترمة من الاجادة . فقد اسهم في حقول القصة القصيرة والرواية والمسرحية . وهو يبدو محترفاً جداً وماهراً اذا قورن بالكتاب الكبار الذين كان لهم مثل طموحه الادبي كسمرست موم مثلا.

وفي مجموعته هذه بعض القصص والتمثيليات المرحة في موضوع الحيــاة الجنسية ، وهو موضوع يقدم للكتاب الغربيين دائما مجالات جديدة . وقد اثبت غرين دائماً انه يستغل الحكاية الهزيلة الى ابعد حدود الاستغلال الفني مع ميل واضح الى المرح الذي لايبلغ درجة الاضحاك .

اما رواية فرانك هيركولز فهي ايضاً تعالج موضوعاً غنياً بالنسبة للقاص ، وهو زواج البيض والسود . والطبيب الأسود هنا يتزوج فتــاة بيضاء كانت مصابة بحالة عصبية في طفولتها تدفعها دائماً الى الالحاح

في طلب لعبة سوداء ، وقد ساعدت طبيعة القصة كاتبا على تقديم تجربة نفسية جديدة حول مشاعر الشريك الأبيض في الزواج المختلط . كما أن الكاتب يلقي ضوءاً على العلاقات النفسية بين زنوج أمريكا والهنود الحمر . والقصة مفعمــة بالحيوية . على ان الانسان غير الأبيض يصعب ان يستمتع بهـا استمتاعاً كاملاً مالم يعزل عن ذهنه موضوع التمييز العنصري ومآسيه النفسية . وهيهات .



مطبوعات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

التي تقوم بتوزيعها دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

قصة الارض في سورية	منير الشريف
المحكم في نقط المصاحف	أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني تحقيق د. عزة حسن
برنامج شيوخ الرعيني	أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني، الاشبيلي - تحقيق ابراهيم شبوح
ديوان ابن مقبل	تحقيق د. عزة حسن
مقدمة في النحو	خلف الاحمر تحقيق عز الدين التنوخي.
تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب	ابن الفوطي - تحقيق د. مصطفى جواد (الجزء الرابع الأقسام ١-٢-٣)،
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى	محمد بن طولون الصالحي الدمشقي تحقيق محمد احمد الدهمان
الأزمنة والانواء	ابن الاجدابي تحقيق د. عزة حسن
قصة الجلاء عن سورية	
روضة الورد	سعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
روائع من الشعر الفارسي	سعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
دورة الربيع	سعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
محافظة السويداء	شبلي العيسمي وحمود الشوفي وداوود نمر
تاريخ المعرة	(جزءان) سليم الجندي تحقيق عمر رضا كحالة

محافظة حماه	مؤيد الكيلاني
حكاية جوقة التماثيل	سعد الله ونوس
تحت سماء الاندلس	زكي قنصل
الفن والأدب	لويس هورتيك ترجمة د. بدر الدين القاسم الرفاعي
أحاديث العشيات	د. عبد السلام العجيلي
اتجاهات الفنون التشكيلية	عفيف بهنسي
فن العرائس وتحريكها	بوجو كوكوليا ترجمة نجاة قصاب حسن
الفولكلور الغنائي عند العرب	نسيب الاختيار
محاضرات الموسم الثقافي	(الاجزاء ٤ - ٥ - ٦ - ٧)
الشمس الغاربة	أسامو دازاي ترجمة فائز بشور
قال الراوي	الياس فرحات
زهرة النار	عبد الكريم الناعم
الموقع الستراتيجي العربي	هيثم الكيلاني
شرح ديوان عروة بن الورد	تحقيق عبد المعين الملوحي
الاشتراكية في البلدان المتخلفة	محمد الجندي
مسرحية الحياة حلم	كالدرون ترجمة نجاة قصاب حسن
اللاميتان	الشنفرى والطغرائي
الأسطورة اليونانية	فؤاد جرجي بربارة
حبات زمرد	شفيق المعلوف
مسرحية البقة	فلاديمير ماياكوفسكي ترجمة عماد حاتم

مئة قصيدة من روائع الشعر الحديث	ترجمة سليمان العيسى وناديا الياس
مسرحية سيدة الفجر	الخاندرو كاسونا ـ ترجمة علي الاشقر
غوطة دمشق	صفوح خير
العلم البارحة واليوم وغداً	مارسيل داغر
كيف نكتب تاريخنا القومي	تحقيق مجلة « المعرفة »
الحمامات الدمشقية	منير كيال
ديوان الشاعر المدني	قيصر سليم الخوري
درب الواحة (شعر)	علي كنعان
الثعلب والعنب (مسرحية)	جول هرم فيجويردو ترجمة فيصل الياسري
كتاب الطبقات ـ القسم الأول	خليفة بن خياط ـ تحقيق سهيل زكار
المنصفات	جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي
أسس النقد الأدبي (٣ أجزاء)	تبويب : شورر ، مايلز ، ماكنزي ترجمة هيفاء هاشم
الناجون (مسرحية)	جيرهارد هاوبتمان ـ ترجمة محمد جديد

- حول المسرح المغربي
- المساعدات الامريكية لاسرائيل
- ربط الاجر بالانتاج في المجتمع الاشتراكي

عرض وتقديم هـ. د.

حول المسرح المغربي *

اصدرت مجلة «آفاق» المغربية عدداً خاصاً عن المسرح، نشرت فيه نماذج من الانتاج المسرحي المغربي، ودراسات حول المسرح في المغرب العربي. ومن جملة هذه الدراسات اخترنا دراسة قيمة للأستاذ عبد الله شقرون حول المسرح العربي بصورة عامة والمسرح المغربي بصورة خاصة. وقد اختار الاستاذ شقرون لهذه الدراسة عنواناً مسهباً هو: مشاكل تطور انتاج المسرح العربي على ضوء التجارب المغربية.

* عن مجلة آفاق (وهي مجلة يصدرها اتحاد كتاب المغرب العربي) – السنة الثالثة – العدد الرابع – ١٩٦٦.

وفيما يلي عرض لهذه الدراسة الضافية التي تلقي الضوء على مشكلات المسرح بصورة عامة :

لاتنتعش الحركة التمثيلية العربية فترة إلا وتعود الى السكينة ثانية وتكاد تحتضر؛ حتى اصبحت الفترات التي ازدهر اثناءها المسرح العربي في بلاد المشرق او المغرب معدودة ومحدودة . نعم ان المسرح العربي ليس معدوما ولكنه في ازمة . ويتساءل الاستاذ شقرون لماذا نحن مقصرون ؟ لماذا يوجد الشعب الشرقي ، شعب القصص العجيبة والشعر الغنائي والخيال الخصب في مؤخرة القافلة ؟ ان السبب هو عدم الترابط ، أو كما يسميه كاتب المقالة (الحلقة المفقودة) بين الماضي والحاضر. ونحن لانعتمد على تقاليدنا أساساً وبنياناً ، كما يعتمد المسرح الاغريقي على مخلفات سوفوكليس واريستوفان ، او كما يعتمد المسرح الانكليزي على شكسبير او المسرح الفرنسي على راسين وموليير .

لقد نقلنا هذا الفن عن اوروبا ؛ وليس في هذا عيب مادمنا قد نقلنا عن أوروبا الكثير ، ولكن العيب في استمرار فكرة النقل والاقتباس عن اوروبا. فاصبح الاقتباس عقدة فينا أقعدتنا عن الخلق والابداع . فنلاحظ مثلاً نشاطاً في الترجمة والنقل ، بينما نلاحظ فتوراً في التأليف المتين والوضع الاصيل . وهنا تكمن أزمة المسرح العربي .

وينتقل الاستاذ شقرون بعد ذلك الى الحديث عن اثر الميلودراما على المسرح العربي او ما يدعوه هو بجناية الميلودراما .

فاللون الجدي (الدراما) يندر في المسرح العربي ، بقطع النظر عن بعض المترجمات ، أما اللون الذي افسد المسرح وأذواق جمهور المسرح فهو الميلودراما. اننا في المغرب العربي (تونس ، الجزائر ، مراكش) تأثرنا بالفن المصري وخاصة السواد الاعظم من العامة . بيد ان هذا التأثر لم يكن تأثراً بالفن المسرحي الصحيح . لقد اكثر يوسف وهبي من المجازر والقتل والتحبيب والشذوذ مما هو بعيد عن الفن المسرحي ، وانه كان يبذر بذار الفضائل ، حتى بات بعض هواة المسرح يعتقدون أن « الميلودراما » هي أصلح ألوان المسرح للوسط العربي باعتبارها جامعة بين مواقف الخفة والشدة . وما دروا ان ذلك هو التهريج بعينه ، وهو ما حاربه رجال المسرح في اوروبا منذ عشرات السنين ، وهو ما تنبه له المصريون انفسهم اخيراً وعادوا الى المسرح موحد اللون ، ان مأساة فأساة وإن ملهاة فلهاة .

لقد سبق مسرح رمسيس الذي قدم مسرحيات مثل (اليتيمتان) و (اولاد الشوارع) و (المجنون) و (بيومي أفندي) نجحت في استدرار دموع الجماهير وآهاتها ، مسرح عربي واع هو مسرح الشيخ سلامة حجازي الذي يذكره القدماء بمزيد من الفخر . لقد قدم المسرح العربي قبل رمسيس مسرحيات عربية تاريخية رصينة مثل (صلاح الدين

الايوبي) و (هارون الرشيد والبرامكة) و (غفران الامير) . ولكن تيار رمسيس كان اقوى واشد ، فسار الشبان المغاربة في ركب هذه القافلة وانبعثت في المغرب العربي حركة لتقليد الميلودرامات من حيث المواضيع والاداء والافتعال . وكان نهج الميلودراما سببا في تفاحش مشكلة المسرح العربي الذي يفترض فيه التوجيه ونشر الذوق الرفيع .

والنقد الثاني الذي يوجه الى المسرح العربي بصورة عامة هو قلة العمق في المواضيع العامة للمسرحيات . وكثيراً مايقال بأن الجماهير المتذوقة لهذا اللون من المسرح قليلة ، وكذلك الممثلون القادرون على أدائها من قلة ايضاً . وفي هذا القول نصيب من الصواب ، اذا عرفنا مفهوم العوام للمسرح وصعوبة ادراكهم وتذوقهم للمواضيع الجدية الرصينة التي لايمكن اداؤها الا بلغة عربية فصيحة . فقد نجح الممثل العربي في اداء ادوار مسرح (الفودفيل) وادوار الكوميديا لأنها ادوار خفيفة تعتمد على تشابك المواقف ونكات الحوار ، تؤدى كلها باللغة الدارجة ، بخلاف لو كان الأمر يتعلق بتشخيص مآس أو اداء مسرحيات ذات حوار عربي جدي وموضوع فكري قوي .

التأليف والمؤلفون :

تلك هي بعض المشكلات التي تعترض طريق المسرح العربي . وتبقى هناك المشكلة الازلية ، وهي مشكلة التأليف والمؤلفين . فبالرغم من استمرار الحركة المسرحية في انحاء مختلفة من العالم العربي فان الانتاج المسرحي العربي الحقيقي لازال ضئيلا يتعثر في خطاه ولازال المؤلفون قليلين يعدون على الاصابع . ثمة اسماء لامعة في سماء المسرح العربي مثل توفيق الحكيم ومحمود تيمور وعلي احمد باكثير وهناك احمد شوقي وعزيز اباظة في المسرح الشعري . وقد ساعدت وسائل التعريف المصرية - بالاضافة الى امكاناتهم الأدبية والفنية - على نشر انتاج هؤلاء المؤلفين بشكل واسع . وهذا لايعني انه لايوجد في باقي الاقطار العربية مؤلفون مسرحيون من ذوي السمعة الادبية والنجاح الفني . ولكن صيتهم لم يذع واسماءهم لم تلمع لضعف وسائل التعريف وتقصيرها في تلك الاقطار . ولكن الازمة تبقى موجودة مع هذا والانتاج يظل ضئيلا .

أطر المسرح العربي :

ويعني الكاتب بعبارة أطر المسرح هيئة المسرح كاملة من مخرجين ومصممي ديكور وملحنين وفنيين .. الخ . والمسرح العربي يشكو كذلك من النقص في الكادر الفني وخصوصاً في المخرجين الاكفاء . فالاخراج تفهم دقيق لشخصيات المسرحية ، ومعرفة تامة بتقنية التمثيل ، وعملية خلق لاتقل عن خلق المسرحية ذاتها . ومن هنا جاءت اهمية المخرج الجيد . ونظراً لحداثة المسرح العربي وخاصة في بلدان المغرب ، فان المخرجين الشبان

غالباً ماتنقصهم التجربة الانسانية والمعرفة بشؤون وسطهم وثقافتهم الوطنية ولذلك قلما يقدرون على ابراز النفسية العربية والاسلامية .

المباني والتجهيزات المسرحية :

وتأتي عقبة اخرى لتقف في وجه المسرح العربي وتزيد من عثراته ، وتحول دون تمتع الجماهير بفن التمثيل المسرحي . تلك هي نقص المباني المسرحية المجهزة تجهيزاً كاملا . وهذا النقص موجود في البلدان العربية كافة ، وباستثناء العاصمة تجد باقي المدن في القطر الواحد تفتقر الى المسرح بالمعنى الصحيح . ومسؤوليات الحكومات العربية جسيمة في هذا الشأن . ولاينتظر من رأس المال الخاص القيام بمثل هذه المهمة مادامت لاتدر عليه الربح السريع ، ومادامت تكلف تكاليف باهظة . ان المسرح ضرورة اكيدة لنشر الثقافة والتوجيه ، ولاتقل اهميته عن التربية والتعليم ؛ وهو (صيغة) تهدف الى تربية جماعية وهو (مدرسة شعبية) ، ولكن وسائل التعيش منه غير مضمونة سواء بالنسبة للفنانين او المنظمين . فمن واجب الحكومات ، والحالة هذه ، رعايته والاخذ بيد القائمين عليه من مؤلفين ومخرجين وفنيين . فالاهتمام الحالي من الحكومات العربية ضعيف ، ولا يبشر بنهضة مسرحية تمتد الى آفاق بعيدة .

خلاصة وخاتمة :

ذلك عرض سريع لأهم مايواجه المسرح العربي من مشكلات ، وما يعترض طريقه من عقبات . بقيت هناك حقيقة واضحة لابد من الاشارة اليها ، وهي ان العرب مع الاسف لايعملون على تربية النشء على حب التمثيل والفن المسرحي . فلو كانت المدارس والمعاهد العلمية في بلادنا تعود النشء على دراسة النصوص المسرحية في مناهجها التعليمية لنشأ عندنا جيل متذوق محب للمسرح .

المساعدات الأمريكية لاسرائيل

نشرت مجلة دراسات عربية في عدد نيسان (ابريل) – ١٩٦٧ مقالاً للاستــــاذ انطون بطرس تحت عنوان (المساعدات الأمريكية لاسرائيل) جاء فيه :

كثيراً مايطلق على اسرائيل بانها ولاية اميركية على المتوسط . والذين يحلو لهم اطلاق هذه التسمية على اسرائيل ، لايغالطون الواقع ولا يتجنون على الحقيقة . فالعلاقة بين البلدين وثيقة ، ولقد كان لها اثر تاريخي كبير على اسرائيل .

وسط هذه العلاقة المتشابكة يبرز جانب المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تمنحها الولايات المتحدة لاسرائيل ، والدور الذي لعبته هذه المساعدات في بقاء وتطوير وانماء وضمان دولة وامن ومستقبل اسرائيل . فقد بلغ معدل ماوقع على الفرد الاسرائيلي من هذه المساعدات بين ١٠٠ – ٢٥٠ دولار ، وبلغت ٣٠٠ مليون دولار كل سنة من السنوات الاثنتي عشرة الاولى من قيامها ، ونالت على الرغم من صغر رقعتها ، وقلة عدد سكانها ، ضعف مانالته جميع البلدان العربية في الفترة ١٩٤٨ – ١٩٥٩ ، حتى ضربت هذه المساعدة عرض الحائط بجميع المقاييس والقواعد ، اذ شكلت ارفع نسبة من المعونة التي تقدمها الولايات المتحدة لأي بلد في العالم .

كل ذلك يعطي المساهمة الاميركية في دعم اسرائيل اقتصادياً وعسكريا اهمية خاصة ، على الرغم من انها ليست المعونة الوحيدة التي تتلقاها هذه الدولة . والغاية من هذه الدراسة استعراض المساعدات الاقتصادية ومعها المساعدات العسكرية الاميركية الرسمية لاسرائيل .

حاجة اسرائيل للمعونة :

على انه من الضروري بادىء ذي بدء ان يستعرض المرء حاجة اسرائيل للمعونات الخارجية ، ومداها واحجامها ، كي تتم دراسة

(*) عن مجلة دراسات عربية [مجلة البنانية شهرية تعنى بالدراسات الفكرية والاقتصادية) تصدر عن دار الطليعة في بيروت .

موضوع المساعدات الخارجية المقدمة لاسرائيل ضمن اطارها الطبيعي .

هناك عوامل عديدة تحدو باسرائيل الى الاعتماد المفرق على المعونات الخارجية وهي :

أولاً : ان اسرائيل بلد فقير بالموارد الطبيعية، فان ٥٠ ٢ بالمئة من اراضيها قابلة للزراعة، و٥٠ ٣ بالمئة من هذه المساحة مروية، ولا يمكن توقع زيادة المساحة المروية الا بابتكار وسيلة رخيصة التكاليف لتحلية مياه البحر . اما المواد المعدنية (واهمها النحاس والبوتاس والفوسفات والاسفلت والكبريت والنفط والغاز الطبيعي) فهي قليلة جداً ومحدودة . وقد ادى فقر اسرائيل بالمواد الخام وتعذر حل مشكلة المياه الى تضاؤل الزيادة في الانتاج الزراعي والمعدني، لا بل ان الانتاج الزراعي عاد لا يسير مع نمو باقي قطاعات الاقتصاد . كما وان النمو السكاني وزيادة الاستهلاك الفردي للغذاء، زادا على نسبة زيادة الانتاج الزراعي التي بلغت – في السنوات الثماني الاخيرة – ٥٠ بالمئة (١) .

ثانياً : ان اسرائيل قد التزمت بسياسة استقبال المهاجرين اليهود من جميع انحاء العالم ، وبتأمين الرفاه للقادمين الجدد والمواطنين فيها على السواء ، وتوفير الخدمات العامة السخية ، ورفع مستوى الاستهلاك الخاص مع ارتفاع الدخل وفي حدود تتعدى امكانات الاقتصاد الاسرائيلي .

ثالثاً : ان اسرائيل تجد نفسها مجبرة ، نتيجة لانعدام المواد الخام التي لابد من توفيرها للقاعدة الصناعية ، **ان تستورد المواد الخام من الخارج ، وتعيد تصديرها فيما بعد** . وقد بلغت المواد الخام والبترول ٦٧ بالمئة من مجموع واردات اسرائيل في السنين الاخيرة ، وبلغت صادراتها البترولية والبتروكيميائية ٧٧ بالمئة من صادراتها في عام ١٩٦٥ . مما يعني ان الاستيراد كان ولا يزال عاملاً اساسياً في الصادرات الاسرائيلية . وهو امر لايمكن ان يتم ويستمر بدون المعونات والاستثمارات الخارجية والقروض .

وقد ادى ذلك – جنباً الى جنب مع حاجة اسرائيل الى رأس المال وسعيها للكفاية الذاتية في انتاج المواد الغذائية والمواد الخام – الى حصول ثغرة كبيرة في ميزان المدفوعات الاسرائيلي بلغت ما بين ٢٥٠ – ٣٠٠ مليون دولار في السنة .

---

(١) مروان اسكندر : « المقاطعة العربية لاسرائيل » (بالانكليزية) . منشورات مركز الابحاث . بيروت . تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦ .

رابعاً : ان الاقتصاد الاسرائيلي لم يستطع طيلة حياته ان يؤمن من جهوده وموارده كافة لوازم الاستهلاك الخاص والحكومي واهتلاك الرساميل[١] .

لا بل ان اسرائيل « دولة اصطناعية » (٢) على حد تعبير هالفورد هوسكنز — استاذ الدراسات الاقتصادية في الجامعة الاميركية بواشنطن — و « اقتصاد غرفة زجاجية لتنمية الخضار والازهار في ظروف اصطناعية » كما يقول الدكتور يوسف صايغ (٣) .

خامساً : ان اسرائيل بالرغم من كل ذلك، تريد الاحتفاظ بجيش مدرب كامل حديث وكبير ، وترصد له ميزانية ضخمة (بلغت ٢٢،٤ بالمئة من الميزانية المعدة للسنة المالية ١٩٦٧ — ١٩٦٨).

لهذه الأسباب فان الاقتصاد الاسرائيلي لم ولا يقارب درجة الاستقلال التي تخف فيها الحاجة الى المعونات الخـارجية ، التي كانت مسؤولة عن تحقيق نمو مرموق في الاستهلاك ومستوى المعيشة. ذلك ان اسرائيل استطاعت ان تجعل انتاجها الصناعي والزراعي يرتفعان بنسبة ٣،٥ اضعاف ليتلاءما مع زيادة السكان التي ارتفعت في عام ١٩٦٥ (٣٦٣) اضعاف ما كانت عليه عند قيام اسرائيل . كل ذلك بفضل المساعدات الخارجية التي تدفقت عليها عاماً بعد آخر ، مما جعل اسرائيل « البلد الوحيد في العالم الذي كانت فيه كمية المساعدة من جميع المصادر كبيرة لدرجة تثير التساؤل حول قدرته على امتصاص هذه المساعدة بفعالية »(٤) .

فالمعونات الخارجية بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي كانت ولا تزال بمثابة العصا السحرية، على حد تعبير الدكتور يوسف صايغ ، التي جعلت بالامكان تحقيق الرخاء خلال حالة من الافلاس المادي . فالرصيد الاستيرادي اي زيادة الواردات عن الصادرات عن طريق العجز في ميزان المدفوعات ، والذي مكن ورود المعونات والهبات، هو الذي دفع الفرق

(١) الدكتور يوسف صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلي ، طبعة ثانية ، تشرين الثاني ١٩٦٦ منشورات مركز الابحاث ، بيروت .

(٢) الشرق الاوسط منطقة ازمات في السياسة الدولية . نيويورك ، ١٩٥٨ .

(٣) « الاقتصاد الاسرائيلي في الميزان » ، التقرير الاقتصادي العربي ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦١ .

(٤) هيلان لكيفلاند ، التوتر في الشرق الاوسط ، بلطيمور ١٩٥٨ (نقلاً عن نشرة « المساعدات الاميركية والالمانية الغربية لاسرائيل » لمركز الابحاث) . بيروت . تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٦ .

بين السلامة الاقتصادية والاصطناع. ويستدل من تقرير فولك عن الحقبة الاولى من تاريخ اسرائيل، ان الرصيد الاستيرادي هذا اوصل الديون الاجنبية لاسرائيل الى حوالي نصف بليون دولار في الفترة ١٩٥٠–١٩٥٨ (١).

والحقيقة ان اسرائيل سعت في شباط (فبراير) ١٩٦٢ الى ان تقلص مدى اعتمادها على العون الخارجي، بحيث تتمكن من أن تـدبر أمرها بعون مقداره ٢٥٠ مليون دولار فقط. ويعتبر بعض الاقتصاديين (٢) هـذه التجربة الحدث الاكبر الذي تميزت به فترة ١٩٤٨ – ١٩٦٢ من تاريخ اسرائيل. وكانت ترتكز على التقشف، وعلى المزيد من الحرية الاقتصادية خاصة في حقل التجارة الخارجية ومعاملات القطاع الاجنبي، الا أن نجاحها تعذر، ولم يطبق إلا جزء بسيط جداً منها، وذلك انه في الاحـد عشر شهراً التي اعقبت اعلان هذه السياسة لم تصح الفرضيات التي قامت عليها الخطة، وخاصة من حيث خفض الاستهلاك، وأكدت بالتـالي استحالة استقـلال الاقتصاد الاسرائيلي عن العون الاقتصادي الخارجي.

منذ عام ١٩٦٤ وحتى اليوم، فان الأزمة الاقتصادية التي اصابت اسرائيل جعلت من المستحيل عليـا الاستغناء عن المساعدات الخارجية، او انقاص معـدلها. والموازنة الاسرائيلية المقترحة للسنة المالية ١٩٦٧ – ١٩٦٨، والبالغة قيمتها ٥١٣٠ مليون ليرة اسرائيلية (الليرة الاسرائيلية تقارب الليرة اللبنانية) تشير الى ان الدين الداخلي والخارجي يشكل ١٦٤٢ مليون ليرة اسرائيلية من أصل ايرادات الدولة، بمعنى ان القروض الخارجية والداخلية تشكل حوالي ثلث الايرادات. وتبلغ القروض الخارجية المقترحة وحدها، في الميزانية مـا يتراوح بين ٧٩٦ و ٩١١ مليون ليرة اسرائيلية (٣). والنـاظر الى العجز المستمر في ميزان التجارة الاسرائيلي الآخذ بالتزايد عاماً بعد آخر يجد ان اسرائيل ابعد عن الاستقلال الاقتصادي مما كانت عليه قبلا، على حـد تعبير احد الاقتصاديين الاسرائيليين (٤).

---

(١) مشروع فولك للبحث الاقتصادي في اسرائيل: السنوات العشر الاولى، القدس ١٩٦٣.

(٢) الدكتور يوسف صايغ، الاقتصاد الاسرائيلي.

(٣) «الجيروزاليم بوست» ٢١ ك ١ (ديسمبر) ١٩٦٦.

(٤) أ. ازراحي «مشكلات التجارة الخارجية» مجلة «يونايتد آسيا».

(مجلة تعنى بالشؤون الافرو آسيوية – عدد خاص باسرائيل). آذار (مارس) – نيسان (ابريل) ١٩٦٥.

مصادر العون الخارجي لاسرائيل :

مصادر المعونة الخارجية المقدمة لاسرائيل اكثر من ان تحصى ، لأنها تشمل جميع انواع المعونات . على أننا لما كنا حددنا في بدء هذا البحث موضوعنا بالمعونات الخارجية الاقتصادية والعسكرية ، فاننا نستطيع ان نحصر مصادر العون الذي تتلقاه اسرائيل في هذا المجال بثلاث فئات :

اولاً : من اليهودية العالمية .

ثانياً : من الحكومات .

ثالثاً : من الهيئات والمنظمات الدولية .

وتأخذ هذه المساعدات شكل :

أ — سندات دين لاسرائيل .

ب — استثمارات خاصة .

ج — قروض غير حكومية طويلة ومتوسطة الأجل .

د — قروض غير حكومية قصيرة الأجل .

هـ — قروض حكومية .

و — تعويضات «ضحايا النازية» .

ز — هبات .

وبشكل عام ، فان هذه المساعدات تنقسم الى فئتين :

الاولى — تحويلات دون مقابل ، أي الهبات والمنح الحكومية والخاصة .

الثانية — انتقال الرساميل ، أي القروض والتسليفات الحكومية والخاصة .

من هذه يهمنا في هذه الدراسة الفئة الثانية من مصادر العون الخارجي ، أي المساعدات الحكومية ، وسنعنى في الوقت الحاضر بالمساعدة الاميركية ، دون الألمانية (لاختلاف طبيعة المساعدتين) . ذلك ان مساعدات اليهودية العالمية ، وان كان القسم الاكبر منها يحول من الولايات المتحدة ، الا انه ليس جزءاً من موضوع بحثنا . كذلك بالنسبة للمساعدة والقروض التي تقدمها الهيئات والمنظمات الدولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي .

على انه قبل الانتقال الى دور المعونة الاميركية لاسرائيل ، لا بد من استعراض مكان هذه المساعدات ضمن مجموع المساعدات التي تتلقاها اسرائيل ، ومن بعدها السبل التي تلجأ اليها اسرائيل لتأمين العون .

بلغ المتوسط السنوي للهبات التي قدمتها اليهودية العالمية لاسرائيل ١٠١ مليون دولار . وبلغ المتوسط السنوي لهبات الولايات المتحدة ٢٦ مليون دولار والمانيا الغربية ١٠٦ مليون دولار ، والهيئات الدولية مليون واحد . كما بلغ المتوسط السنوي لهبات قدمت من حكومات متفرقة تسعة ملايين . مما يجعل المتوسط السنوي للهبات ٢٤٣ مليون دولار .

ويبلغ المتوسط السنوي لسندات الدين الاسرائيلي ٣٨ مليون دولار ، والاستثمارات الخاصة ٢٠ مليون دولار ، والقروض غير الحكومية الطويلة والمتوسطة وقصيرة الأجل ٨١ مليون دولار ، وقروض الولايات المتحدة ٣٢ مليون دولار ، والقروض الحكومية الاخرى خمسة ملايين ، مما يجعل المتوسط السنوي لتحويلات رأس المال والقروض ١٧٦ مليون دولار ، ويكون المتوسط السنوي لنوعي المعونة ٤١٩ مليون دولار (١) .

وبلغت تبرعات اليهودية العالمية لاسرائيل في السنوات بين ١٩٤٩ — ١٩٥٩ (١٤٦٩) مليون دولار من أصل ٣١٠٧ اي ٤٧٫٣٪ من الرأسمال المستورد لاسرائيل في تلك الحقبة بمقابل ١٧٫٨ ٪ من الولايات المتحدة و ٢٣٫٣ ٪ من المانيا الغربية و ١١٫٦ ٪ من مصادر اخرى (٢) .

وساهمت اليهودية العالمية بـ ٥٠١ مليون دولار من أصل ٩١٠ مليون دولار من النقد النادر المستورد لاسرائيل في السنة ١٩٦٢ — ١٩٦٣ بمقابل ٦٢ مليون دولار من الولايات المتحدة و ١٣٨ مليون دولار من ألمانيا الغربية (٣) .

سبل تأمين العون :

هناك سبيلان تلجأ اليها اسرائيل لاستدرار المعونة الخارجية .

الأول سبيل اقتصادي ، على غرار ماتقوم به للحصول على فائض الغذاء من الولايات المتحدة بسبب غلق قناة السويس امام السفن او البضائع الاسرائيلية .

الثاني سبيل غير اقتصادي ، كأن تستغل الهجرة الى اسرائيل والازمات الناتجة عنها لاستدرار العون ، او ان تصطنع او تدعي وجود تهديد سياسي وعسكري يجابهها ، وتستخدمه بواسطة حملة سياسية دعائية للضغط على الحكومات المساندة والحليفة لها، للحصول على المعونة لاقتصادها وجيشها .

بدء المساعدة الاميركية لاسرائيل :

بدأت مساعدات اميركا لاسرائيل عام ١٩٤٩ ، اي بعد عامين من بدء المساعدات الأميركية للشرق الاوسط، وعلى اثر اعتراف الرئيس ترومان بدولة اسرائيل اعترافاً قانونياً .

ففي هذا العام تلقت اسرائيل من بنك التصدير والاستيراد الاميركي قرضاً قيمته ١٠٠ مليون دولار . وفي عام ١٩٥١ تلقت

---

(١) الدكتور يوسف صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلي ص ٣٠٩
(٢) ناداف سافران ، الولايات المتحدة واسرائيل . كامبردج ١٩٦٣ .
(٣) دليل مطبوعات اوروبا ــ لندن : « الشرق الاوسط وشمال افريقيا ١٩٦٠ — ١٩٦٦ » .

اسرائيل معونة اميركية اخرى بقيمة ٣٥،١ مليون دولار ، ٣٥ مليون منها قرضاً ثانياً من البنك المشار اليه ، والباقي بصورة معونة تقنية . وابتداء من عام ١٩٥٢ ، بدأت اسرائيل تنال المساعدات والهبات بصورة منتظمة . وقد بلغ مجموع هذه المساعدات في نهاية عام ١٩٦٦ (١١١٢،٧) مليون دولار .

وقد بدأ سيل المساعدات الاميركية يتدفق على اسرائيل عام ١٩٥٢ اثر موافقة الكونغرس الاميركي على منح اسرائيل هبات تمكنها من امتصاص سيل المهاجرين اليهود الذين بدأوا يتدفقون على اسرائيل . على ان هذه الهبات التي بلغت عام ١٩٥٢ (٦٢،٨) مليون دولار وعام ١٩٥٣ (٧١) مليون دولار ، بدأت تتضاءل حتى توقفت عام ١٩٦٢ . ومع ذلك ظل معدل المعونة الاميركية لاسرائيل على حاله ، وقد شكلت المساعدات الغذائية والقروض الانمائية غالبية هذه المساعدات .

وحتى عام ١٩٦٥ سددت اسرائيل ٣٠١،٦ مليون دولار من اصل ٣٢٠،٨ مليون دولار ، مجموع ماتلقته من معونات غذائية ، بالعملة المحلية . وقد تأمن القسم الأكبر من هذا المبلغ لاسرائيل بقروض بلغت قيمتها ٢٢٨ مليون دولار وهبات بقيمة ٣٢،٢ مليون دولار للانماء الاقتصادي . (يضاف الى ذلك ان اسرائيل تلقت ٦٠،٦ مليون دولار من المواد الغذائية كهبات من قبل وكالات اميركية توصف بانها متطوعة) .

وسددت اسرائيل كذلك حتى ١٩٦٥ : ٢٠١،٨ مليون دولار من القروض وفوائد القروض التي تلقتها من بنك التصدير والاستيراد الاميركي ، كما سددت ٣٠،١ مليون دولار من القروض الانمائية ، و ٣٣،٨ مليون من قروض المواد الغذائية و ٧،٣ مليون دولار من قروضها العسكرية ...

على ان السياسة التي اتبعتها الحكومة الاميركية في مجال تقديم العون العسكري الى اسرائيل كانت تقوم على المداورة . فقد كانت الولايات المتحدة تلتزم بسياسة ما وصفته بعدم الدخول في سباق التسلح في الشرق الاوسط ، وهو اعلان جون فوستر دالس في عام ١٩٥٥ ، ولكنها شجعت اسرائيل على الحصول على المعونات العسكرية من الجهات اخرى ، ومولتها بالمساعدات المالية لشراء المعدات العسكرية وقطع غيارها .

على ان الولايات المتحدة تخلت في اوائل العام الماضي عن هذه السياسة ، وقدمت لاسرائيل معدات عسكرية ثقيلة . وكان الاتجاه الجديد في السياسة الاميركية يقوم بالحقيقة على مرحلتين: الاولى بيع اسرائيل اسلحة دفاعية مثل دبابات باتون (الحقيقة ان هذه الدبابات بيعت قبل عام ١٩٦٦ وان كان الاعلان عنها قد جاء في شباط ١٩٦٦) وصواريخ هوك الدفاعية بقيمة ٢٥ مليون دولار . اما

المرحلة الثـــانية فهي بيع اسرائيل ، للمرة الأولى ، أسلحة هجومية ، هي عبارة عن طائرات « سكاي هوك » التكتيكية . ولم تعرف كمية الطائرات هذه التي تلقتها اسرائيل ، وقد ابرمت الصفقة عند زيارة ابا ايبان ـ وزير خارجية اسرائيل ـ للولايات المتحدة في شباط ١٩٦٦ .

وكانت الولايات المتحدة قبلا قد ساعدت اسرائيل في بناء مفاعـــل ذري في « ناحال سوريك » بقدرة ٥ ميغا واط حرورية ، بمعونة قيمتها ٣٠٥٠ الف دولار من نفقات انشائه ، وقدمت ٩٠٪ من خليطة اليورانيوم ـ ألومنيوم بموجب إتفاقية ثنائية عادية تحصل اسرائيل بموجبها على الوقود بمقتضى قرض ، تدفع قيمته الاصلية بفائدة سنوية مقدارها ٤٪ على أن ترد الخليطة المستهلكة للولايات المتحدة وتدفع اسرائيل ثمن نقصان مادة اليورانيوم ٢٣٥ التي تستفيد منها .

وقد حصل تخفيض في المساعدات المقدمة لاسرائيل من ٧١,٦ مليون دولار الى ٣٩,٣ مليون . وجاء التخفيض على الوجه التالي : خفضت القروض الاثنائية من ٢٠ مليون دولار الى ١٠ ملايين ، وخفضت المعونة الغذائية من ٣٣,٩ مليون دولار إلى ٢٦,٩ مليون ، وخفضت المساعدات العسكرية من ١٧,٧ مليون الى ٢,٤ مليون دولار .

اما المساعدات المقدمة للحكومة الاردنية فقد ظلت على حالها . انخفضت الهبات من ٣٩ مليون دولار في ١٩٦٥ الى ٣٥,٦ في ١٩٦٦ ، ولكن ارتفعت القروض من ١,٦ مليون دولار الى ٧,٩ مليون في حين انخفضت المساعدات الغذائية من ٢,٥ مليون دولار الى ٢,٤ مليون ، وانخفضت المعونة من ٤,٦ مليون دولار الى ٢,١ مليون وهكذا بلغ المجموع ٤٨ مليون دولار في عام ١٩٦٦ بمقابل ٤٧,٧ مليون عام ١٩٦٥ .

ورفعت الولايات المتحـــدة مساعداتها الغذائية للحكومة الجزائرية من ١٤,٦ مليون دولار عام ١٩٦٥ الى ٢٥,٤ مليون عام عام ١٩٦٦ ، والى الحكومة المغربيـــة من ٣٥,٨ مليون دولار الى ٤٠,٣ مليون ، في حين خفضت هذه المساعدة للحكومة التونسية من ٣٦,٥ مليون دولار عام ١٩٦٥ الى ٢٠,٩ مليون دولار عام ١٩٦٦ . ورفع قرض بقيمة ١٠,٥ مليون دولار المساعدة الاميركية للسودان الى ١٧,٤ مليون دولار .

... على ان ذلك لا يمثل الا جانبا من الصورة ، فحتى عام ١٩٥٩ كانت اسرائيـــل تتلقى بمفردها من المعونات الاميركية ضعف ما تتلقاه البلدان العربية مجتمعة . وهذا ما حدا ناداف سافران الى القول بـــأنه « لولا (هذه) المساعدات الضخمة لما استطاعت اسرائيل انماء اقتصادياتها الى ما هي عليه الآن وامتصاص كل هؤلاء المهاجرين ، او ربمـــا الدفاع عن

وجودها »(١) ...

فالمساعدات الاميركية لاسرائيـــل اذا ما اخذت على اساس مايتلقاه الفرد الاسرائيلي منها ، وهو مبلغ يتراوح بين ٢٠٠ - ٢٥٠ دولار ، تعتبر اعلى نسبة من المساعدات قدمتها الولايات المتحدة لأي بلد في العالم .

وقد بلغت هذه المساعدات في السنوات الاثنى عشرة الاولى ، تلك الفترة الحرجة في تاريخ اسرائيل ، بمعدل ٣٠٠ مليون دولار في السنـــة . كما وان مئات الفنيين والخبراء الاميركيين تدفقوا على اسرائيل للعمل على انمائها وتطويرها ، وتمتعت عشرات المؤسسات الاسرائيلية التربوية والعلمية والثقافية والخيرات بالمساعدات الاميركية ، وغضت الحكومة الاميركية الطرف عن نشاطات الجمعيـــات الموسومة بالخيرية ، والتي كانت في حقيقتها تعمل لتحويل الرساميل الاميركية ، بصورة تبرعات ، الى اسرائيل ، مما ادى الى خلق حالة من الحساسية لامثيل لها في العلاقات الدولية في السنين الاخيرة ، على حد تعبير هالفورد هوسكنيتر(٢) . اذ ان الولايات المتحدة قد فضلت في سياستها مصالـــح اسرائيل على مصالح البلدان العربية بالرغم من الفارق الكبير لا في مقدار احتياجات الجانبين فحسب ، بل وفي مايمثله كل جانب بالنسبة للعلاقات الدولية على وجه العموم ، ومصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط على وجه الخصوص .

(١) « الولايات المتحدة واسرائيل » . كامبردج ١٩٦٣ .

(٢) « الدبلوماسية في الشرق الاوسط » مجلة « كارنت هيستوري » تموز (يوليو) ١٩٦٦ (وهو احد ثلاثة اعداد خاصة بالمعونة الخارجية الاميركية في العالم) .

ربط الأجر بالإنتاج في المجتمع الاشتراكي *

نشرت مجلة الطليعــة في عدد نيسان (ابريل) — ١٩٦٧ مقالاً هاماً للدكتور ابراهيم سعد الدين تحت عنوان ربط الأجر بالانتاج في المجتمع الاشتراكي . واقدم هنـــا ملخصاً وافياً له :

الربط بين مساهمة الفرد في الانتاج وبين مايحصل عليه من دخل يعتبر قاعدة اساسية من قواعد النظام الاشتراكي . وتحقيق هذا المبدأ هو الضمان الوحيد لتحقيق الكفاية والعدل ، واذا كانت مصلحة المجتمع في زيادة الانتاج فان مصلحة الفرد المنتج في زيادة دخله . ومن ثم فان الربط بين دخل المنتجين وانتـــاجهم هو وسيلة المجتمع الاشتراكي لتوفير الحوافز لمجموع العاملين تحقيقاً لأهداف المجتمع .

لكن وضع هذه القاعدة موضع التنفيذ يلقى كثيراً من الصعوبات . وأهم هـــذه الصعوبات مايتعلق بكيفية قياس مدى مساهمة كل فرد في الانتاج تلك المساهمة التي يتحدد على أساسها مايستحقه من دخل .

ان تأميم أدوات الانتاج وتحقيق الملكية العامة يحفز العاملين على تصحيح أوضاع الأجور السيئة في المجتمع الرأسمالي وتطبيق قاعدة الأجر المتساوي للعمل المتساوي ، ولكن تبقى صعوبة توزيع الأجور على قدر الانتاج وهي بحاجة الى أن تدرس دراسة واعية للوصول الى نتائج سليمة .

فالمعروف ان المجتمع الصناعي الحديث يقوم على التخصص . وأية وحدة انتاجية تستخدم عملاً بشرياً يتميز بدرجات متفاوتة من التخصص والمهارة والخبرة والقدرة على تحمل المسؤولية . فمن أجل تطبيق القاعدة المذكورة يلجأ علم الادارة الحديث الى مايعرف بالتوصيف — على حد تعبير كاتب المقال — والى التحليل وتقويم الأعمال . والتحليل والتوصيف هما تحديد المهام والمسؤوليات التي يتطلبها أداء العمل ، ووصف للظروف التي يجري فيها هذا العمـــل . أما التقويم فهو خطوة تالية لها ، وهو يتضمن تحديد قيمة

* مجلة الطليعة السنة الثالثة — نيسان (أبريل) ١٩٦٧ — القاهرة — العدد ٤

نسبية لكل من العناصر المختلفة التي تضمنها التوصيف والتحليل ، ومن ثم تحديد مجموع القيم التي يمكن ان تحصل عليها كل وظيفة أو عمل لتحديد فئة الأجر التي يمكن ان يحصل عليها القائمون بها . وللتوضيح نضرب هذا المثال : اذا افترضنا ان مجموع النقط التي يمكن ان تحصل عليها أعلى الوظائف ١٠٠٠ درجة ، فان التحليل يتضمن بيان العناصر التالية باعتبارها أهم العناصر في التقويم وهي : التعليم — الخبرة — المسؤولية — القدرة العقلية — القدرة الذهنية . وعملية التقويم في هذه الحالة تتضمن تحديد القيم النسبية لكل عنصر من العناصر السابقة . وبعد تقسيم الألف درجة على هذه العناصر نقوم بتحديد القيم النسبية للدرجات داخل كل عنصر فاذا افترضنا مثلاً أن عنصر التعليم له ٥٠٠ درجة من أصل الألف التي افترضناها سابقاً فان استكمال عملية التقويم يتطلب تحديد الدرجات التي يحصل عليها من لايستطيع القراءة والكتابة (أمي) ، والحاصلون على الاعدادية والثانوية ، والاجازة الجامعية ، والحاصلون على درجة الاستاذية (الماجستير) والدكتوراه بحيث تعطى الدرجات النهائية لأعلى درجات التعليم .

ولكن حتى هذا التحديد الذي يفترض فيه أن يؤدي الى نتائج دقيقة يتأثر تأثراً كبيراً بالمفاهيم والاوضاع الاجتماعية التي ورثناها . وتنفيذ عملية التقويم التي ذكرناها بسرعة يؤدي الى نتائج خاطئة . فهذه العملية تفترض اولاً تحديداً دقيقاً للأعمال في كل مشروع ، وتحديد مسؤولية ومهام كل وظيفة تحديداً واضحاً . وفي مصر قبل التطبيق الاشتراكي — والمؤلف يتحدث عن التجربة المصرية — كانت الوحدات الانتاجية فيها خاضعة للسيطرة الفردية التي قد يسعى فيها رب العمل الى الحصول على أقصى فائض للقيمة . لذا كان من الصعب على ادارات هذه الوحدات الانتاجية بعد التطبيق الاشتراكي ، التي لم تكتسب بعد الخبرة الكافية بالأعمال التي تشرف عليها لأول مرة ، ان تضع تنظيماً جديداً للأعمال على أساس سليم . وكانت النتيجة ان جاء التقويم فيه كثير من المغالطة والنتائج غير الصحيحه : كما جاء التقويم ليعكس النظرة الاجتماعية قبل التطبيق الاشتراكي التي مازالت سائدة عند بعض الاداريين . فتضخمت نتيجة التقويم الخاطيء الأجهزة الادارية ووظائف الاشراف والادارة ، واختل مقياس التقويم .

فالتقويم السليم اذن الذي يؤدي الى الربط الصحيح بين الاجر والانتاج يجب ان يقوم على دراسة واعية ، وفي كل وحدة من وحدات القطاع العام الانتاجية على حدة . ولا يقوم التقويم السليم على اجراءات مبتسرة وحلول فورية تؤدي الى نتائج خاطئة بالضرورة ، فتزيد من الفروق الطبقية وتكون سلماً لأصحاب المنافع الشخصية .

الترفيع الدوري وسياسة ربط الدخل بالانتاج :

لجأت الطبقة العاملة في مصر ـ قبل التطبيق الاشتراكي ـ الى الحصول على مزايا مشابهة لتلك التي يتمتع بها موظفو الحكومة ومستخدموها من ترقيات دورية واجازات مرضية وادارية وعرضية واجازات مدفوعة.. الخ. وقد حصلت هذه الطبقة بالفعل على معظم هذه المزايا. إلا ان بعض هذه المزايا او الحقوق كان له آثار عكسية على الانتاج، وتخالف القاعدة الاساسية للاجور في النظام الاشتراكي ؛ وهي الربط بين زيادة الدخل وزيادة الانتاج. ونشير بوجه خاص الى قاعدة الترفيع (العلاوة) الدوري ؛ فهذه الزيادة الدورية في اجر العامل تحصل سواء ارتبطت بزيادة فعلية بانتاج العامل او لم ترتبط. واذا كان من الممكن تبرير الزيادة الدورية بالنسبة للموظفين الحكوميين على أساس عدم امكانية القياس الفعلي لانتاج العاملين فيها، وافتراض ان استمرارهم في العمل نفسه لمدة معينة يكسبهم خبرة لابد وان تعكس نفسها في انتاجهم ؛ فان الظروف تختلف بالنسبة للعاملين في قطاعات الانتاج : فثمة امكانية فعلية لقياس انتاج العاملين في الوحدات الانتاجية. ومن هنا فان الربط بين زيادة الانتاج وزيادة الدخل لايجب ان يتم على أساس الترقية الدورية وانما على أساس القياس الحقيقي لزيادة انتاج العاملين في الوحدة الانتاجية.

الحوافز وسياسة ربط الدخل بالانتاج :

ان المجتمع الاشتراكي مجتمع يسعى الى اطلاق الحوافز عن طريق تحرير العاملين من الاستغلال ودفعهم نحو زيادة الانتاج واتاحة أجر متساو للعمل المتساوي. ان اطلاق طاقات وحريات العمل تفتح المجال أمام العامل لزيادة الانتاج لا عن طريق زيادة الجهد او تكثيف العمل فحسب، بل عن عدة طرق منها مثلاً اعادة تنظيم العملية الانتاجية التي يقوم عليها، او اقتراح استبدال مواد بمواد اخرى. ويتم هذا الاندفاع في الانتاج عن طريق الربط بين مصالح المجتمع والمصلحة الشخصية للعامل.

وتكافأ الأعمال الممتازة او الابحاث او الاقتراحات الجدية التي تساعد على زيادة الانتاج، او خفض تكاليفه، او تحسينه، او ابتكار انواع جديدة من الاصناف المنتجة بمكافآت تشجيعية خاصة. او بعلاوات استثنائية.

على أن مثل هذا النوع من المكافآت او الزيادات الاستثنائية التي تمنح للعاملين الممتازين لايكفي وحده لحث الجمهرة الكبرى من العمال الذين قد لايستطيعون التقدم بمثل هذه الاقتراحات. وانما يتم ذلك من خلال

نظام يتيح للعامل الحصول على زيادة ولو بسيطة في الدخل مقابل زيادة ولو بسيطة في الانتاج . ويتم هذا الامر عن طريق النظام الأساسي للاجور من خلال المكافآت او العلاوات الاستثنائية .

ان وضع هذه الامور كلها موضع التطبيق العملي يتطلب التغلب على صعوبات جمة لتحديد المعدلات القياسية العادلة للانتاج في كل صناعة من الصناعات أولاً ، ولتحديد العلاقة بين آراء العاملين وزيادة دخولهم ثانياً . ان التغلب على هذه الصعوبات هو التحدي الحقيقي الذي يواجه الادارة الاشتراكية ، وهو واجب أساسي من واجباتها.

●



أسس النقد الأدبي الحديث

- تبويب : شورر - مايلز - ماكنزي
- ترجمة : هيفاء هاشم
- مراجعة : الدكتورة نجاح العطار
- الجزء الأول ١٩٦٦ - الجزء الثاني ١٩٦٧ - الجزء الثالث ١٩٦٧
- منشورات وزارة الثقافة - دمشق

كتاب في أجزاء ثلاثة يعرض مبوبه - من خلال ما اختاروه - قضايا النقد ومشكلاته ، ومبادءه وفرضياته ، ومواقفه وقيمه ، معتمدين على نصوص لكبار النقاد القدماء والمعاصرين .

ترسم هذه المختارات لوحة للفكر النقـدي متكاملة من حيث الزمن ، فتعرض آراء بعض النقاد الكبار القدماء ثم تلح على آراء المحدثين مراعية التسلسل، كاشفة بذلك عن جذور النقدالتي تطرح عبر التاريخ مشكلات لاتختلف جوهرها قدر ما تختلف أشكالها .

تتناول النصوص المختارة مصدر الفن في الجزء الأول، وشكله وغايته في الجزأين الثاني والثالث ، مؤكدة أن الفارق بين هذه الأنواع الثلاثة ليس جذرياً وأن الناقد لايستطيع أن يتخذ موقفاً مطلقاً وأن هذا التقسيم هو لتسهيل الدراسة فحسب .

الفن في الجزء الأول شكل من أشكال التجربة الإنسانية يتناول النقادفيه «مادة» الفن وتجربة الفنان ، على اختلاف في منطلقاتهم ومواقفهم ومدارسهم .

تتنوع آفاق النقد في هـذا الجزء وتتكشف تيارات واتجاهات ترتبط ارتباطاً أصيلاً بالتيارات الفكرية القائمة وتمثلها صوى في تاريخ النقـد القديم والمعاصر من مثل لونغاينوس وورد سورث وولف وريدوبونغ وأودن .

ويكمل الجزء الثاني الجزء الأول بمحتواه ونهجه وآفاقه ومنطلقاته مرتبطاً أتم ارتباط بالفكر النقدي ككل مؤكداً وحدة المحتوى والوسيلة واستحالة عزل الشكل عن المادة .

يتناول بتفصيل — لايذهب بسمة العمق والأصالة — « الشكل » في الفن. فيحلل العناصر البنائية التي تكون العمل الفني ، ويبرز الأسس التكنيكية ، ويتتبع مختلف الأساليب في مختلف المجالات من شعر ونثر ورواية ومسرحية الخ... محطماً الإطار التقليدي المعروف الذي يتستر هوية الفن. ترسم النصوص المختارة في هذا الجزء منحى التطور في مواقف النقد وأساليبه وخصب التجربة الأدبية في تجديد الأطر القديمة ومنحها محتوى أكثر تلاؤماً وغنى ، أو في تطوير الوسائل التكنيكية

حتى تغدو أشد التحاماً بالانسان وأقدر على تمثله وتمثيله .

يكشف هذا الجزء عن غنى النقد في ميدان (الشكل) وعن عمق ارتباطه بالفكر الفلسفي والعلمي المعاصر وعن مدى استيعابه لمختلف التيارات وتفاعله معها . تتحدد فيه معالم كثير من الاتجاهات الأدبية المعاصرة في أكثر من ميدان ويلقي أضواء مقارنة على النتاج تسهم في إغناء تجربة الكاتب والقارىء على السواء.

أما الجزء الثالث فيتناول سيكولوجية الفن ويعتبر الأدب (مشاركة) أو عملية (إيصال) ويدرس وظيفة الفن بأبعادها الاجتماعية والانسانية والأخلاقية .

يفحص استجابة الجمهور فحصاً تحليلياً دقيقاً ويربط بين تجربة الفنان وإعادة تكوينها في نفس القارىء بعملية « الإيصال » التي هي ذاتها الفن وغاية الفن.

يعرض لمختلف الأساليب الفنية التي تسهم في إعادة الحياة الى التجربة الأصلية ، ويلتقط اللحظات النابضة التي تمنح التجربة في نفس القارىء زخمها الأول .

يربط – كالجزأين السابقين – بين تيارات الفكر المعاصرة وفرضيات النقد الأساسية ويعالج موضوعات تهم الانسان المعاصر ويبسط بعض المشكلات الفنية التي تطرحها الحياة الحديثة . يثير تساؤلات كثيرة في ذهن القارىء ولا يعطي أجوبة مطلقة أو نهائية.

قيمة هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة هي في هذه التساؤلات التي يثيرها والآفاق التي يفتحها وهذا التفاعل الأصيل مع الفكر الإنساني المتطور في مختلف ميادينه.

ظ . ع

البارونة أم أحمد

– مجموعة قصصية : لمحمود تيمور

– سلسلة (اقرأ) دار المعارف بمصر – ١٩٦٧

البارونة أم أحمد . . مجموعة قصصية بقلم عميد القصة في مصر الاستاذ محمود تيمور . وهذه الباقة اللطيفة من القصص القصيرة هي آخر انتاج الكاتب الكبير صدرت في مطلع هذا العام . وهي وإن لم تكن خير انتاجه ، الا انها تضم عدداً من القصص اللطيفة .

صدرت هذه المجموعة في واحدة من اصدارات سلسلة « اقرأ » عـن دار المعارف بمصر ، وتضم عشر قصص قصيرة تتفاوت في الجودة . فنلمح في بعضها فن تيمور الأصيل مثل قصة (طيف زهيرة) و (عبيط .. عبيط) . ويتألق بعضها حتي يتسامى في سماء الفن القصصي مثل قصة (لوح ثلج) التي ستقدمها مجلة (المعرفة) الى قرائها في عددها المقبل واحدة من أجمل أزاهير هـذه الباقة التيمورية . أما باقي قصص المجموعة مثل (القبلة الأخيرة) و(البارونة أم أحمد) و(الطاقية) وغيرها .. فيمكن القول أنها على جودتها لم ترتفع الى مستوى القصص التي ذكرناها ؛ بل إنها دون المستوى الذي عودنا محمود تيمور على تقديمه . ولكنها جديرة بالقراءة على كل حال . ففيها لمحات انسانية حلوة ، وفيها وصف لصور شعبية حية أو لصراع نفسي دقيق ، ويكفي انها تحمل طابع عميد القصة القصيرة في القطر المصري محمود تيمور .

هـ . د

أبو الشوارب

– مجموعة قصصية : لمحمود تيمور

– نشر مكتبة الآداب ومطبعتها – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٦٦

آخر مجموعة قصصية لمحمود تيمور قبل «البارونة أم أحمد» مجموعة بعنوان «أبو الشوارب». وقد لقيت «أبو الشوارب» شهرة طيبة فنفدت من الأسواق، مما جعل مكتبة الآداب تعود الى طبعها ثانية في أواخر عام ١٩٦٦.

وسنعرض لهذه المجموعة بايجاز على سبيل التعريف والمقارنة.

تنتظم في هذا العقد التيموري الثمين تسع جواهر. والجوهرة الأولى فيه – ولعلها أثمن مافيه – (أبو الشوارب).

ففيها عرض، وتحليل، ومأساة. مأساة رجل بسيط نشأ في بيئة شعبية أحب شاربيه حباً يكاد يصل الى درجة العبادة. كانا ينالان منه من العناية مالا تناله أية جارحة من جوارحه.

«أبو الشوارب»، وهذا لقب الرجل، قد احتمل في حياته كثيراً من ضروب الاهانة والذل، ولكن عندما وصل الأمر الى حد العبث بشاربيه لم يستطع الا ان يثأر لكرامتها ولو بلغ هذا الثأر حد القتل. ومن درر العقد الأخرى، وكلها غالية ثمينة، قصة (كنا أربعة) وقصة (هناء) ذات الطابع الكلاسيكي التي تنقلك الى جو الحكايات وتشدك الى

عالم الاساطير . وآخر لؤلؤة في العقد « هدية » الى القارىء الشغوف الذي يعرف تيمور كيف يأسره بلغته الجزلة القوية ، واسلوبه المتين ، وعباراته المنتقاة ، وأحداثه وشخصياته التي نفرح معها ونتعس لها ونتجاوب معها حتى النهاية . (ابو الشوارب) انتاج ثمين جدير بالقراءة والدراسة .

ه . د



دمشق تحت القنابل

— تأليف أليس بولو
— ترجمه وتعليق احسان هندي
— مطبعة الاعتدال — دمشق ١٩٦٧

مؤلفة هـذا الكتاب أليس بولو Alice Poulleau صحفية فرنسية عاشت في دمشق إبان الثورة السورية الكبرى (١٩٢٤-١٩٢٦) ، وسجلت الأحداث التي عاشتها سورية تحت القنابل في كتابها « ADamas Sous Les Bombes » . والكتاب عبارة عن يوميات سجلتها في حينها وضمنتها بعض انطباعاتها عما شاهدته ووصل الى سمعها فاختصرت في الحديث عن المعارك واسهبت في الحديث عن الملابسات . ولكن المؤلفة لم تستطع التجرد من عصبيتها الفرنسية .

ظ . ع

البحر لا ماء فيه

– مجموعة قصصية لأحمد إبراهيم الفقيه

– نشر اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب في ليبية ١٩٦٥

لابد من التنويه بالجهود التي تبذلها اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب في ليبية للتعريف بالأدب الليبي .

ويسر مجلة (المعرفة) أن تشير في هذا العدد الى مجموعتين شعرية وقصصية أصدرتها اللجنة ، وسيطالع القارىء في العدد المقبل قصة (الجراد) من المجموعة القصصية وقصيدة (ليبية والفجر الأخضر) من المجموعة الشعرية .

قدم للمجموعة القصصية – الفائزة بالجائزة الأولى للقصة في مسابقة اللجنة العليا عام ١٩٦٥ – كامل المقهور بتمهيد جاء فيه : « ... على أن ذلك كله ليس كل فن الفقيه وليست النماذج التي نشرت في المجموعة هي كل أصالته .. إن المعاناة واضحة في هذه البدايات ..

والشكل ما يزال يحتاج إلى كثير من التطوير والجهد .. ولكننا جميعاً نعرف أن ما نشر من القصة الليبية في مجموعات ليس كل القصة الليبية ، إن شوطاً واسعاً قد قطعه الفقيه وزملاؤه .. وربما كان في نشره في المستقبل ما يلقي كثيراً من الضوء على القصة الليبية »

ظ . ع



زغاريد وطر بالفجر

ـ مجموعة شعرية : لعلي صدقي عبد القادر
ـ نشر اللجنة العليـا لرعاية الفنون والآداب في ليبية ـ ١٩٦٦

•

تضم هذه المجموعة ـ الفائزة بالجائزة الأولى للشعر في مسابقة اللجنة العليا ـ قصائد (ليبيا والفجر الاخضر) و (نداء التراب) و (حواء) و(دروب الشمس) و (الروح الحائر) و (أنا ورمضان) و (عصفورتان)و (الشرق العربي) و (الشهيد) و (من بعيد) و (ياشعر قف) و (المرآة) و(من ؟) و (وردتي الحمراء) و (بسمة)و(خواطر مجنحة) و (الطبيعة) .

ظ . ع

المصيبة في حياة العرب

- تأليف : عبد القادر عياش
- سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات رقم ١٤ - دير الزور - سورية - ١٩٦٧

في الحلقة ١٤ من (سلسلة تحقيقات فولكورية من وادي الفرات) أصدر المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية كتاباً عن (المصيبة في حياة العرب) ، رجع فيه الى تعريف المصيبة ، والأمور التي تجلب المصائب الى الإنسان ، وإضافة العرب المصائب الى الدهر والزمن والفلك ، وقاموس المصيبة ، وآثارها ، والمصيبة في الشعر والأمثال العربية ، وسبل تهوينها ، وذكرها في القرآن والحديث وكتابات الكتاب ، والتعزية وعباراتها ورسائلها ، والمصائب في الغناء الشعبي بدير الزور ، ونعي الميت وتشييعه في دير الزور .

ظ . ع



• جامع السنانية — من معرض «انطباعات دمشقية» للفنان فرتز شينكو •

موسيقى

مهرجان بتهوفن ١٩٦٧

يقام مهرجان بتهوفن السادس والعشرون في بون ١٦ ايلول – ٥ تشرين الأول ١٩٦٧ . تمنح في المهرجان جائزة بتهوفن لعام ١٩٦٧ . المدينة التي ولد فيها بتهوفن تقدم هذه الجائزة كل سنتين لأفضل قطعة موسيقية في المسابقة . في هذا العام سيشترك في المسابقة ٨٢ مؤلفاً بـ ١٥٢ قطعة . يفتتح المهرجان بالسمفونية التاسعة ، وتقوم مختلف الفرق العالمية بعزف سمفونيات بتهوفن .

وفاة كارل شوريشت

توفي قائد الأوركسترا كارل شوريشت Carl Schuricht عن ٨٦ عاماً في (فيفي Vevey) بألمانية ، وهو من رواد الموسيقى المعاصرة وأساتذة الموسيقى الكلاسيكية . ولد في (دانتزيغ) ودرس في برلين ، وفي عام ١٩١٢ ذهب إلى (فيسبادن) التي أصبحت مركز نشاطه الفني خلال نيف وثلاثين عاماً . وفي عام ١٩٣٣ سمي مديراً لفرقة برلين الفلهرمونية . وكثيراً ما دعي لقيادة الفرق العالمية الاخرى .

(أندر) و (ديلنر)

اشترك الفنانان الالمانيان إيفا أندر (مدرسة البيانو في المدرسة العليا للموسيقى في درسدن) وكيملس ديلنر (عازف الفيولونسل الأول في الأوركسترا الحكومية في درسدن) في إحياء أمسية موسيقية في دمشق عزفا فيها مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية والرومانتيكية . وتتمتع عازفة البيانو إيفا أندر بشهرة كبيرة بين العازفين الشبان باعتبار أنها تعطي المقطوعة المعزوفة كامل مداها من الحيوية والحركة .

سينما

من السينما الواقعية الى سينما الحقيقة

صور المخرج المصري صلاح أبو سيف معظم مشاهد فلم (الزوجة الثانية) في الريف المصري ، وهو يعتبر هذا الفلم تجربة ينتقل بها من السينما الواقعية الى سينما الحقيقة .

سفر برلك

التجربة السينمائية الثانية للأخوين رحباني مع المطربة اللبنانية فيروز ، وتدور حوادثه أثناء الحرب العالمية الأولى . يجري الآن تصوير هذا الفيلم .

الغريب

رواية (الغريب) لألبير كامو ، ستشترك بها الجزائر في مهرجان البندقية السينمائي لهذا العام . وتصرف الجزائر عناية خاصة في اخراج هذا الفيلم ، على اعتبار أن لكامو مكانة فكرية كبيرة عند المثقفين الجزائريين .

سائق الشاحنة

اسم أول فلم طويل من إنتاج مؤسسة السينما في دمشق ، سيمثل سورية في مهرجان موسكو في ٥ تموز المقبل .

لانشترك

قررت ج.ع.م. عدم الاشتراك في أي مهرجان سينمائي عالمي هذه السنة . قال أحد أعضاء اللجنة الخاصة باختيار الأفلام التي تمثل ج.ع.م. في المهرجانات الدولية : « بالرغم من جودة بعض الأفلام التي أنتجت في الأشهر القليلة الماضية فانها لاترتفع الى حد تمثيلنا في مهرجان دولي » .

أسطورة الصحراء

اسم أول فلم سينمائي طويل تنتجه الكويت .

مرضو السماء

يصور في لبنان فلم قصير عنوانه مؤقتاً (مرضو السماء) ، وسيمثل لبنان في المهرجان العالمي للفلم العسكري الذي يقام في فرساي في أيار ١٩٦٨ .

مسرح

فرقة الفنون الشعبية المصرية

تستعد الفرقة القومية للفنون الشعبية في ج . ع . م . لرحلة طويلة الى بعض العواصم العربية والأجنبية بعد الانتهاء من تدريبات ترفعها الى مصاف الفرق الفولكلورية العالمية .

مسرح عرائس القاهرة

قدم مسرح عرائس القاهرة تمثيليات (حمار شهاب الدين) و (الليلة الكبيرة) و (حكاية سقا) في بعض المدن السورية .

معارض

انطباعات دمشقية

اسم المعرض الذي افتتح في المركز الثقافي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية بدمشق ، ويضم رسوماً ولوحات حفر للفنان (فرنر شينكو Werner Schinko) التشيكي الأصل الالماني الثقافة الذي زار سورية في كانون الاول ١٩٦٤ ومكث فيها زهاء شهر قام خلاله برسم هذه اللوحات الفولكلورية التي ضمها المعرض .

في سبيل القضية

أقيم في دمشق معرض للفنان السوري لؤي الكيالي تحت عنوان (في سبيل القضية). ضم المعرض مجموعة من اللوحات التي عالجت موضوعات تتعلق بقضية فلسطين: يتميز فن لؤي الكيالي بنوع خاص من الحرارة الانسانية والواقعية الجديدة.



• انطباعات دمشقية
للفنان فرنر شينكو •

محاضرات

• عضو المجمع العلمي في رومانية وأستاذ التاريخ في جامعة بخارست فيرجيل كانديا Virgil Gandea ألقى محاضرة في دمشق عنوانها (العلاقات بين العرب ورومانية). كشف المحاضر في حديثه عن العلاقات الفكرية التي تربط الشعبين العربي والروماني منذ أيام الامبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر، وأشار الى المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبات رومانية.

• ألقى الكاتب الألماني ماكس فالكر شولتس محاضرة عن (اهمية الادب في جمهورية المانية الديموقراطية).

• ألقى الاقتصادي السوفييتي ديوشكين محاضرة عن (العلاقات الاقتصادية بين سورية والاتحاد السوفييتي).

• ألقى الاستاذ انطون مقدسي محاضرة عن (الثقافة والاشتراكية).

• ألقى الاستاذ أديب اللجمي محاضرة موضوعها (ماذا نقرأ ؟ وكيف نقرأ ؟).

• ألقى المهندس عبد الرؤوف الكسم محاضرة عن (العمارة بين القومية والعالمية).

• ألقى الاديب عبد المعين الملوحي محاضرة عن (الشعر الصيني) .

• ألقت السيدة ألفة الادلبي محاضرة موضوعها (من تراثنا الشعبي « ألف ليلة وليلة ») .

• ألقت السيدة ذكية الصوفي محاضرة عن (التوجيه المهني) .

• اشترك الشاعر محمد الحريري والقاص حسيب كيالي في امسية ادبية .

احتفالات

١٧ نيسان

احتفلت سورية بانقضاء ٢١ عاماً على جلاء آخر جندي أجنبي عن أراضيها. نظمت وزارة الثقافة مهرجانات قومية. بهذه المناسبة اقيمت ندوات عديدة في المراكز من بينها ندوة اشترك فيها الشاعران يوسف الخطيب ومحمد الحريري. والدكتور خالد الصوفي والسيدة سعاد وقاف.



• من معرض انطباعات دمشقية للفنان فرنر شينكو •

جولة الشهر

الثقافة ... وتبعاتها *

بقلم أديب اللجمي

المعضلة الثانية التي يواجهها نشر الثقافة بين المواطنين العرب ، هي ماشاعت تسميته بـ « الروتين » وهي كلمة فرنسية الأصل . انه هذا الدرب الطويل ، يمتد بلا حدود معينة ، ويتحتم على كل عملية ثقافية أن تمر به حتى تبلغ الجمهور . بفضل هذا الروتين العجيب تطبع مؤسسات الدولة الكتاب ثم توزعه بيعاً وإهداء على الناس بعد سنة أوسنتين . وبفضل هذا الروتين تطبع مؤسسات حكومية أخرى كتاباً ، ثم تقبره في الأقبيـــة ، بانتظار انتهاء الاجراءات والمعاملات الخاصة بالافراج عنه لتوزيعه . وبفضل هذا الروتين ، أخيراً ، تقوم إدارة حكومية بإصدار نشرة أومجلة دورية ، ذات طابع اعلامي صرف ، أي تعتمد أول ماتعتمد على وجوب نقل الانباء والمعلومات بسرعة كبيرة الى

(*) راجع القسم الاول من هذا البحث في العدد ٦٢ من المجلة .

القارىء ، فتجمع هذه المعلومات طوال شهر أو أكثر ، ثم تدفعها الى الطبع ، فيستغرق هذا شهراً أو أكثر ، ثم تأخذ في توزيعها خلال شهر أو أكثر ، وهكذا يصل النبأ الى القارىء بعد حوالي ثلاثة أشهر من تاريخه ، حيث كان يجب ان يصل اليه بعد ثلاثة أيام على أبعد تقدير .

عجائب الروتين هذا وغرائبه ، أضحت موضوع تندّر الناس في البلاد العربية ، التقدمية منها بشكل خاص . وبقدر مانعرف من تنافر تام بين الروتين والمفاهيم الاشتراكية – بمفاهيم التقدم والحركة المتحررة من العوائق – نلاحظ تشبثاً مغرقاً من جانب الادارات في البلاد العربية الاشتراكية لاستبقاء هذا الروتين ، ونحر كل محاولة في الابداع أو التجديد قرباناً له .

ونظرة تحليلية الى الروتين ، ترينا أنه امتداد وتكملة للعقلية البيروقراطية التي أشرنا اليها في القسم الأول من هذا البحث . فقلما انفصل أسلوب التطويل والمتاهة (وهو اسلوب الروتين) عن العقل الشكلي المفرغ من المضمون . ان البيروقراطية تحكم وتوجه في المستويات العليا ، أما الروتين فاداته التسيير والتنفيذ في المستويات الدنيا ، في مستوى العمل اليومي .

والروتين يبدأ تعوداً على نمط معين من العمل والانجاز ، مرتبط بمفاهيم معينة ، ثم تصبح هذه العادة قسراً ، وتتخذ صفة القانون ، أي تستقل عن الاشخاص الذين كانوا يمارسونها ، وتصبح قوة قائمة بذاتها ، تحرك اجهزة الدولة وفق مشيئتها ، بطريقة غريبة في نوعها ، تتجلى بما يشبه حالة السير اثناء النوم . فالإنسان يحرك الامور بصورة آلية ، ويوقع على الاوراق بصورة آلية ، ويقرأ بصورة آلية ، كأنما لا ارادة له فيما يفعل ، و كأنما قد غفا الشعور عنده . والخوف كل الخوف ان يغفو الضمير ايضاً بعد غفوة الشعور .

بفضل هذا الاستقلال الذي أخذ يتمتع به الروتين تجاه الأشخاص، فقدأصبح صنماً او غاية بذاته : الفن للفن ، والتطويل للتطويل . ولكن من المسؤول عن هذا التطويل ؟ هنا تبرز الشطارة في منطـق الروتين ! انه بالضبط تطويل يستهدف تجزئة المسؤولية الى ما لانهاية له من الاجزاء ، بقصد التحلل منها !! ان كل جزء منها يختص به شخص ما ، ولكن هـذا الجزء لايتحدد منفصلا عن الاجزاء الأخرى . هكذا تضيع المسؤولية في متاهة لا اول لها ولا آخر .

فاذا كان ممكناً انجاز الأمور الشائعة والمألوفة بالاساليب الروتينية ، فمن المحقق أن الأمور الجديدة التي تعبر عن انطلاقات المجتمع المتحرر لايمكن انجازها بهذه الطريقة البالية .

بالروتين لم يكن ممكنا انشاء السد العالي ، وبالروتين لن يكون ممكنا انشاء سد الفرات . هذا ماأدركه العقل الاشتراكي في كل من مصر وسورية ، اذ لاحظ ان الاهداف الاقتصادية والاجتماعية الجـديدة تتطلب اساليب تنفيذ جديـدة ، فاقام تشريعات من نوع خاص ، لانجاز هذه الاهداف ، بعيدة عن الطرق الروتينية السائدة .

ان شعار « الثقافة للشعب » هو ايضاً أحد الاهداف الجديدة التي ينشدها المجتمع الاشتراكي العربي. وعلينا اذا كنا مؤمنين حقا بهذا الشعار ان نناى به عن جميع هذه المتاهات التقليدية . متاهات الروتين ، التي تعمل على ابادته بدلا من انعاشه . علينا ان نكتشف له وسائل جديـدة ، تتفق والاندفاع العفوي الذي يحفز الاجيـال العربية الناشئة الى الثقافـة وارواء الرغبـة في المعرفـة . فباستمرار تلـك الطرق الضيقة الخانقـة من التثقيف لايمكن ان نبلغ الغاية التي ننشـدها من الثقافة العربية الجماهـيرية . ان التحرر الاجتماعي يبدأ بتحرر الفكر ، واشاعـة

الثقافة بين الناس . وهذه تشترط محو أمية الأميين منهم . ولايجوز أن يظل اكثر من نصف أبناء المجتمع الاشتراكي العربي أميين . لابد من تحرير هذه الملايين من أميتها . ولكن طريق الروتين الحكومي قد فشل حتى الآن . وفي اعتقادنا أن الطلائع المثقفة التقدمية ، أقدر على النهوض بهذه المهمة . وقد برهنت فعلاً عن كفاءتها في الأداء لأنها لا تلتزم بالروتين سبيلاً الى الانجاز .

* * *

ويكمل العقل المالي السائد في اجهزة الدولة العربية الاشتراكية ، هاتين الظاهرتين المرضيتين اللتين أتينا على بحثها: البيروقراطية ، والروتين .

بل إن هذا العقل المالي يعتبر تتويجاً لها ، او هو ثالثة الأثافي . انني أعني بالعقل المالي السائد ، مجموعة الانظمة والتشريعات والأساليب والطرق التي تستعملها الاجهزة المالية في الدولة سواء في ميدان الانفاق او في ميدان جمع المال . ومما لاشك فيه ابداً أن بين هذا العقل المالي وبين الاهداف الجديدة فصاماً لاسبيل الى رأبه . بل إن من المستحيل ايجاد صيغة وفاق بين هذا العقل وهذه الأهداف .

العقل المالي السائد في بلاد العروبة ، حتى التقدمية منها ، عقلٌ عثماني بكامل معاني الكلمة . **انه عقل ينطلق من جملة مبادىء ضمنية : مبدأ سوء الظن بكل انسان مسؤول عن الانفاق من اموال الدولة** (كل موظف سارق حتى يثبت العكس) **مبدأ الحذر من كل طلب من طلبات الانفاق على أمور الثقافة** (توزيع الكتب على المواطنين هدر لأموال الدولة ، تقديم محاضرات وندوات مأجورة لابناء الشعب تبديد للوقت والمال معاً فيجب الغاؤهما او الاقلال منها الى أضيق الحدود) **مبدأ تثبيط عزيمة اكثر المتحمسين للعمل القومي وذلك بوضع مئات**

العقبات في وجهه حين يفكر بتكسير هذه الاحاجي المالية الرهيبة الموضوعة في درب تثقيف الناس ، والتي لاهدف لها بالنتيجة إلا تعويق مهمة التثقيف هذه ؛ وأخيراً، مبدأ المبادىء ، القائم على اعتبار الثقافة والتثقيف عملية شعوذة و « زعبرة » . فقنطار قطن خير من ألف محاضرة وألف كتاب .

مرة اخرى يقوم الدليل على أن العلاقة بين العقل والمال ماتزال كالعلاقة بين الزيت والماء .

العقل المالي المتحكم في ادارات الدولة ، صورة مكبرة لبخيل موليير . انه يزيد باستمرار من تعقيد الامور ، تجنباً للتبذير واساءة الاستعمال ، على حد زعمه . والتعقيد لايحل الاشكالات طبعاً ، بل يزيد في الاطالة والبطء في الانجاز ، ويؤدي الى يأس المثقفين من أمل تطوير الثقافة في مجتمعهم وجعلها اكثر مرونة واكثر جدوى .

إن مفارقات العقل المالي المهيمن على شؤون الادارات في المجتمع العربي الحديث كثيرة وطريفة ، انها صارخة في سخفها وسطحيتها : العقل المالي في هذا البلد العربي مثلا يعترف لك ، على مضض طبعاً ، بأن تأليف كتاب ما عمل فكري ، ولكن مراجعة مخطوطة الكتاب ذاته ليست عملا فكرياً ، بل عملا ادارياً بيروقراطياً مماثلا لأي عمل من أعمال دواوين الدولة .. فاذا قلت لأصحاب هذا العقل إن مراجعة مخطوطة كتاب تفترض جهداً فكرياً وثقافياً لايقل — في ابسط الاحوال — عن تأليف الكتاب ، لم يفهموا شيئاً مما تقول . واذا فهموا شيئاً تذرعوا بجمود الانظمة — التي هي من وضعهم ، ثم أصبحت فيما بعد سيدة عليهم وعلى عقولهم — التي تأبى الا ان تميز بين التأليف والمراجعة وان تعتبر الاول من صنف « العمل الفكري » والثانية من صنف « العمل الاداري » وان تضع للثانية تقييما من نوع يختلف عن تقييم الاول ، وهكذا ..

والعقل المالي ، العثماني التكوين ، المتحجر الصيغة ، مازال يعتبر الكتاب

« أثاثاً » ويعامله كما يجب ان تعامل الطاولة والكرسي ، ويجري عليه الاساليب ذاتها من الروتين التي يجريها على أية عملية « مادية » . فالكتاب ، كي يصل الى يدي القارىء ، يجب ان يمر في الف قيد ، وعلى الف توقيع ، وفي أطر الف ضمانة وكفالة . وينبغي للكتاب ان يوضع في خزانة وان يغلق عليه ، وأن يكتفي الراغبون في الثقافة برؤيته من خلال زجاج الخزانة ، لأن مجرد إخراجه منها يعني ملء نماذج سحرية مختلفة من اوراق الاعارة والاستعارة وصيغ الضمانات ، لئلا يصاب الكتاب بشيء من « الاحتكاك » ولئلا يهترىء غلافه فيهرع العقل المالي الى أمين المكتبة او المسؤول عن هذه الكتب فيأخذ بتلابيبه ويغرمه ثمن الكتاب او الكتب التي اصابها الاذى بنتيجة المطالعة . إذن المهم ان نطبع الكتب وأن نغلق عليها لئلا يتحمس الناس الى مطالعتها ، فتتلف .

والخلاصة إن العقل المالي السائد في ادارات الدولة العربية الاشتراكية مازال بعيداً كل البعد عن التكيف مع مفاهيم الثقافة ونشرها ، وإقامة الفنون وتشجيعها ، وإتاحة الفرص للمواطنين كي يتثقفوا ويتذوقوا . ويكفي أن تتقدم مؤسسة من مؤسسات الدولة بمشروع جديد يرمي الى تحقيق اغراض ثقافية صرفة (محو الأمية ، انشاء مراكز ثقافية ، شراء مطابع جديدة ، زيادة المخصصات لشراء الكتب والمجلات والدوريات ، انشاء فرق مسرحية او موسيقية والإنفاق عليها ، تقديم مكافآت للكتاب والادباء والفنانين) ، يكفي أن يعرض احد هذه المشاريع على الاجهزة المالية لتقوم بدراسته والمساعدة على تنفيذه ، حتى يكون مصيره الاغتيال المحقق ، قبل أية دراسة او مناقشة .

ان العقل المالي ، في أشكاله الراهنة ، متخلف تخلفاً كبيراً عن مسايرة التطور الذي حدث في داخل المجتمع العربي ، انه متخلف تخلفاً صارخاً عن إدراك

وفهم الحاجات الجديدة للمجتمع العربي ، ومن جملتها حاجته الى ان يقرأ ويعرف ، ويحسن التفكير والفهم . فلابد من اعادة النظر في هذه العقلية المالية وتطويرها بحيث تلبي الحاجات التي نعمل على تحقيقها .

* * *

هذه نماذج ، مكثفة وقليلة ، من معوقات الحركة الثقافية في داخل الاقطار العربية ، إنها لم تعد سراً على احد ؛ ولكن هناك شيئاً من الجبن في مواجهتها والتصدي لمعالجتها . وكل تأخر في وضع هذا العلاج بموضع التنفيذ يزيد من احتمالات تحوّل المؤسسات الثقافية الى عبء يثقل فوق كاهل المجتمع والدولة ، ويرتد بالأذى على الثقافة والناس معاً .

* * *

وفي مقابل هذه المعضلات « الاقليمية » للثقافة ، تربض المعضلات القائمة بين الاقطار العربية مجتمعة . ان الصعوبات التي تواجه انتقال الثقافة من قطر عربي الى آخر هي أكبر من الصعوبات التي تواجه انتقال الثقافة من بلد اجنبي الى قطر عربي . ذلك يحدث في الوقت الذي تنطلق فيه الجماهير العربية مطالبة بالوحدة العربية ، معتبرة إياها أكثر من حقيقة ستحدث ، وأكثر من واجب ينبغي تحقيقه ، إذ هي في ضمير هذه الجماهير الحافز الأول الى نضالها وكفاحها وتضحياتها .

إن مقومات الثقافة العربية واحدة ، متماثلة ، في جميع الاقطار العربية ، كما أن اهداف هذه الثقافة واحدة ؛ وحتى اذا ظهرت في بعض الظروف وبعض الاقطار العربية ، بغير هذا الواقع ، فينبغي ألا يفوتنا العمل على جعلها تستهدف اهدافاً واحدة : توحيد أطر التفكير العربي ، توحيد أطر التعبير عن الفكر العربي ، توحيد المشاعر والضمير بين ابناء الأمة الواحدة ، وضع الثقافة

في خدمة العمل الرامي الى تحسين حـــال المجتمع العربي مادياً ومعنوياً ومعاشيا . تحرير الفكر العربي من سلطان الضلالات والعبوديات لينطلق في معارج الحرية والتقدم والابداع .

مثل هذه الأهداف تستدعي في الظروف الراهنة ، تذليل جميع الصعوبات التي تعترض انتقال وسائل الثقافة (الكتاب ، المجلة ، اللوحة الفنية ، الفرقة المسرحية) من قطر الى قطر . نقول في الظروف الراهنة اذ أن واقع التجزئة في الوطن العربي قد أدى الى نوع من انكماش « الثقافات الاقليمية » واستقلالها عن بعضها والشعور بأن كل واحدة منها كيان قائم بذاته ، تتميز عن سواها بخصائص أصيلة ، وأن فكرة الثقافة العربية مجرد حلم جميل يدغدغ عقولاً طوبائية ، وأن وحدة الثقافة العربية بالتالي يجب اعتبارها ميثاقاً أو صكاً حقوقياً أكثر من اعتبارها مقوم وجود وبقاء لكل ثقافة عربية .

في هذا الواقع المر تنشط ، أو قل تختنق الثقافة العربية الحاضرة . فالعوائق الجمركية ، وصعوبات تحويل العملات لشراء المطبوعات من الأقطار العربية (العقل المالي الاقليمي أيضاً ...) والاعتبارات السياسية المختلفة ، وإيكال التقييم الثقافي الى اجهزة دون المستوى المطلوب بكثير (أجهزة الرقابة على المطبوعات في البلاد العربية ...) كل هذه عوامل اسهمت في تضييق التفاعل الثقافي بين أقطار العروبة . واذا صح أن هذه العوائق يمكن فهمها وتفسيرها بل وتبريرها حين تكون قائمة بين بلاد عربية اشتراكية تقدمية من جهة ، وبلاد عربية ذات نظم محافظة أو رجعية ، من جهة ثانية ، فليس ثمة أي تبرير لها ، حين تكون موجودة بين البلاد العربية التقدمية ذاتها . ان الصعوبات التي يلاقيهـــا

الكتاب العربي (المطبوع في سورية) كي يصل الى الجزائر أو القاهرة ، هي ذات الصعوبات التي يلاقيها الكتاب العربي (المطبوع في القاهرة) كي يصل الى دمشق أو الجزائر ، وهي صعوبات غير معقولة ، وغير مقبولة ، ولا يجوز استمرار السكوت عنها . فمن حق المثقف العربي في الجزائر أن يقرأ انتاج إخوته المثقفين في دمشق وحلب والاسكندرية والموصل ، وان يكون قادراً على الاتصال الدائم المستمر بكل ما تقذف به المطابع من مطبوعات ودوريات في هذه البلاد . كما ان من حق المثقف العربي في دمشق ان تيسر في وجهه سبل مطالعة واقتناء المطبوعات التي تصدر في القطر الجزائري أو المصري أو العراقي ... ولكن واقع هذا الحق مازال مقصراً عن الأماني . ولو أتيح لنا ان نطلع على الاحصاءات المتعلقة بانتقال المطبوعات بين الاقطار العربية التقدمية لرأينا مايدعو الى الأسى من ناحية ، والتمرد على هذا الواقع من ناحية أخرى .

اننا لن نلجأ الى الاهابة بتطبيق نصوص ميثاق الوحدة الثقافية العربية الذي أعد في بغداد (شباط — فبراير ١٩٦٤) والذي أبرمته بالصيغ القانونية اكثر الدول العربية الاعضاء في الجامعة العربية ، رغم كوننا نعتبر مثل هذا التطبيق عملا كان يجب ان يتم بصورة تلقائية دون أي اشكال . ولكننا نريد ان نقول : ليس المطلوب فقط وضع صيغ التعاون والتبادل الثقافي بين البلاد العربية ، وتنفيذها تنفيذاً شكلياً ، كما لو كان الامر ضرباً من ضروب « السخرة » أو شراً لابد منه . ان وضع صيغ التعاون والتبادل الثقافي هو نتيجة طبيعية لحاجة ملحة الى توحيد أطر وأسس الثقافة في البلاد العربية . انها نتيجة لحرص المثقفين العرب على ان يعرفوا مايجري من نشاط ثقافي في اقطار العروبة . لذا فاننا نعتبر ميثاق

الوحدة الثقافية العربية نتيجة لأسباب لدوافع ثقافية عربية وحدوية . واذا كان هذا هو الواقع ، فلسنا نفهم تفسيراً ولاتبريراً لهذه السدود ، تقام في وجه حركة الثقافة بين الأقطار العربية التقدمية . وقد آن لنا أيضاً ان نزيلها فعلا لا قولاً .

ومرة اخرى نقول : إن الناس تحقيق الأهداف الثورية الجديدة ، يتطلب الناس اختراع الوسائل الثورية المناسبة لها . ان شعار « الثقافة للشعب » شعار ثوري اشتراكي تقدمي ، إنه هدف من أهدافنا الجديدة . فهلا التمسنا الى تحقيقه وسائل اخرى غير الوسائل التقليدية التي عرضنا لها في هذالبحث؟ إن الثقافة هدف عربي كبير . وينبغي أن ننهض بكافة تبعاته وإلزاماته . وما هذه المحاولة النقدية التي قدمناها إلا إسهام في تشخيص الداء ، تمهيداً لاكتشاف الدواء الناجع .

